
من نور القرآن

من نور القرآن

تفسير موضوعي حركي يقتبس من القرآن الكريم
ما يلقي ضوءاً على قضايا عقائدية أو أخلاقية
أو فكرية أو اجتماعية

سماحة المرجع الديني
الشيخ محمد اليعقوبي
"دام ظله"

الجزء السادس

سورة فاطر – سورة الصف

هوية الكتاب

اسم الكتاب:..... من نور القرآن

تأليف : ..... سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله)

الموضوع :..... التفسير

الجزء :..... السادس

عدد الصفحات :..... ٤١٨

الطبعة :..... الرابعة

التاريخ :..... ١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

طبع ونشر

دار الصادقين للطباعة والنشر والتوزيع

العراق - النجف الأشرف - شارع الرسول (ص)

هاتف: ٠٠٩٦٤ ٧٨١٠١٩٥٤٨٠

دار الصادقين

القبس/١٦٩

سورة فاطر:﴿٥﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (فاطر:٥-٦).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نداء لكل البشر وليس فقط الكافرين او الفاسقين او الذين اسلموا او الذين امنوا لان الناس كلهم معنيون بهذا النداء ومن المتعارف ان من يصيح يا أيها الناس فان الناس يلتفتون اليه ويصغون لما يقول لان مثل هذا النداء يتبعه امر مهم او تحذير من شيء خطير او نحو ذلك، فكيف اذا كان المنادي رب العزة والجلال على لسان مئة وأربعة وعشرين الف نبي ومرسل.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ هذه هي القضية المنادى بها وقد تكرر ذكرها في غير موضع من كتاب الله كقوله تعالى ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (لقمان:٣٣) وحاصلها ان ما وعدكم الله به من انتهاء حياتكم الدنيا بالموت ووجود حياة بعد الموت يكافأ فيها المحسن على أساس احسانه ويعاقب المسيء على اساءته ولكل من المثوبة والعقوبة درجات ودركات، كله حق لابد ان يقع والا كان ظلماً ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (آل عمران:١٨٢) لانه يعني مساواة الظالم والمظلوم والجلاد والضحية والمسيء

والمحسن وهذا باطل وخلاف الحكمة والعدالة ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران:﴿١٩١﴾) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (الأنبياء:﴿١٦﴾).

وهذا الاعلان عن الوعد الحق فيه تحذير للعاصين والظالمين حتى يرتدعوا، وفيه تطمين المظلوم والمحروم بانه سيأتي اليوم الذي يعوضه الله تعالى فيه ويرد اليه الحق فيستقر ويهدأ.

ومادام الموت حق ومنكر ونكير حقاً والنشور حقاً والحساب حقاً والجنة والنار حقاً وكل ما اخبر به الأنبياء والرسل، اذن ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فلا تخدعكم الدنيا بزينتها ومظاهرها الخلابة من مال وبنين وعشيرة وجاه وزعامة ومواقع في السلطة واي شيء اخر فأنها كلها تزول لذتها وتبقى تبعتها فالمظاهر الدنيوية التي تبعدكم عن الله تعالى عدو لكم فاحذروها وعليكم ان توظّفوا ما خولكم الله تعالى به من أمور الدنيا للفوز بالأخرة واكتساب الجنان (الدنيا مزرعة الاخرة)[1].

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وهذا هو العدو الآخر، أنه الشيطان ﴿الْغَرُورُ﴾ وهي صفة مشبهة او صيغة مبالغة من الغرور أي إن التغرير بالأخرين صفته اللازمة لذاته ووظيفته التي لا يتوقف عنها، ويواجه الانسان مع هذين العدوين العدو الأول والاكبر وهي النفس الامارة بالسوء الميالة الى اللهو واللعب وارتكاب المعاصي والمليئة بالشهوات والغرائز النهمة التي لا تشبع في الحديث

(١) غوالي اللآلي: ١/ ٢٦٧/ ح٦٦.

الشريف عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك)[1]، وكل ما يقوم به العدوان الاخران (الشيطان والدنيا) هو استثارة هذه الشهوات والغرائز وتزيينها والتعمية على العقل والفطرة بالخداع والتغرير وخلط الأوراق وتشبيه الباطل بالحق ونحو ذلك، أي انها كالعامل المساعد في علم الكيمياء الذي يساعد على التفاعل ويسرّعه كوجود النفط او البنزين على الخشبة المحترقة ﴿وقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّه وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم﴾ (إبراهيم:٢٢).

وتغرير الشيطان يكون من طريقين:

١- تزيين مشتهيات النفس واهوائها كالشهوة والغضب والعصبية والحسد وغيرها وكذلك تزيين زخارف الدنيا وبهارجها بغضّ النظر عن موافقتها لما يرضي الله تبارك وتعالى وعدمها.

٢- الاغترار بحلم الله تعالى وطول اناته عن الظالمين وعفوه وكرمه فيدعوه ذلك الى تسويف التوبة والتمادي والاستمرار على المعصية، والا ما الذي يدعو العاصي الى ارتكاب المعاصي وهو يعلم انها معصية وفيها غضب الله تبارك وتعالى وسوء العاقبة في الدنيا والاخرة لولا هذا الاغترار وفي دعاء ابي حمزة الثمالي عن الإمام السجاد ﴿إِلهِي لَمْ أَعْصِكَ حِيْنَ عَصَيْتُكَ وَأَنا بِرُبُوبِيَّتِكَ جاحِدٌ وَلا بِأَمْرِكَ مُسْتَخِفٌ وَلا لِعُقُوبَتِكَ مُتَعَرِّضٌ وَلا لِوَعِيدِكَ مُتَهاوِنٌ، لكِنْ خَطِيئَةٌ

(١) بحار الأنوار:- المجلسي: ٦٧/ ٣٦.

عَرَضَتْ وَسَوَّلَتْ لِي نَفْسِي وَغَلَبَنِي هَوَايَ وَأَعانَنِي عَلَيْها شِقْوَتِي وَغَرَّنِي سِتْرُكَ المُرْخَى عَلَيَّ﴾[1] وقد يستغل الشيطان حالة الاستدراج والاغراق بالنعم التي يملي بها الله تعالى العاصين ليوهمه بأنه على صواب وان الخير كل الخير هو في الاستمرار على هذا المنهج الذي هو باطل ومنحرف، مادام يجلب له هذه السعادة الموهومة فيستمر على عصيانه ويتسافل اكثر في جهنم.

وتعلل الآية التالية هذا الفعل من الشيطان وسببه ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ وقد أعلن هذا العداء منذ بدأ الخليقة حينما لعن وطرد من زمرة الملائكة عقب استكباره عن السجود لآدم، وقد شهر سلاحه ونصب فخوخه لكم بجميع الاتجاهات ﴿قالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف:١٦-١٧).

فعداؤه لكم دائم ودائب من حيث تتوقعون ومن حيث لا تتوقعون ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:٢٧) وهذا الخفاء يعقد المواجهة ويصعّبها، تصوروا ان واحد من فخوخه وخدعه وهو الشرك الخفي كالرياء يوصف خفاؤه في باطن الانسان في الحديث النبوي الشريف (ان الشرك اخفى من دبيب النمل على صفاة- أي صخرة- سوداء في ليلة مظلمة)[2] أذن كيف يمكن معرفة كل فخوخه وخدعه

(١) أنظر: مفاتيح الجنان: ٢٤٠، دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام علي ابن الحسين(عليه السلام).

(٢) بحار الانوار: ٧٢/ ٩٣/ ح٢.

لولا لطف الله تعالى.

وامام هذا الهجوم الشرس والمستمر بكل الوسائل والخدع والمكائد فعليكم ان تقابلوه بالمثل ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ وليس من العقل والحكمة أن تغفلوا عنه وتتسامحوا مع خططه وأساليبه فضلاً عن اتباعه والانسياق وراء تسويلاته وتزيينه ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ (الكهف:٥٠) ولعله اليوم أكثر خبرة وتقنية مما سبق وقد استطاع في أول محاولة مخادعة آدم (عليه السلام) ﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ (الأعراف:٢٢) فكيف اليوم وقد كثرت أدواته وتفنن فيها شياطين الانس والجن ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۞ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (يس:٦٠-٦٢).

وهذا الشيطان لا يرضى من الناس إلا ان يرميهم في السعير ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ﴾ (فاطر:٦) واتباعه والحزب الجماعة الذين يوحدّهم هدف معين ولهم تأثير وفاعلية ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ كما ان شياطين الانس ودوائر الاستكبار والماسونية لا ترضى من الناس الا ان ينحّطوا الى اخّس درجات الهمجية التي تترفع حتى الوحوش عن ممارستها بحيث يُسنّ الشذوذ الجنسي المسمى بزواج المثليين بقانون رسمي تُباركه الحكومات التي تدعي التحضّر.

اما سلاح الانسان في هذه المواجهة الشرسة والمعقدة والمفتنة على الجميع الاتجاهات فانه أولا بعد التوكل على الله تعالى وطلب العصمة والتسديد والتأييد ففي دعاء نهار شهر رمضان (اَللّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد، وَاَعِذْني فيهِ مِنَ

الشَّيْطانِ الرَّجيمِ وَهَمْزِهِ وَلَمْزِهِ وَنُفْثِهِ وَنُفْخِهِ وَوَسْوَسَتِهِ وَتَثْبيطِهِ وَبَطْشِهِ وَكَيْدِهِ وَمَكْرِهِ وَحبائِلِهِ وَخُدَعِهِ وَاَمانِيِّهِ وَغُرُورِهِ وَفِتْنَتِهِ وَشَرَكِهِ وَاَحْزَابِهِ وَاَتْباعِهِ وَاَشْياعِهِ وَاَوْلِيائِهِ وَشُرَكائِهِ وَجَميعِ مَكائِدِهِ)[1].

وثانيا: الحذر والحيطة والتحفز والانتباه الى كل اشكال المكر والخداع حتى وإن أُلبست ثوب الخير والطاعة والدين والنصيحة، فان الشيطان يأتي لكل فرد أو جماعة من الجهة التي يخدعهم بها فعنده أدوات لعلماء الدين وأخرى للتجار وأخرى للسياسيين وأخرى للزعماء والوجهاء وأخرى للنساء وأخرى للشباب وهكذا مما يتطلب ذكرها الى تفصيل، ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) ان من وصايا الله عز وجل الى موسى بن عمران (عليه السلام) التي أوصاه بحفظها (ما دمت لا ترى الشيطان ميتاً فلا تأمن مكره)[2]، والجزء الاخر من الأمور كلها على ميزان العقل والفطرة والدين واتباع من أمر الله تعالى باتباعه.

وثالثا: كان المرحوم الشيخ جعفر الشوشتري صاحب كتاب الخصائص الحسينية (توفي سنة ١٣٠٣هـ) واعظاً مؤثراً وله منبر وعظ في الصحن الحيدري الشريف يحضر عنده العلماء والفضلاء وعامة الناس، وذات يوم قال للحاضرين بلغني من مخبرين ثقات ان سراقاً تخللوا صفوفكم ليقتنصوا الفرصة ويسرقون ما في جيوبكم فأوصيكم بالحذر والانتباه، وهنا هاج الناس ولملموا ثيابهم وصاروا يراقبون كل حركة ولما سكن المجلس قال لهم: ألا تعجبون من غفلتنا وتقصيرنا إذ نهتم كل هذا الاهتمام بدرهم نخشى سرقته وهو متاع زائل ولا نكترث لنداء

---

(١) مفاتيح الجنان: ٢٥٧

(٢) الخصال: ٢١٧/١.

الله تعالى وانبيائه ورسله بأن الشيطان لكم عدو متربص بكم ويريد أن يسرق منكم دينكم وتقواكم وهو أثمن ما يجب المحافظة عليه لأنه سبب نجاتكم وفوزكم في الآخرة فكيف نغفل عنه ونسقط في تسويلاته.

القبس/١٧٠

سورة فاطر:﴿١٥﴾

﴿أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر:﴿١٥﴾)، وفي معناها قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ (محمد:﴿٣٨﴾).

الفقير مقابل الغني، وهي صفة مشبهة فتدل على حال علق بالذات على نحو مستمر كما في قتيل بمعنى مقتول، وليس مؤقتاً كاسم الفاعل، أو هي صيغة مبالغة تدل على شدة اتصاف الموصوف بالصفة على نحو رحيم وكريم وعظيم.

والفقر يتضمن معنى النقص والضعف الموجب للاحتياج، فنقول إن هذا الشيء يفتقر إلى كذا أي يحتاج إليه، أما الغني فيتضمن معنى الكمال والقوة الرافعة للاحتياج، والاحتياج سببه الفقدان والانفصال عمّا يحتاج إليه، ولعله لهذا سميت الفقرات في العمود الفقري لأنها حلقات منفصلة محتاجة إلى بعضها.

وبذلك يتحصّل لنا أكثر من وجه لتسمية الفقير:

أ- لانفصاله وانقطاعه عن سبب كماله وحاجته وفقدانه له كالمال وغيره.

ب- لأن الفقر بذلّته ومسكنته وشدة وطأته كسر ظهر صاحبه وقطع عموده الفقري، ومن كسر عموده الفقري فإنه يكون مشلولاً عاجزاً عن الحركة والنهوض وهكذا الفقير لا يستطيع سد احتياجاته إلا بأن يكمل أحدٌ نقصه، سواء كان على مستوى الفرد أو الأمة فإنها إذا كانت لا تمتلك مقومات القيام فإنها عاجزة

مستعبدة.

وقد أطلق القرآن الكريم على المصيبة العظيمة بأنها فاقرة أي قاطعة للعمود الفقري وكاسرة للظهر في قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ (القيامة:٢٤) أي عابسة بائسة ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (القيامة:٢٥) وهي الداهية العظمى التي تكسر فقار الظهر كما يقال قاصمة الظهر، وفي الحديث الشريف عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (من القواصم الفواقر التي تقصم الظهر جار السوء)[١].

ويراد بالفقير في المصطلح هو الذي لا يستطيع توفير احتياجاته المعاشية الأساسية بشكل مستمر فهو في ضعف عن سد الحاجة ونقص من هذه الجهة ويحتاج إلى من يسّد حاجته، وعرّفه الفقهاء بأنه من لا يملك قوت سنته وأشكلنا على التعبير[٢] وقلنا إن الصحيح هو أنه لا يجد قوت سنته، لأنه قد يتوفر لديه ما يحتاج على نحو غير التمّلك كإباحة التصرف أو دخوله في عنوان الموقوف عليهم ونحو ذلك، فهو ليس فقيراً مع عدم تملكه.

وفي حصر الفقير بنقص المال تضييق لمعناه الواسع إذ يمكن أن يكون فقيراً في الدين أو العلم أو الأخلاق أو الجاه أو العلاقات الاجتماعية ونحو ذلك، روى الشيخ الكليني في الكافي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (الفقر الموت الأحمر، فقلت لأبي عبد الله: الفقر من الدينار والدرهم؟ فقال (عليه السلام): لا، ولكن من الدين)[٣] وروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله:(الفقر فقر القلب)[١] ومن

(١) الكافي – الشيخ الكليني: ٢/ ٦٦٨.

(٢) سبل السلام، العبادات، كتاب الزكاة، (ط ٦/ ص ٤٧٧/ مسألة: ١٦٦٥).

(٣) الكافي: ٢/ ٢٦٦.

كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام): (لا فقر كالجهل)[٢] و(أكبر الفقر الحمق)[٣].

بل الأهم من ذلك أن يلتفت إلى فقره الذاتي وحاجته إلى الغني المطلق وهو الله تبارك وتعالى، وهذا هو الفقر الحقيقي الذي تفرعت عنه المصاديق الأخرى، فقد يكون صاحب مال أو علم أو زعامة أو أي شيء آخر من هذه الأمور الدنيوية لكنه في حقيقته فقير.

وهذا الفقر دليل على وجود الله تعالى الغني لأن الفقير لا يتمكن من الحياة إلا بإمداد الغني، (إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك)[٤].

فالإنسان محتاج إلى الله تعالى ابتداءً حيث أعطاه الله تعالى كل تلك النعم ولم تكن عنده، واستمراراً إذ يمكن أن يسلبها في أي لحظة وإلى هذا أشار الإمام الحسين (عليه السلام) في دعائه يوم عرفة: (إِلهِي أَنا الفَقِيرُ فِي غِنايَ فَكَيْفَ لا أَكُونُ فَقِيراً فِي فَقْرِي)[٥]، فهذا الغنى نسبي بلحاظ حالة معينة، وإلا فإن الفقر صفة ذاتية ثابتة فيه.

وثمرة الالتفات إلى هذه الحقيقة ألا يغتّر الإنسان بما عنده من هذه الأمور فيطغى ويؤدي به الطغيان إلى كفران النعمة والتمرد على الله تبارك وتعالى

---

(١) بحار الأنوار: ٥٦/٧٢، ح٨٦.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٥٤.

(٣) نهج البلاغة، الحكمة ٣٨.

(٤) مفاتيح الجنان، الدعاء الملحق بدعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة.

(٥) بحار الأنوار: ٩٥/ ٢٢٥، مفاتيح الجنان: دعاء يوم عرفة.

وعصيانه، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق:٦-٧) فهو لم ولن يستغني ولكنه توهم الغنى ورآه بعينه غير البصيرة فتصور أن الثراء وكثرة المال واقتداره الظاهري يحميانه من الفقر و الحاجة، ولم يلتفت إلى أن هذا كله معرض للزوال فأعجب بنفسه وطغى، لذا يتعوذ المعصومون (عليهم السلام) من هذا الغنى الوهمي ففي الدعاء (اللهم أغنني بالافتقار إليك ولا تفقرني بالاستغناء عنك)[1].

ويذكر القرآن الكريم قارون مثالاً على ذلك فقد أعطاه الله تعالى مالاً كثيراً ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ (القصص:٧٦) ولما نصحوه بأن يحسن ولا يبغي الفساد في الأرض ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص:٧٨) أي بقدراتي الذاتية وليس بفضل الله تعالى، ولم يلتفت إلى حقيقة مهمة ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (القصص:٧٨).

وروى الشيخ الكليني (قدس سره) في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (جاء رجل موسر إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) نقي الثوب، فجلس إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فجاء رجل معسر درن الثوب فجلس إلى جنب الموسر، فقبض الموسر ثيابه من تحت فخذيه، فقال له رسوله الله (صلى الله عليه وآله): أخفت أن يمسك من فقره شيء؟ قال: لا، قال: فخفت أن يصيبه من غناك شيء؟ قال: لا، قال: فخفت أن يوسخ ثيابك؟ قال: لا، قال: فما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله إن لي

(١) بحار الأنوار: ٦٩/ ٣١.

قريناً يزيّن لي كل قبيح ويقبّح لي كل حسن وقد جعلت له نصف مالي، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): للمعسر أتقبل؟ قال: لا، فقال له الرجل: ولمَ؟ قال: أخاف أن يدخلني ما دخلك)[1].

وهذا ما أرادت الآية الكريمة التنبيه عليه وإخراج الناس من وهمهم وغفلتهم وطغيانهم، فأنتم فقراء ومحتاجون دوماً إلى الله تعالى وهو الغني المطلق عنكم وعن غيركم ولا تنفعه عبادتكم ولا أي شيء.

ونحن محتاجون إليه تعالى بجميع أسمائه الحسنى كالرحيم والغفور والهادي والرازق والعليم؛ لذا جيء بلفظ الجلالة الجامع لصفات الكمال، وإن الإنسان ليخجل من غفلته عن هذه الحقيقة التي يشهد بها وجدانه وكيانه حتى يذكّره الله تعالى بها.

وهو الحميد الذي يستحق أن يحمد لأن الغنى صفة كمال تستحق الحمد، وهو محمود على كل ما يفعل لأنه يختار الخير لعباده حتى وإن منع عنهم العطاء، وهو حميد لأنه مع غناه عن خلقه يذكرهم برحمته ويشفق عليهم وينزل إليهم كل ما فيه صلاحهم وسعادتهم، وجعل الإنسان خليفته في أرضه، وهو حميد لأنه يعطيهم بلا عوض لأنه غني عنهم وهذا وجه ارتباط الغني بالحميد، وينحصر الحميد به لأن طبع البشر الأغنياء هو اللؤم، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً﴾ (الإسراء:١٠٠).

---

(١) الكافي: ٢/ ٢٦٢-٢٦٣، بحار الأنوار: ٧٢/ ١٥.

لكن الشيطان ينسي الإنسان هذه الحقيقة ويوهمه بأن غناه في الحرص على تملّك هذه الأمور الدنيوية والاستزادة منها بأي نحو كان ليمنعه من إنفاقها في سبيل الله تعالى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ (البقرة:٢٦٧) إلى أن قال ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٨).

وتذكر الآية التالية لمحل البحث مثالاً لفقرهم، قال تعالى فيها: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ بأن يفنيكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ غيركم كما أتى بكم ولم تكونوا موجودين من قبل ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي محال وممتنع، وورد مثله في آيات أخر[1] كما في آخر آية من سورة محمد (ﷺ) المتقدمة قال تعالى أيضاً: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد:٣٨).

فالإنسان فقير ومحتاج إلى ربه الغني في كل حركاته وسكناته وأفكاره وهواجسه بل هو محتاج في كل نفس وفي كل نبضةٍ للقلب وهكذا. والغنى هو في إدراك هذه الحقيقة ومعرفة أن الفقر صفة لازمة له، لكي يلتجئ إلى الله تعالى في سائر أموره طالباً فضله.

وحينئذٍ يكون هذا الإحساس بالفقر كمالاً للإنسان وقوة لأنه سيتّصل بفيض المنعم الواسع العليم، ولأنه سوف لا يرجو أحداً سواه ولا تذلّه الحاجة إلى أحد من الخلق، ولأنه يحفّزه على التحلي بالأخلاق الفاضلة والإتيان بالأعمال الصالحة راجياً ما عند ربّه الكريم، ولأنه سيدرك عظمة نعمة الله تعالى حين يلتفت إليه وهو

---

(١) لاحظ مثلاً سورة إبراهيم: ٢٠، النساء: ١٣٣، الأنعام: ١٣٣.

الغني عنه ومع افتقاره إليه سبحانه فكيف يقابله بالجحود والعصيان؟!

انما الصدقات الإلهية للفقراء الذين انقطعوا اليه تعالى:

وتوجد ثمرة أخرى لإدراك هذا الفقر الذاتي للإنسان والاحتياج إلى ربِّه الغني تعرف من ضمّ هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ (التوبة:٦٠) حيث يفهم أن لله تعالى عطاءً خاصاً يتصدق به ويتفضل به على من أدرك معنى الفقر في حقيقته فانقطع إلى الله تعالى، وهذا العطاء متفاوت بتفاوت المعرفة بهذا الفقر واستحضاره.

وهذا الفقر الذاتي صفة كل المخلوقات الممكنات المحتاجة إلى الواجب الغني بذاته فإنها جميعاً لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا قدرة ولا قوة (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال:٢٤).

وتذكر آية أخرى صورة من صور الاحتياج لكل المخلوقات، وهي الزوجية قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الذاريات:٤٩-٥٠).

وهنا يأتي سؤال بأن الآية لا تخلو من ظهور في حصر الفقر بالناس المخاطبين وكأن لسانها: أنتم أيها الناس دون سواكم الفقراء لله تعالى كما حصرت الغنى به تعالى، فكيف ينسجم هذا مع حقيقة أن كل المخلوقات فقراء إلى الله تعالى؟، ويمكن جوابه بوجوه:

أ- الأولوية بأن يقال: إذا كان الإنسان خليفة الله في الأرض المجعول بأحسن

تقويم شأنه الفقر والنقص والاحتياج فمن باب أولى بقية المخلوقات الأقل منه شأناً.

ب- التجريد عن الخصوصية فإن ملاك الفقر والاحتياج الذي جعل الناس فقراء إلى الله موجود في غيرهم أيضاً، وقال السيد الطباطبائي (قدس): ((وذلك أن عموم علة الحكم يعمم الحكم)) [1].

ج- إن الناس إنما خُصّوا بهذا الخطاب لأنهم وحدهم المتمردون والمتوهمون بخلاف الحق، أما المخلوقات الأخرى فإنهم مطيعون مذعنون مسلمون ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء:٤٤).

د- إن هذا الحصر إضافي، فإنما خوطب به الناس لأنهم يظنون أن الله تعالى حينما يدعوهم إلى توحيده ونبذ الشركاء عنه ويجاهد الرسل من أجل هدايتهم إلى طاعته وعبادته فإنه محتاج إليهم، وكذا حينما يطلب منهم الإنفاق فإنه سبحانه محتاج إليهم وأنهم أغنياء بما عندهم وبآلهتهم التي يعبدونها وتعطيهم ما يشاؤون، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء﴾ (آل عمران:١٨١)، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (المائدة:٦٤) فنبههم الله تعالى إلى هذا الوهم وأن الحقيقة

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٧/ ٣٤، وذكر (قدس) عدة أجوبة وصفها بأنها لا تلائم مفاد الآية وهي بعيدة فعلاً.

معكوسة فأنتم الفقراء إلى الله تعالى والله غني عنكم، وحينئذٍ لا تدل الآية على حصر الفقر بهم بل تدل على حصرهم بالفقر.

والغفلة عن هذا الفقر نقص وفقر مذموم فلا بد أن نفهم وجوه الفقر ونفرّق بين أحواله.

ومما ينبغي الالتفات إليه أنَّ المعصومين (عليهم السلام) تارة يذمون الفقر حتى قالوا فيه: (كاد الفقر أن يكون كفراً)[1] ويتعوذون منه كما في الدعاء (اَللّـهُمَّ اِنّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ ... والْفَقْرِ وَالْفاقَةِ وَكُلِّ بَلِيَّة)[2] لكنهم (عليهم السلام) يفتخرون باتصافهم به تارة أخرى كما في الحديث النبوي الشريف (الفقر فخري وبه أفتخر)[3] وسئل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): ما الفقر؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): خزانةٌ من خزائن الله تعالى، قيل ثانياً: ما الفقر يا رسول الله؟ قال: كرامة من الله، قيل ثالثاً: ما الفقر؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): شيء لا يعطيه الله إلا نبياً مرسلاً أو مؤمناً كريماً على الله تعالى)[4].

ومن وجوه الجمع أنّ الأول استعاذة من الحاجة الموجبة إلى نقص الدين وتدنيس الكرامة الإنسانية والاحتياج إلى الناس، والثاني هو الانقطاع إلى الله تعالى وشدة الاحتياج إليه وإنما يفتخر به لأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان في أكمل صور الانقطاع إلى الله تعالى والفقر والحاجة إليه سبحانه، وقد ورد في المناجاة الشعبانية لأمير المؤمنين (عليه السلام): (اللهم هب لي كمال الانقطاع اليك).

---

(١) أمالي الصدوق: ٣٧١.

(٢) بحار الأنوار: ٩٥/ ٩٣، مفاتيح الجنان: دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٣) بحار الأنوار: ٦٩/ ٣٠، عوالي اللئالي: ٤/ ١٢٥.

(٤) ميزان الحكمة:١٣٨/٧، عن جامع الأخبار: ٢٩٩/ ح٨١٥.

القبس/١٧١

سورة فاطر:﴿٣٢﴾

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾

موضوع القبس: القرآن الكريم يدعو الى التعامل مع الحياة بإيجابية

معنى أن نقول المؤمن خيِّر:

قال الله تبارك وتعالى مخاطبا نبيه الكريم (ﷺ) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧) وقال تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (الكوثر:١) والكوثر تعني الخير الكثير، وقال تعالى على لسان زكريا في دعائه لطلب الولد ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (مريم:٦) وقال على لسان عيسى بن مريم ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ (مريم:٣١) أي كثير البركة والعطاء، ونحو ذلك من الآيات التي ضمت مجموعة من صفات الإنسان الصالح ويجمعها الوصف الذي نطلقه على المؤمن بانه (خيِّر) وهي من صيغ المبالغة أي لا ترى منه إلا الخير، لذا وصفته بعض الاحاديث الشريفة بانه (الخير منه مأمول والشر منه مأمون)[1].

الحث على قضاء الحوائج وإدخال السرور:

ووردت احاديث كثيرة تدعو إلى ان يكون الأنسان مصدر خير وعطاء وعنصرا مثمرا في المجتمع كالاحاديث التي تحث على السعي في قضاء حوائج

(١) علل الشرائع- الشيخ الصدوق: ١١٦/١.

الناس ومساعدتهم وإدخال السرور[1] عليهم ورفع الأذى عنهم وفعل المعروف لجميع الناس بغضّ النظر عن الدين أو القومية أو النسب ونحو ذلك وتذكر لهذه الأعمال الإنسانية الصالحة ثوابا عظيما يفوق اكثر العبادات أهمية.

العفو والصفح عن الإساءة:

وأكمل الشارع المقدس هذه الصورة الحسنة لسلوك المؤمن فطالبهُ بالعفو والصفح عن إساءة الآخرين، قال تعالى ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (النور:٢٢) وامر بنسيان إساءة الآخرين وكأنها لم تقع وان يبقى دائما يتذكر إحسان الآخرين اليه بل دعا الى مقابلة السيئة بالحسنة ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤)، كما امر بان يكون على عكس ذلك في العلاقة مع نفسه، وذلك بان يتذكر دائماً أساءته للآخرين حتى يكون رادعا عن تكرارها، وان ينسى إحسانه للآخرين حتى لا يحصل عنده شعور بالعجب والمنّ و التفضّل عليهم فيمنعه ذلك من الاستمرار في فعل المعروف، ففي الحديث الشريف ما مضمونه (انسى اثنين: إحسانك إلى الغير وإساءة الغير اليك، واذكر اثنين: أساءتك إلى الغير وإحسان الغير اليك)[2].

---

(١) اذكر حديثا واحدا عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (فوالذي وسع سمعه الأصوات، ما من احد أودع قلبا سرورا ألا وخلق الله له من ذلك السرور لطفا، فاذا نزلت به نائبة جرى اليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه ، كما تطرد غريبة الابل) (نهج البلاغة/ الحكمة ٢٥٧).

(٢) للوقوف على مضامين هذه الأحاديث أنظر: ميزان الحكمة- الريشهري: ٦٤١/١.

الحمل على الحسن:

وطلب الشارع المقدس أن تختار الأحسن والأفضل للآخرين عندما تكون بين خيارين أو بين موقفين أو سلوكين فأمر بان تحمل فعل أو قول أخيك على سبعين محملاً حسنا، وان كان ظاهره السوء، لكنه مادام يحتمل أن يكون حسناً فلا تقصّر في الأخذ بهذا الاحتمال، حتى وان تجاوزت السبعين احتمالا، وهو رقم يقال للتعبير عن الكثرة فلا يمنع من الأزيد.

وان يكون هذا هو منهج حياتك بان تفتش عن أحسن ما عند الآخرين فتنظر اليه على أساسه، وان تفتش عن أسوء ما في نفسك فتُقيّمها على أساسه لتكون بين هذا وذلك أنسانا صالحا يسعى نحو الكمال ويحب الخير للناس.

روي أن أخوة يوسف الصديق (عليه السلام) لما تعارفوا معه واعترفوا بجريمتهم تملكهم الحياء مما صنعوا به لكنه خففّ عليهم واعتبرهم أصحاب فضل عليه لانهم عرفّوه الى أهل مصر انه ابن الأنبياء الكرام وكان يُنظر اليه على انه عبد كنعاني أُشتريَ من سوق النخّاسين، فهل يوجد سمو في التعاطي مع الأمور مثل هذا؟

فيما روي من مواعظ النبي الكريم عيسى (عليه السلام) انه مرَّ هو وأصحابه على جيفة كلب ميت فقال بعضهم ما انتن ريحه وقال الآخر ما اقبح منظره وهكذا، لكن النبي الكريم المتأدب بخلق الله تعالى قال (ما اشَّد بياض أسنانه)[1].

بركة الانسجام مع الكون:

إن الإنسان حينما يسير وفق هذه الرؤية ويتبع هذا المنهج من التفكير

(١) حلية الأولياء لابي نعيم الأصبهاني بحار الأنوار- المجلسي: ٣٢٧/١٤.

يحصل على ثمرات عديدة، منها القرب إلى الله تعالى، وراحة البال، والسعادة[1] وحسن الذكر عند الناس مضافا الى شيء مهم يحسُن الالتفات اليه وهو انه ستتجاوب معه كل عناصر الخير في الكون لأنه محكوم بسنن الهية ثابتة فمن اخذ بها نال كل خيراتها وبركاتها، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف:٩٦).

وبذلك يكون قوله تعالى ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم:٧) على القاعدة الطبيعية- كما يقال - وليس بالجعل التشريعي لزيادة النعم مقابل الشكر، وإنما هي حالة تكوينية طبيعية فان الإنسان الشاكر يكون جزءا منسجماً مع الكون فيحظى ببركات القوانين الإلهية التي تنظم حركة الكون .

وهذا ما يعترف به غير الموحدين أيضا فانهم يقولون إن الإنسان يجب أن يكون ممتنا شاكرا للكون - بحسب تعبيرهم لانهم لا يعتقدون بوجود الله سبحانه - على نعمه لكي يحصل الإنسان على المزيد من النعم وغيرها مما تستحق أن يسعى اليها الإنسان.

أهمية التفكير الإيجابي في التنمية البشرية:

هذا المنهج والسلوك الذي أسس له الشارع المقدّس اصبح اليوم من اهم قضايا علم الاجتماع والتنمية البشرية التي يهتم بها العالم المتحضر فتؤلف الكتب وتعقد الندوات وتقدّم البرامج التلفزيونية التي تتحدث عن ((أهمية التفكير

(١) واذكر حديثاً واحداً في ذلك باختصار وهو قول أمير المؤمنين (عليه السلام) (السرور يُبسُط النفس ويثير النشاط، الغمّ يقبِضُ النفس ويطوي الانبساط) (غرر الحكم:٢٢٠٣و٢٠٢٤).

الإيجابي)) وتوصلوا فيها إلى جملة من النتائج التي بيّنها الشارع المقدس.

ونُقل لي أنّ من الكتب الواسعة الانتشار في هذا المجال كتاب (السر) ومما جاء فيه ((إن للأفكار قوة مغناطيسية ولها تردد وعندها قدرة على الأرسال والاستقبال مثل الموجات الكهرومغناطيسية ويتم أرسال الأفكار هذه إلى الكون فتنجذب لها مغناطيسياً كل الأشياء التي تشبهها ثم ترجع ثانياً إلى المصدر الذي هو نفس الشخص، وان الإنسان اذا كان إيجابيا فانه يجذب كل خير اليه)).

وبَشِّرِ الصَّابِرِينَ:

إن الشارع المقدس علَّم الإنسان أن يكون تفكيره إيجابيا في كل حالاته حتى عندما يشتد عليه البلاء من خلال إعطائه ثقافة إيجابية توجه سلوكه فانه وعده بالأجر العظيم اذا صبر واحتسب وأن هذا البلاء كفارة لذنوبه التي اجترحها وبذلك يكون فرصة للإنسان حتى يراجع نفسه ويحاسبها ويصلح أخطاءه، ووعده بالفرج وزوال البلاء مع ثبات الأجر، ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾ (البقرة:١٥٥-١٥٦)، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق:٢-٣) وبذلك يكون الإنسان سعيداً وهو في اشدَّ حالات البلاء كالذي مرّ به الأنبياء والأئمة صلوات الله عليهم أجمعين.

أمثلة من التفكير الإيجابي:

خذ مثلاً ما جرى في واقعة كربلاء التي مثّلت اشرس جريمة عبر التاريخ لكن أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) كانوا فرحين سعداء لانهم نظروا إلى صورتها الأخرى المتمثلة فيما اعدَّ لهم من الكرامة والمقام المحمود عنده تبارك وتعالى

والبركات العظيمة التي تثمرها إلى نهاية الدنيا.

وحينما حاول ابن زياد أن يظهر حقده وسمومه على عقائل النبوة وخاطب العقيلة زينب شامتاً (أرايت صنع الله بأخيك والعتاة المردة من أهل بيتك) قالت (عليها السلام) (ما رأيت إلا جميلاً أولئك قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم فانظر لمن الفلج يومئذ ثكلتك أمك يأبن مرجانة)[1] فوصفت ما حصل بانه جميل.

والإمام الكاظم (عليه السلام) في قعر السجون المظلمة والتعذيب وقيود الحديد لكنه كان يرى الجانب الآخر من الصورة ويقول في مناجاته (اللهم إنك تعلم أني كنت أسألك أن تفرغني لعبادتك، اللهم وقد فعلت فلك الحمد)[2].

وهكذا النبي الكريم يوسف (عليه السلام) يقول ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (يوسف:٣٣) فالسجن مع عذابه ومشقته وضيقه يرى (عليه السلام) فيه الصورة الأخرى وهي نجاته من مكائد النسوة وفخوخ الشيطان لإيقاعه في معصية الله تعالى والأمثلة كثيرة.

نتيجة التفكير السلبي:

أما من يتعامل مع الأمور والأحداث بسلبية فانه يكون في شقاء وتعاسة ويكون عيشه منكدا ونحو الأسوأ من دون ان يغيِّر في الواقع شيئاً لان الأحداث جارية شاء أم أبى عن أمير المؤمنين عليه (عليه السلام) قال (إنك إن صبرت جرت عليك

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ١١٦/٤٥.

(٢) الإرشاد- الشيخ المفيد: ٢٤٠/٢.

المقادير وأنت ماجور، وان جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور)[1].

حكي إن مكتشف الكهرباء اجرى ٢٠٠٠ تجربة على نماذج المصباح الكهربائي قبل أن يصل إلى مراده فسخروا منه وانك أتعبت نفسك وخسرت الكثير في أجراء هذه التجارب الفاشلة فقال :ليس الأمر كذلك فقد استفدت معلومة وهي أن هذه الألفي طريقة للعمل غير منتجة.

مثال عن التفكير السلبي:

تقول احدى النساء أنها كانت أمّاً لطفلين ثم حصلت مشاكل مع زوجها وانفصلت عنه وكانت تشعر بضيق وحزن ومتعبة نفسيا وغاضبة على زوجها لأنه تركها وترك مسؤولية إعالة الأطفال على عاتقها حيث كانت مسؤولة عن دفع إيجار المنزل وفواتير الكهرباء والماء وغيرها وكانت الديون تتراكم عليها فبسبب كل تلك الضغوط كانت تشعر بالحقد والكره الشديد تجاه زوجها وبسبب الضغوط النفسية اصبح ذلك يؤثر على عملها فكانت ترتكب أخطاء في العمل وتتأخر في إنجاز ما هو مطلوب منها في العمل لأنها محطمة ولا تستطيع العمل بكفاءة عالية لإنجاز الأعمال المطلوب منها في وظيفتها ولكنها عندما قرات كتاب السر بدأت تغير طريقة تفكيرها وبدأت تنظر إلى الجوانب الإيجابية الموجودة في حياتها حيث قالت إن الجانب الإيجابي الذي استفدته من زواجي هو الحصول على طفلين جميلين وانها سعيدة بهم وبوجودهم بحياتها ولا تتحمل فكره فقدانهم أو عدم وجودهم بحياتها فعندما بدأت تركز على الأمور الإيجابية والنعم الموجودة عندها في حياتها أصبحت اكثر راحة وأصبحت ممتنة لله وشاكرة لله

(١) ميزان الحكمة: ٥/ ٢٦.

على النعم الذي انعمها عليها وأصبحت مشاعرها إيجابية وبالتالي تركيزها وكفاءتها في عملها اصبح افضل وإنتاجها في العمل اصبح اكثر وبالتالي بداء راتبها يزداد وبدأت تستطيع تسديد الفواتير.

لكي تفكر بإيجابية:

ولكي يكون الإنسان معطاءاً محّبا للخير صبوراً عند الشدائد متفائلا عليه ان يصلح عقائده وتصوراته ونظرته للحياة أولا لأنها هي التي توجّه سلوكه، لذا ينبغي ان يلتفت إلى أمور:

١- إن كل ما حوله هو خلق الله وان الناس عيال الله تعالى، عن النَّبيّ(صلى الله عليه وآله) قال: (الخلقُ كُلُّهم عِيالُ الله عزَّ وجلَّ، فأَحَبُّ خلقِه إليه أنفعُهم لعِيالِه)[1] وفي دعاء الإمام السجاد(عليه السلام) برواية أبي حمزة الثمالي (والخلق كلهم عيالك)[2] فلابد أن يكون كريماً معهم رحيماً بهم محبّا لهم مهما كانوا.

٢- إن ما يجري هو بقضاء الله وقدره ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة:٥١) وما دام الله مولانا وهو الذي يتولى أمورنا فلا يختار لنا إلا خيرا ولكننا قد لا نفهم ذلك ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ (البقرة:٢١٦) فلابد من التسليم له والرضا به لان الاعتراض والسخط له عواقب وخيمة في الدنيا و

---

(١) أخرجه البزار (٢/ ٣٩٨/ ح١٩٤٩ -كشف الأستار - والبيهقي في شعب الايمان (٦/٦/٤٢-٤٣/ ح٧٤٤٦-٧٤٤٧).

(٢) مفاتيح الجنان: ٢٤٨.

الآخرة.

٣- إن الله تعالى يقول (انا عند ظن عبدي بي ان ظن خيرا فله، وان ظن شراً فله)[1] فمن يكون ظنه حسناً ويبحث عن الأمور الحسنة في الحياة فانه سيتحقق له ذلك بأذن الله تعالى.

٤- إن الدنيا زائلة ولا يستحق أي شيء فيها أن يكون محط الاهتمام إلا ما يقرّب إلى الله تعالى وينفع في الآخرة.

٥- إن من ينظر إلى الجوانب الإيجابية الحسنة للأمور وان لم تكن كذلك حقيقة يكون سعيدا مرتاح البال وكفى بذلك ثمرة طيبة فالسعادة ليست في تحقيق كل ما تتمنى وتريد بل في كونك في طريق الوصول اليها وفي أجواء العمل من اجل تحقيقها.

٦- أما من ينظر إلى الأمور بسلبية فانه يكون في تعاسة وشقاء من دون أن يتغير حاله إلى الأفضل بل إلى الأسوأ.

(١) الترغيب والترهيب- الكافي- الشيخ الكليني: ٧٢/٢/ ح٣.

القبس/١٧٢

سورة يس:﴿٨٢﴾

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

مظهر من مظاهر قدرة الله تبارك وتعالى، وتمام سلطنته على كل مخلوقاته تكشف عنه الآية الكريمة، من خلال بيان حقيقة شأنه تبارك وتعالى في خلق الأشياء، بأنه اذا تعلقت مشيئة الله تعالى بإيجاد شيء وأراد إحداثه فإنه يحصل مباشرة بمجرد إرادته بدون فاصلةٍ؛ ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، ولا يحتاج إلى أزيد من تعلق إرادته عز وجل بالشيء حتى يتحقق، فلا يوجد أي تأمل أو تروّي أو دراسة لديه سبحانه، ولا يوجد ما يمنعه كما لا يمتنع شيء عن التحقق والحصول اذا أراده الله تبارك وتعالى، وإن جميع الموجودات مطيعة له وممتثلة لإرادته ﴿فَيَكُونُ﴾، ولا يحتاج الى شريك يساعده ولا إلى وقت لإيجاده كما يحصل للمخلوقين إذا أرادوا شيئاً، ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (القمر:٥٠).

هذا بناءً على تفسير الأمر هنا بمعنى الشأن، ولا مانع من تفسيره بالطلب مقابل النهي، فإن طلبه سبحانه عين إرادته، فاذا أراد شيئاً فقد طلبه، وسيتحقق بمجرد تعلق الإرادة به، لعدم وجود ما يمنع أو يؤخّر ذلك، ولا يحتاج حتى إلى قوله كلمة ﴿كُنْ﴾، لأن إنشاء أي لفظ يحتاج في وجوده إلى لفظ ﴿كُنْ﴾ آخر ليوجد، وهذا تسلسل باطل، مضافاً إلى أن إنشاء خطاب يعني وجود المخاطب وهذا خلاف الفرض بأنه يراد إيجاده.

فالقول هنا إذن ليس التعبير اللفظي لأن الله سبحانه منزّه عن مجانسة مخلوقاته، وإنما المراد فحواه ومضمونه بتوجه الأمر والطلب نحو الشيء وتعلق الإرادة به ليقع ويحصل، قال الإمام السجاد (عليه السلام) في دعائه: (ومضت على إرادتك الأشياء، فهي بمشيئتك دون قولك مؤتمرة، وبإرادتك دون نهيك منزجرة)[1]، أي ان الأشياء تمضي على وفق إرادة الله تعالى حتى من دون الحاجة الى امر ونهي لتحريكها نحو الفعل وعدمه.

وهكذا تفهم سائر الآيات الكريمة التي ظاهرها القول اللفظي حيث ورد التعبير عن هذه الحقيقة بصيغ مختلفة في آيات متعددة كقوله تعالى ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (النحل:٤٠)، وقوله تعالى ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (البقرة:١١٧)، وقوله تعالى ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران:٤٧)، وقوله تعالى ﴿سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (مريم:٣٥) وقوله تعالى ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (غافر:٦٨)، فإن قضاء الله تعالى لأمرٍ وحكمه به يعني تعلق إرادته سبحانه بإيجاده، ومن تطبيقاته ما ورد في خلق آدم (صلوات الله عليه) أبي البشر في قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران:٥٩).

قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (يقول لمن أراد كونه ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ لا بصوت يُقرع ولا نداء يُسمع وإنما كلامه سبحانه فعل منه وإنشاء ومثله لم يكن من

---

(١) الصحيفة السجادية :٤٥ الدعاء السابع الذي اوله (يا مَن تُحَلُّ به عُقَدُ المَكارِه).

قبل ذلك كائناً)[1] وعن الإمام الرضا (عليه السلام) قال (الإرادة من الخلق الضمير وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل وأما من الله سبحانه وتعالى فإرادته إحداثه لا غير ذلك لأنه لا يروي ولا يهم ولا يتفكر، وهذه الصفات منفية عنه وهي صفات الخلق، فإرادة الله، الفعل، لا غير ذلك يقول له: كن فيكون بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكر ولا كيف لذلك، كما أنه لا كيف له)[2].

والشيء هنا مطلق فيشمل كينونة كل الموجودات، ولا يستثنى فرد من أفرادها أو حالة من حالاتها، فكلها تتحقق بمجرد تعلّق الإرادة ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ بلا فاصل، ولا يحتاج الى زمان، إلا إذا شاء الله تعالى غير ذلك كما في خلق السماوات والأرض ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ (ق:٣٨).

أو أن طبيعة الأسباب تقتضيه فيكون الفاصل الزمني بلحاظ المخلوق كرزق المال والولد الذي يحتاج في نفسه الى مدة ليتحقق، وإلا فهو بلحاظ الخالق قد تمّ ونجز.

وهذه الحقيقة التي تضمّنتها الآية تهيمن على الموجودات كافة، روى الشيخ الصدوق بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (لما صعد موسى (عليه السلام) إلى الطور فناجى ربَّه عز وجل، قال: ربِّ أرني خزائنك، فقال: يا موسى، إنما خزائني إذا أردت شيئاً أن أقول له: كن فيكون)[3].

---

(١) نهج البلاغة: ج١، ص٣٥٠، الخطبة: ١٨٦.

(٢) أصول الكافي: ١/ ١١٠.

(٣) التوحيد، للشيخ الصدوق: ١٣٣، ح١٧، تفسير البرهان: ٨/ ١٢٠، ح١١.

وجاءت الآية في سياق الرد على من أنكر المعاد واستغرب بعث الموتى بعد أن تبلى أجسادهم وقال باستحالته، وهي شبهة قديمة حديثة تمسّ أصلاً من أصول الدين، فلا بد من إجابتها بوضوح لإزالة أي شك ودفع أي إشكال، مثل قولهم الذي حكته الآيات السابقة على الآية محل البحث ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يس:٧٨) وهو وهم ناشئ من ملاحظة قدرة المخلوق العاجز القاصر، فتجيبه الآية بسهولة ذلك على الخالق العظيم، وأنَّ وجود الأشياء لا يحتاج إلى أزيد من تعلق إرادته تعالى بذلك، فهو ذو القدرة المطلقة ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ (فاطر:٤٤) لذا جاءت الآية التالية لتنزيهه من كل عجز وقصور وضعف ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس:٨٣).

إن الله تعالى يهب هذه الكرامة لبعض عباده بدرجات متفاوتة بحسب صدقهم في عبوديتهم لله تعالى وإخلاصهم في طاعته، كما ورد في وصف أهل الجنة ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ (يس:٥٧) أي أنهم بمجرد تعلق إرادتهم بشيء واشتهائهم له يجدونه حاضراً عندهم. وقال تعالى في وصي النبي سليمان (عليه السلام) ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ (النمل:٤٠) فإنه بمجرد إرادته حضور عرش بلقيس وجده حاضراً عنده.

وورد في الحديث القدسي قول الله عز وجل: (ما تقرَّب إليَّ عبدٌ بشيء أحبُّ إليَّ مما افترضت عليه، وإنه ليتقرَّب إليَّ بالنافلة حتى أحبّه، فإذا أحببته

كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته..)[1].

وكان رسول الله (ﷺ) أجدر الخلق بأن يتحلى بهذه المنحة الإلهية لأنه (ﷺ) كان يسارع إلى فعل كل ما يريده الله تبارك وتعالى وإن لم يصدر به أمر وجوبي أو استحبابي، ويجتنب كل ما يكرهه الله تعالى وإن لم يَرد فيه نهي على نحو التحريم أو الكراهة.

ونذكر أمثلة مما جرت إرادة الله تعالى به على وفق ما يريده رسول الله (ﷺ) ويرضاه:

(منها) التوجه بالصلاة إلى الكعبة، بعد أن كان المسلمون يُصلّونَ إلى بيت المقدس فنزل قوله تعالى ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (البقرة:١٤٤).

(ومنها) أنه (ﷺ) كان يرجو أن يكون للمسلمين يومٌ يعظّمونَه كما أن لليهود يومَ السبت وللنصارى يومَ الأحد فأعطاه الله تعالى يومَ الجمعة سيد الأيام وأعظمها بركة.

(ومنها) ما روي أن امرأة من الأنصار وهبت نفسها للنبي (ﷺ) بلا مهر، فاغتاظت اثنتان من أزواجه وأهانتا المرأة، فزجرهما رسول الله (ﷺ) وشكر المرأة وأثنى على نصرة قومها الأنصار، وأجَّلَ قراره حتى يأتيه أمر الله تعالى، فنزل

(١) الكافي: ٢/ ٣٥٢، ح٧، من باب (من آذى المسلمين واحتقرهم).

قوله تعالى ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأحزاب:٥٠) (فقالت عائشة: ما أرى الله إلاّ يسارع في هواك؟ - أي أنه تعالى يجري الأمور على وفق إرادتك فيريد ما تريد - فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وإنّكِ إن أطعت الله يسارع في هواك)[1] فبيَّن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) السر في الوصول إلى هذا المقام المحمود بأنها لو كانت مخلصة في طاعة الله تعالى لأعطاها الله ما تريد[2].

معنى ان الله تعالى يرضى لرضى فاطمة (عليها السلام):

وأعطيت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) هذه الكرامة الإلهية حينما قال فيها أبوها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بحسب ما رواه الفريقان: (إن الله ليغضب لغضب

---

(١) مجمع البيان: ٩٣/٨ والملفت ان السيوطي رواها في الدر المنثور في عدة مواضع (٦٢٩/٦، ٦٣٤) من عدة مصادر كالبخاري واحمد ومسلم وابن جرير والحاكم وابن سعد وغيرهم ولم يذكر ذيل الحديث.

(٢) روى ابن حجر العسقلاني الشافعي المتوفي سنة ٨٥٢ ما هذا نصه: بسنده عن أنس قال مرض أبو طالب فعاده النبي (صلى الله عليه وآله)، فقال يا ابن أخي، أدعُ ربك الذي بعثك يعافيني فقال (صلى الله عليه وآله): اللهم اشف عمي: فقام أبو طالب كأنما نشط من عقال، فقال يا بن أخي إن ربك ليطيعك. قال: وأنت يا عماه لئن أطعت الله ليطيعنك). الإصابة: ٧/ ١١٣، والخصائص، لجلال الدين السيوطي الشافعي: ١/ ١٢٤، باب (دعائه (صلى الله عليه وآله) لأبي طالب بالشفاء).

أقول: لو صحّت الرواية فإنها منسجمة مع التقية التي كان يعمل بها مؤمن قريش وسيدها أبو طالب، وهي تتضمن إشارة إلى إيمان أبي طالب بأن الرب بعث محمداً (صلى الله عليه وآله) وأنه له شفاعة عنده.

فاطمة ويرضى لرضاها)[1]، لا مجاملة ولا محاباة لقربها من أبيها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإنما عن استحقاق وجدارة وفق ما ذكره النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في الرواية الآنفة فهي المطهرة المعصومة الصدّيقة المخلَصة ،وقد عرفنا الآن وجه قول أبيها فيها لأنها كانت تسارع إلى فعل ما يريده الله تعالى ورسوله قبل أمره وتجتنب ما يسخط الله قبل نهيه، وجعلت رضاها رهن رضاه تبارك وتعالى، وغضبها رهن غضبه عز وجلَّ ، فأجرى الله تعالى الأمور على وفق إرادتها.

وأذكر لكم مثالاً على مسارعة الصديقة الطاهرة الزهراء (عليها السلام) لرضا الله تعالى ورضا رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد روي في الكافي وأمالي الصدوق ومكارم الأخلاق عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا أراد السفر سلّم على مَن أراد التسليم عليه من أهله ثم يكون آخر من يسلم عليه فاطمة عليها السلام فيكون وجهه إلى سفره من بيتها، وإذا رجع بدأ بها. فسافر مرة وقد أصاب علي (عليه السلام) شيئاً من الغنيمة فدفعه إلى فاطمة فخرج فأخذت سوارين من فضة وعلّقت على بابها ستراً، فلما قدم رسول الله (صلى الله عليه وآله) دخل المسجد فتوجّه نحو بيت فاطمة كما كان يصنع، فقامت فَرِحةً إلى أبيها صبابة وشوقاً إليه، فنظر فإذا في

---

(١) الأمالي للصدوق: ٤٦٨/١، بحار الأنوار: ج٤٣/ ص١٩، وهو مجمع عليه عند الشيعة، ورواه جمع كبير من علماء العامة كما في مستدرك الصحيحين للحاكم النيسابوري ج ٣ ص ١٥٣ - ١٥٤، مجمع الزوائد للهيثمي: ج٩/ ص٢٠٣: رواه الطبراني وإسناده حسن، ميزان الاعتدال للذهبي: ج٢/ ص٧٢، ابن الأثير أيضا فى أسد الغابة: ج٥/ ص٥٢٢.

وابن حجر أيضا فى إصابته: ج٨/ ص١٥٩، تهذيب التهذيب: ج١٢/ ص٤٤١، ذخائر العقبى: ص٣٩، خرجه أبو سعيد فى شرف النبوة وابن المثنى فى معجمه.

يدها سواران من فضة وإذا على بابها ستر، فقعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) حيث ينظر إليها، فبكت فاطمة وحزنت وقالت: ما صنع هذا بي قبلها، فدعت ابنيها فنزعت الستر من بابها وخلعت السوارين من يديها، ثم دفعت السوارين إلى أحدهما والستر إلى الآخر ثم قالت لهما: انطلقا إلى أبي فأقرئاه السلام، وقولا له: تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول: اجعل هذا في سبيل الله، فلما أتاه قال: فعلت فداها أبوها ثلاث مرات ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى فيها كافراً شربة ماء ثم قام فدخل عليها)[1].

وحينما نزل قوله تعالى في أزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب:٦) سبق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى تسمية فاطمة بأنها (أم أبيها) لقطع الطريق أمام من تشمخ بأنفها من أزواج النبي وتفتخر عليها[2]، وأين الأول الذي هو مجرّد كناية عن حرمة زواج المؤمنين منهن من هذا الوسام الشريف الذي قلّده النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ابنته.

هذه هي فاطمة سلام الله عليها، وكيف لا تكون كذلك وهي من أهل البيت (عليهم السلام) الذين قال الله تبارك وتعالى فيهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب:٣٣) لأنهم ﴿صَدَقُوا مَا

(١) بحار الأنوار: ٤٣/ ٨٣-٨٤. وأمالي الصدوق: ١/ ٣٠٥، وفي البحار أنه عن الكافي والمكارم. وفي بعضها (ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): رحم الله فاطمة ليكسونها الله بهذا الستر من كسوة الجنة، وليحلينها بهذين السوارين من حلية الجنة).

(٢) هذا واحد من عدة وجوه شرحنا فيها معنى كون فاطمة (عليها السلام) (أم أبيها)، راجعها في موسوعة خطاب المرحلة: ٧/ ٥٦.

عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب:٢٣) من الميثاق حين قال لهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ (الأعراف:١٧٢) فاستخلصهم الله تبارك وتعالى لنفسه وطهرهمّ من كل منافٍ لصدق العبودية ومحض الإخلاص، وأجرى إرادته على طبق إرادتهم، قال الإمام الحسين (عليه السلام) في خطبته في مكة لما عزم على الخروج إلى العراق (رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين)[1].

فهم (عليهم السلام) ممن وصفهم الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء:٢٧) فهم (صلوات الله عليهم) إن أرادوا شيئاً فإنه يتحقق بأمر الله تعالى الذي شرحته الآية الكريمة بأنه ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، فلأن إرادتهم تبع لإرادة الله تعالى كانت إرادة الله مستجيبة لإرادتهم، ومما ورد من السلام على أهل بيت النبوة في الزيارة الجامعة الكبيرة (وَعِبادِهِ الْمُكْرَمينَ الَّذينَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ.. وأَشْهَدُ أَنَّكُمُ الأَئِمَّةُ الرّاشِدُونَ.. الْمُطيعُونَ للهِ، الْقَوّامُونَ بِأَمْرِهِ، الْعامِلُونَ بِإِرادَتِهِ).

ولو أرادت السيدة الزهراء (عليها السلام) أن يهلك الله ظالميها لأعطاها الله تعالى ما تريد لكنها صبرت رحمة بالأمة وشفقة عليها وحرصاً على دوام نداء (أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله).

وكان خصوم فاطمة (عليها السلام) يعلمون جيداً أنها إن لم ترضَ عنهم فإنهم في أسوأ عاقبة، لذلك حرص الأول والثاني على استرضائها، وطلبا الإذن بزيارتها فلم تأذن لهما فاستشفعا بأمير المؤمنين (عليه السلام) لتحصيل الإذن فعرض الإمام (عليه السلام) عليها

(١) بحار الأنوار: ٣٦٧/٤٤ عن كتاب الملهوف: ص٥٢-٥٣.

ذلك فتركت القرار له (عليها السلام) قالت المصادر ((ودخلا وقرآها السلام فلم تُجب، وتقدّما فقعدا أمامها، فولّت وجهها عنهما إلى الحائط؛ قالت تخاطبه وهي تشرك عمر بن الخطاب: أرأيتكما إن حدّثتكما عن رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) حديثاً تعرفانه وتعملان به؟ أجابها وصاحبه: نعم. قالت: نشدتكما اللّه ألم تسمعا رسول اللّه (صلى الله عليه وآله) يقول: «رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحبّ فاطمة ابنتي فقد أحبّني ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني»؟ قالا: قد سمعناه من رسول اللّه. فرفعت وجهها وكفّيها إلى السماء وقالت: فإني أشهد اللّه وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت رسول اللّه (صلى الله عليه وآله) لأشكونّكما إليه)[1].

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ٢٠/١، الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزهراء (عليها السلام): ١٤/ ٢١٢.

القبس/١٧٣

سورة الصافات:﴿٢٤﴾

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾

موضوع القبس: المسؤوليات الثابتة والمتحركة

لكي نؤدي مسؤوليتنا:

قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ (الصافات:﴿٢٤﴾).

قال امير المؤمنين (عليه السلام) (اتقوا الله في عباده وبلاده فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم)[1].

فمسؤولية الإنسان إذن لا تنتهي بالموت، بل لا بد من وقوفه في يومٍ للسؤال عن كل ما صدر منه صغيراً كان أو كبيراً ﴿فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ (طه:﴿٥٢﴾) وسيقف الإنسان يومئذٍ مبهوتاً متعجباً مستسلماً ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (الكهف:﴿٤٩﴾).

(١) نهج البلاغة: ج٢/ ص٨٠/ رقم الخطبة ١٦٧ من خطبه (عليه السلام) في اول خلافته.

ولو أنا إذا مِتنا تُركنا لكان الموتُ غايةَ كل حيٍّ[1]

ولكنّا إذا متنا بُعثنا ونسألُ بعدها عن كلّ شيٍّ

فعلى الإنسان أن يستعد ليوم السؤال وأن يحضّر أجوبته عن كل أفعاله ومعتقداته لكي لا يُفاجأ بصحائف أعماله ويجد فيها ما جنت يداه ولا يستطيع التدارك فلا ينفعه الندم ﴿وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ (ص:٣) وأن يعي مسؤولياته أي ما سيُسألُ عنه - لأن المسؤولية اسم شيء مشتق مما يُسألُ عنه- لكي يؤديها بالشكل الصحيح.

أصناف المسؤوليات:

والمسؤوليات على صنفين: ثابتة ومتغيرة، ولا نعني بالمتغيرة:أن حكمها يتغير لأن (حلال محمد حلال إلى يوم القيامة، وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة)[2] وإنما نعني حصول التغيّر في الموضوع والعناوين فيتغير الحكم تبعاً لها، فالخمر حرام لكن إذا عولجت وانقلبت خلاً صارت حلالاً لتغير الموضوع، والميتة حرام ولكن لمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ تكون حلالاً لطروّ عنوان ثانوي عليها وهو الاضطرار، فالتغير ليس في أصل الأحكام وإنما في تطبيقاتها.

والتكاليف الثابتة معلومة على مستوى العقائد كالإيمان بوجود الله تبارك وتعالى ووحدانيته وصفاته الحسنى والأنبياء والرسل والأئمة سلام الله عليهم، وعلى مستوى الأحكام كوجوب الصلاة والصوم والخمس وحرمة شرب الخمر

---

(١) تُنسب هذه الأبيات الى أمير المؤمنين (عليه السلام) أنظر ديوان الإمام علي- محمد الخفاجي: ١٥٦- ونسبت الى غيره، أنظر: تاريخ بغداد- الخطيب البغدادي: ٤٠٧/١٤.

(٢) الكافي- الشيخ الكليني: ٥٨/١/ ح١٩.

والزنا والغيبة وغيرها أو على مستوى الأخلاق كمحبوبية الصدق والكرم والحلم ومبغوضية الحسد والأنانية والتهور وغيرها.

أما المتغيرة فيمكن أن تتأثر بعناصر عديدة:

التأثر بالموقع:

منها: الموقع، فإن الإنسان العادي مسؤول عن نفسه وأهله وما يرتبط به، وحينما يكون وزيراً مثلاً فإنه مسؤول عن مؤسسات كاملة وإدارة كل الشؤون المرتبطة بوزارته ورعاية مصالح جميع الناس بما يرتبط بوظيفته، وحينما يكون إماماً في مسجد فإنه يكون مسؤولاً عن أبناء تلك المنطقة فيتفقدهم ويصلهم ويقضي حوائجهم ويساعدهم ويهديهم ويصلح شأنهم، فإذا أصبح قائداً أو مرجعاً دينياً شملت مسؤوليته الملايين من الناس في شرق الأرض وغربها، ولذا نجد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) يقول وهو بالكوفة (ولعلَّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع)[1]، ويروي التأريخ أن المعتصم العباسي وصلته استغاثة امرأة في عمورية من بلاد الروم نادت: وامعتصماه، فقاد جيشاً كبيراً وخرج بنفسه لتأديب الروم وإغاثة المرأة[2].

وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) (من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم ومن سمع رجلاً ينادي: يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم)[3].

---

(١) نهج البلاغة: ٧٠/ كتاب رقم ٤٥.

(٢) الكامل في التاريخ- ابن الأثير: ٤٨٠/٦.

(٣) وسائل الشيعة: كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب فعل المعروف، باب١٨، ح٣.

وكم من فقير وجائع ومكروب ومهجّر ومريض ومسجون بغير حقٍّ ينادي اليوم: يا للمسلمين، يا للحكومات، يا لعلماء الدين، يا للمرجعيات.

فليعلم كل واحدٍ مسؤوليته وإذا عجز عن حل المشكلة وقضاء الحاجة فلا أقل من التفاعل مع القضايا ونصرة أصحابها بالكلمة والموقف، عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (إن المؤمن لترد عليه الحاجة لأخيه فلا تكون عنده فيهتمّ بها قلبُه فيدخله الله تبارك وتعالى بهمِّه الجنة)[1]، أما الذين في موقع يسعهم قضاء حوائج الناس ويقدرون عليها فلا يهتمون ويقصرون في إنجازها فقد خرجوا من ولاية الله تبارك وتعالى، ففي الحديث عن موسى بن جعفر (عليه السلام) (من قصد إليه رجل من إخوانه مستجيراً به في بعض أحواله فلم يُجره بعد أن يقدر عليه فقد قطع ولاية الله عز وجل)[2]، وعن الإمام الصادق(عليه السلام) قال: (لم يَدَعْ رجلٌ معونةَ أخيه المسلم حتى يسعى فيها ويواسيه إلا ابتلي بمعونة من يأثم ولا يؤجر)[3].

تأثر المسؤولية بالظروف المحيطة:

ومنها: الظروف المحيطة به، فنحن في العراق نعيش حالة احتلال وصراع سياسي وفقر وحرمان وقتل وتهجير واختطاف وفساد إداري وسرقة للمال العام واعتقال للأبرياء وغيرها من القضايا التي تحتم اتخاذ مواقف بإزائها لم نكن مكلفين بها قبل وجودها، ولا يعذر الإنسان حين يصمّ آذانه عن كل هذه القضايا من دون أن يقوم بواجبه تجاهها، كما لا تعذر الحكومة حين تصمُّ آذانها عن

---

(١) المصدر السابق، ح٤.

(٢) المصدر السابق، باب ٣٧، ح٤.

(٣) المصدر السابق: ح٥.

مطالبة عوائل الأبرياء المعتقلين للإفراج عنهم أو تصمّ آذانها عن سماع الشعب العراقي المحروم الذي يطالب بتوفير مفردات البطاقة التموينية وتحسينها فتَفعل الحكومة العكس وتعلن عزمها على تقليل المفردات إلى النصف.

تأثر المسؤولية بالبلد:

ومنها: البلد الذي يؤثر في نوع المسؤولية، فالشخص الذي يسكن العراق له تكاليف تختلف عن الذي يسكن في بلاد الغرب مثلاً فهذا تبرز عنده وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنه يعيش في وسط مجتمع مسلم فوظيفته تقويم الانحراف داخل المجتمع المسلم بهذه الوظيفة، أما المقيم في الغرب فتبرز عنده وظيفة الدعوة إلى الإسلام لأنه يحاور غير المسلمين.

ويؤثّر في حجم المسؤولية ومقدارها وجرّبتم لو أن مجموعة من الطلبة الجامعيين ينتمون إلى محافظات متعددة صدر منهم تصرف معين فإن الطالب النجفي يحاسب أكثر من غيره، ومعذّريته أقل.

تأثر المسؤولية بالعلم:

ومنها: العلم، فكلما ازداد الإنسان علماً ازدادت مسؤوليته بكلا شقّيها أي من حيث الثواب على الإحسان والعقاب على الإساءة لذا ورد في الحديث أن الجاهل يغفر له سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد[1].

---

(١) الكافي: ١/ ٤٧/ ح١.

تأثر المسؤولية بالمعرفة الإلهية:

ومنها: المعرفة بالله تبارك وتعالى، فكلما ازدادت معرفته ازدادت مسؤوليته، فقد تكون حالة مباحة وليست في دائرة المسؤولية ضمن مستوى معين ولكنها تكون ضمن دائرة المسؤولية في المستوى الآخر، لذا قيل (حسنات الأبرار سيئات المقرّبين)[1] فهي ليست سيئات بالمعنى المتعارف وإلا لما أصبحت حسنات بالنسبة للأبرار، فهي سيئات بالمعنى المناسب للمقربين.

مثلاً يستغفر البعض لأنه غفل فلبس الحذاء الأيسر قبل الأيمن على خلاف الاستحباب، وروي عن بعض العلماء أنه كان يبكي لما دنت منه الوفاة رغم أنه أنفق كل ما عنده لقضاء حوائج الناس لكنه يبكي لأنه كان يستطيع أن يستعمل جاهه لخدمة مزيد من الناس.

روى سيدنا الشهيد الصدر (قُدِّسَ سِرُّهُ) أنه صلى ركعتي استغفار ذات مرة لأنه التقى بشخص لم يره منذ مدة فقال له: مشتاقين. ولما عاد إلى نفسه خشي أن لا يكون صادقاً.

ومستويات الناس من هذه الناحية متباينة جداً ومتفاوتة بدرجات لا تنتهي لأن الكمال لا ينتهي، وقد ورد ما يدلّ على ذلك في حديث عن الإمام علي بن الحسين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أنه جاء إليه رجل فسأله (فقال له: ما الزهد؟ فقال: الزهد عشرة أجزاء فأعلى درجات الزهد أدنى درجات الورع، وأعلى درجات الورع أدنى درجات اليقين، وأعلى درجات اليقين أدنى درجات الرضا، وإن الزهد في آية من

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٢٠٥/٢٥، - ٣١٦/٧٠.

كتاب الله عز وجلّ ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[1].

الإيمان عشر درجات:

وقد ورد عن المعصومين (عليهم السلام) عدم جواز استعلاء صاحب الدرجة الأرقى على من هو دونه والاستخفاف به أو عدم مراعاة حاله، ففي كتاب الخصال للشيخ الصدوق (رضوان الله عليه) عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله لأحد أصحابه واسمه عبد العزيز: (يا عبد العزيز الإيمان عشر درجات بمنزلة السُلّم له عشر مراقي وترتقي منه مرقاة بعد مرقاة فلا يقولن صاحب الواحدة لصاحب الثانية لست على شيء، ولا يقولن صاحب الثانية لصاحب الثالثة لست على شيء ... حتى انتهى إلى العاشرة، قال:وكان سلمان في العاشرة، وأبو ذر في التاسعة، والمقداد في الثامنة، يا عبد العزيز لا تسقط من هو دونك فيسقطك من هو فوقك، إذا رأيت الذي هو دونك فقدرت أن ترفعه إلى درجتك رفعاً رفيقاً فافعل، ولا تحملنَّ عليه ما لا يطيقه فتكسره فإنه من كسر مؤمناً فعليه جبره)[2].

قصة للجد الشيخ اليعقوبي مع الميرزا النائيني:

وروى[3] السيد الصدر (قدس سره) أن جدي اليعقوبي كان يقيم مجالس العزاء الحسيني في دار الميرزا النائيني (قدس سره) المرجع الديني في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي فإذا أنهى المجلس قال الناس:أحسنت وأمثالها إلا النائيني فكان

(١) الخصال للشيخ الصدوق، باب العشرة، ص٤٣٧.

(٢) الخصال للشيخ الصدوق، أبواب العشرة، ص ٤٤٨.

(٣) قناديل العارفين: ص٩٢.

يقول: غفر الله لك، فسأله الشيخ اليعقوبي عن سرّ ذلك فقال له النائيني (قُدِّسَ سِرُّهُ): لأنك تأتي في كلامك بروايات لم تثبت صحتها فأطلب لك المغفرة لذلك، فالتزم الشيخ اليعقوبي (قُدِّسَ سِرُّهُ) في اليوم التالي بالتحقيق في سند الروايات وعدم ذكر إلا ما يصحّ منها فلم يؤثر في الجالسين ولم تتحرك عواطفهم ولم يتفاعلوا مع المصيبة فأذن له الشيخ النائيني (قُدِّسَ سِرُّهُ) بالعودة إلى طريقة التسامح في الروايات أي ما يسمى بقاعدة التسامح في أدلة السنن والمستحبات، وعلّق السيد الصدر (قُدِّسَ سِرُّهُ) بأن (حال) اليعقوبي أو درجته هي (من بكى أو أبكى أو تباكى كان له كذا من الأجر) وحال الشيخ النائيني (قُدِّسَ سِرُّهُ) ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٨) فتكليفهما مختلف.

تأثر المسؤولية بالانتماء:

ومنها: الانتماء، فالذي يوالي أمير المؤمنين (عليه السلام) وأهل البيت (عليهم السلام) عليه مسؤوليات أكثر من غيره من المسلمين والذي ينتمي إلى المرجعية الناطقة الحركية يشعر بالمسؤولية عن دينه ومجتمعه أكثر ممن ينتمي إلى المرجعيات التقليدية الساكنة لذا تجد الحيوية والاندفاع والسبق إلى تنفيذ المشاريع التي تعلي كلمة الله تبارك وتعالى وترفع راية الإسلام في أتباع المرجعية الأولى أكثر.

مسؤولية الإيمان بالإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف):

ولعل من أهم المسؤوليات التي يتحملها من ينتمي إلى مدرسة أهل البيت (سلام الله عليهم) هو الإيمان بالإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) والتفاعل مع قضيته واستشعار مراقبته ورعايته واطلاعه على أعمال العباد والعمل على تعجيل ظهوره الشريف

وإقامة دولته المباركة.

ما الذي نفهمه من دعاء الفرج؟

وأشير هنا إلى واحدة من تلك المسؤوليات وهي ما ورد في الدعاء الشريف (اللهمّ كُنْ لِوليِّكَ الحجةِ بن الحسن صَلواتُكَ عَليهِ وعلى آبائِهِ)[1] إلى أن يقول (حتى تُسكِنهُ أرضك طوعاً) أي طواعية وسلماً من دون قتال أو صعوبات أو معوقات. والدعاء عند أهل البيت ليس فقط كلمات تتلى للثواب وإنما هو وسيلة لإلقاء العلوم والمعارف إلى شيعتهم.

ويمكن أن نفهم هذه الفقرة بعدة أشكال:

١- الطلب من الله تبارك وتعالى أن يذلل للإمام (سلام الله عليه) السماوات والأرض والبحار فتكون في أوضاع مناسبة لحركته المباركة وأن توظف لخدمته وتكون عوامل مساعدة لعمله المبارك كما نصر الله تبارك وتعالى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في معركة بدر بألفٍ من الملائكة والنعاس والمطر والرعب في قلوب الكفّار، قال تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ۞ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ

(١) مفاتيح الجنان: ٢٩٠.

فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال:٩-١٢) وكيف أرسل الله تبارك وتعالى الرياح العاتية على الأحزاب فقلّعت خيامهم وهزمتهم حتى انسحبوا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ (الأحزاب:٩).

٢- أن يمكّن المؤمنين من الوصول إلى مواقع النفوذ والسلطة والحكم في البلاد التي ينطلق منها الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) لتأسيس دولته الكريمة وهؤلاء يهيئون تسليم الحكم للإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) بكل طاعة وولاء أما إذا كانت بأيدي المنافقين والكفار والمعادين فإن الإمام سيبذل كثيراً من الجهد والتضحيات لفتح هذه البلاد، وقد وردت روايات تسمي فيها بعض القيادات الصالحة التي تلتحق بالإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) مع قواتها سلماً وتسلّم له القيادة في العراق في حين تحاربه جيوش من بعض الدول المجاورة وبعض المنافقين في هذه البلاد.

٣- إن البشرية ستكون قريباً من الظهور مستعدة لاستقبال المصلح الموعود بسبب الأزمات الخانقة التي تعجز عن حلها سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو بيئية أو صحية أو عسكرية وغيرها فحينما تبلغهم دعوة الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) لإقامة الحق والعدل وسعادة البشرية وإنصاف المظلومين والمحرومين واجتثاث أصول الفساد فسينقادون إليه ويؤمنون به، ويساهم السيد المسيح (عليه السلام) بدور فاعل في إذعان الأمم المسيحية للإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، بحسب ما ورد في الروايات.

تكاليفنا تجاه أحداث الظهور:

فكلّ من هذه المحاور يوجب تكليفاً بإزائه، فالشكل الأول يدعو إلى ديمومة الدعاء للإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، والشكل الثاني يدعو شيعة الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) التواقين لظهوره الميمون أن يزيدوا من خبرتهم في الإدارة والحكم وينظموا صفوفهم ويعبئوا طاقاتهم للوصول إلى هذه المواقع وبذل الوسع في النجاح في أداء مهامهم حتى يتمكنوا في الأرض وينجحوا ثم يسلّموا مقاليد الأمور إلى بقية الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

والشكل الثالث يقضي بأن لا يقصّر المؤمنون في عرض الإسلام النقي الأصيل كما ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله) وآله الطاهرين (عليهم السلام) على شعوب العالم وأن يبينوا لهم محاسنه ويرغبوهم بالدخول فيه ويشوّقونهم إلى اليوم الذي تسود فيه مبادئ الإسلام -التي هي مبادئ الإنسانية- الأرضَ كلها مستفيدين من وسائل الإعلام والاتصالات التي بلغت حداً عظيماً، ويشرحون لهم الحال المزرية التي أوصلتهم إليها أنظمتهم التي وضعها البشر بجهله وغروره من أمراض فتاكة كالآيدز ومن قلق ورعب ومستقبل مجهول وتفكك اجتماعي وضياع وأزمات اقتصادية وتلوث بيئة وغيرها من المشاكل المستعصية.

لا تكونوا من المطففين:

إن كل العناصر السابقة كولاية أهل البيت (عليهم السلام) أو الكون في موقع مهم يمكن أن تكون سبباً لامتيازات يحصل عليها الإنسان في الدنيا والآخرة، ومقتضى العدالة والإنصاف أن يفي بالمسؤوليات التي تقابلها وإلا كان من المطففين الذين يأخذون أكثر مما يعطون فهدّدهم الله تبارك وتعالى بالويل ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ

الرَّحِيمِ. وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۞ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۞ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۞ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (المطففين:١-٦).

روي أن الإمام الحسين (عليه السلام) كان يذهب إلى مكة[1] ماشياً على قدميه وإن النجائب المعدّة للركوب تُقاد بين يديه تعظيماً لله تبارك وتعالى، ولكنه كان يتنكب عن الطريق العام فقيل له في ذلك، فقال (عليه السلام): (أخشى أن أأخذ من رسول الله أكثر مما أعطيه) فالحسين (عليه السلام) صاحب أعظم عطاء في البشرية يستقلّ ما يقدم إزاء ما يأخذ من امتيازات كالتقديس والحب والتبرك وغيرها.

لنحاسب أنفسنا على ما أدينا من مسؤوليات:

أيها الأحبة:

أمام هذه المديات الواسعة والتنوع الكبير والتباين الهائل في المسؤوليات والاستحقاقات والامتيازات ينبغي للإنسان أن يراجع نفسه ويقيّم أعماله ويجري محاسبة يومية انطلاقاً من الأحاديث الشريفة كقول الإمام الكاظم (عليه السلام): (ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل سيئاً استغفر الله منه وتاب إليه)[2] وقول الإمام الصادق (عليه السلام) (فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها، فإن للقيامة خمسين موقفاً كل موقف مقداره ألف سنة، ثم تلا قوله تعالى ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة:٥))، ولا أقل من استغلال الأيام

(١) تاريخ مدينة دمشق- ابن عساكر: ١٨٠/١٤.

(٢) وما بعده وسائل الشيعة: ج١١، كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس، باب٦٩، ح١، ٢.

الشريفة لهذه المراجعة والتأمل فيما قدّم وأخّر كيوم عرفة يوم التوبة العالمي والاستغفار والإنابة إلى الله تعالى وفي يوم العيد الذي يعني العود والرجوع إلى الله تبارك وتعالى، وكان من المعالم البارزة لإحياء هذه الشعائر الحشد الكبير الذي غصّ بهم الصحن الحسيني المطهّر أمس لتلاوة دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة وهم يبكون ويتضرّعون ونقلته لنا بعض الفضائيات، ومثل هذا الاجتماع المبارك سبب مهم لرفع البلاء عن هذه الأمة.

ما الذي يقتضيه الشعور بالمسؤولية؟

إن الشعور بهذه المسؤوليات والالتفات إليها يقتضي عملين:

الأول:رفع التقصير عما لم يقم به الإنسان والندم عليه وتداركه.

الثاني: شحذ الهمّة والعزيمة ورفع مستوى الطموح ليبلغ أعلى هذه الدرجات ويستوعب أكبر مساحة من المسؤوليات ليحظى بأعلى الامتيازات عند الله تبارك وتعالى ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:٧٢) ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۞ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۞ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ (آل عمران:١٥-١٧).

ملحق :صفات المسؤول

روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: (الا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ، وهو مسؤول عن رعيته والرجل راعٍ على اهل بيته وهو مسؤول عنهم والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم)[١].

وعن امير المؤمنين قال: اتّقوا اللّه في عباده وبلاده فإنّكم مسؤولون حتّى عن البقاع والبهائم، وأطيعوا اللّه ولا تعصوه)[٢].

اذن كلنا مسؤولون، ولكن قد تختلف دائرة المسؤولية سعةً وضيقاً ولا يخلو احدٌ منها فانه مسؤول عن نفسه اولاً بتهذيبها وإصلاحها ثم عن اسرته وعائلته ثانياً وعن أصدقائه وزملائه في العمل وعن جيرانه وعن مجتمعه إذا كان في موقع المسؤولية السياسية او الدينية وهكذا الى ان تصل الى ولاية أمور الامة والمسؤولية العامة عن الناس وإدارة امورهم ورعاية شؤونهم.

وقد ذكرت الروايات الشريفة الصفات والخصائص التي ينبغي توفرها في المسؤول لينجح في عمله واداء وظيفته وليُعَّد محسناً عند الله تبارك وتعالى فينال رضاه، ورأيتها تركّز على صفة (الابوة) في المسؤول وأغلب الصفات المطلوبة في المسؤول – بأي مستوى كان – مندرجة في هذا العنوان بحيث ان النبي (صلى الله عليه وآله) اختار هذا العنوان ليصف به نفسه واخاه امير المؤمنين (عليه السلام) قال: (انا وعلي بن ابي طالب ابوا هذه الامة)[٣].

---

(١) صحيح مسلم: ٣/ ١٤٥٩/ ح ٢٠.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة: ١٦٧.

(٣) بحار الانوار: ٦/٣٦-٩ والتفاصيل في خطاب المرحلة ٦٤/٩.

واقول لكم بصراحة ان اكثر صفة نفتقدها في الذين يتولون امراً ما صغيراً كان او كبيراً هي هذه الصفة وفقدانها سبب رئيسي لفشل عمل اكثر مؤسساتنا ليس فقط الرسمية بل حتى الخيرية والدينية والاجتماعية والثقافية.

روى الشيخ الكليني (قده) بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): لا تصلح الإمامة إلا لرجل فيه ثلاث خصال :ورع يحجزه عن معاصي الله، وحلم يملك به غضبه، وحسن الولاية على من يلي حتى يكون لهم كالوالد الرحيم)[1].

وروى في نفس المصدر أنه (جاء الى أمير المؤمنين (عليه السلام) عسل وتين من همدان وحلوان فأمر العرفاء –أي المسؤولين ورؤساء اللجان- أن يأتوا باليتامى، فأمكنهم من رؤوس الازقاق يلعقونها وهو يقسمها للناس قدحاً قدحاً، فقيل له: يا أمير المؤمنين ما لهم يلعقونها؟ فقال: إن الإمام ابو اليتامى وإنما العقتهم هذا برعاية الاباء)[2].

فما هي صفات وسلوكيات الوالد الرحيم التي ارادت الاحاديث الشريفة من كل مسؤول الاتصاف بها؟

اولاً: لنحققها في انفسنا ونعمل بها لأنها من مكارم الاخلاق ومحاسنها التي تنال بها الدرجات الرفيعة عند الله تعالى وهذا مما لا يلتفت اليه اكثر الناس ويغفلون عن هذه الوسيلة العظيمة المقرِّبة الى الله تعالى، عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال:

---

(١) اصول الكافي، ج١، كتاب الحجة، باب: ما يجب من حق الإمام على الرعية، وحق الرعية على الإمام.

(٢) اصول الكافى (الجزء الاول من الطبعة الحديثة): ٤٠٦.

(إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وانه لضعيف العبادة)، وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (ما من شيء اثقل في الميزان من حسن الخلق)[١]، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ما يَقْدِمِ المؤمنُ على الله عزّ وجلّ بعملٍ بعد الفرائض أحبَّ إلى الله تعالى مِن أن يَسَع الناسَ بخُلقه)[٢].

ثانياً: ولأننا محاسبون عليها كما نطقت به الآيات الشريفة، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (الصافات:٢٤) ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر:٩٢-٩٣).

ثالثا: ولنأخذ دروساً في تربية الأبناء تربية صحيحة وفق تعاليم اهل البيت (عليهم السلام) وينبغي الالتفات الى ان بعض الصفات قد نعرضها من جانب مسؤولية الآباء في الاسرة ولكن لما طلبت الروايات المتقدمة من كل مسؤول يلي أمور مجموعة من الناس ان يكون كالوالد الرحيم لهم فعلينا تجريد هذه الروايات من خصوصياتها وتعميمها الى المسؤوليات الأخرى:

١- الحب للولد او للرعية إذا نظرنا الى المسؤولية الاجتماعية: عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) قال: (قال موسى بن عمران: يا رب، أي الاعمال أفضل عندك؟ فقال عز وجل:حبُ الاطفال، فأني فطرتهم على توحيدي، فإن أمتُّهم أدخلتهم برحمتي وجنتي)[٣].

---

(١) ميزان الحكمة: ٣/ ١٣٤.

(٢) الكافي: ٢/ ١٠٠/ ح٤.

(٣) البرقي- المحاسن: ١/٢٠٠/ باب المحبوبات/ ح١٥.

وعن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (أحبوا الصبيان وارحموهم...)[١].

وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (نظر الوالد الى ولده حباً له عبادة)[٢].

عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إن الله عز وجل ليرحم العبد لشدة حبه لولده)[٣]، وفي الحقيقة فان الحب ينبغي ان يشمل كل الناس لانهم صنع الله تعالى وآثار قدرته والمحب يحب كل آثار محبوبه وما يرتبط به.

٢- الرحمة: قال تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران:١٥٩) وفي عهد امير المؤمنين(عليه السلام) لمالك الاشتر لما ولاه مصر (وأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، والْمَحَبَّةَ لَهُمْ، واللُّطْفَ بِهِمْ. ولا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً، تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ)[٤].

وفيما نحن فيه من علاقة الاب بأولاده، ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أحبوا الصبيان وارحموهم...)[٥].

ومن مظاهر حب الولد والرحمة به: تقبيله، وتفريحه، وإرضاؤه، وإدخال السرور على قلبه، والمسح على رأسه، والنظر برحمة إليه.

عن رسول الله(صلى الله عليه وآله): (من قبل ولده كتب الله عز وجل له حسنة، ومن

---

(١) الكافي: ٦/ ٤٩.

(٢) مستدرك الوسائل: ١٥/ ١٧٠/ ح ١٧٨٩٤.

(٣) اصول الكافي: ٦/ ٥٠.

(٤) جواهر البحار-كتاب الروضة: باب عهد أمير المؤمنين(عليه السلام) إلى الأشتر حين ولاه مصر.

(٥) الكافي: ٦/ ٤٩.

فرحه فرحه الله يوم القيامة، ومن علمه القرآن دعي بالأبوين فيكسيان حلتين يضيء من نورهما وجوه أهل الجنة)[١].

وعنه(صلى الله عليه وآله): (قبلوا أولادكم فإن لكم بكل قبلة درجة في الجنة ما بين كل درجتين خمسمائة عام)[٢].

وعنه(صلى الله عليه وآله) لما قبل الحسن والحسين، فقال الأقرع بن حابس: إن لي عشرة من الأولاد ما قبلت واحدا منهم، فقال رسول الله: (ما علي إن نزع الله الرحمة منك)[٣].

وكان رسول الله يقبل الحسن والحسين، فقال عيينة: إن لي عشرة ما قبلت واحدا منهم قط فقال: (من لا يرحم لا يُرحم)[٤].

عن الإمام موسى الكاظم عن آبائه عليهم السلام) عن رسول الله(صلى الله عليه وآله): (إذا نظر الوالد الى ولده فسرّه، كان للوالد عتق نسمة، قيل: يا رسول الله، وإن نظر ستين وثلاثمائة نظرة؟! قال: الله أكبر)[٥].

وكان النبي إذا أصبح مسح على رؤوس ولده وولد ولده[٦].

عن الإمام علي(عليه السلام): (قبلة الولد رحمة)[٧].

---

(١) الكافي: ٦/ ٤٩.

(٢) مكارم الاخلاق: ٢٢٠.

(٣) مكارم الاخلاق: ٢٢٠.

(٤) وسائل الشيعة: ح٢٧٦٥٧.

(٥) مستدرك الوسائل: ١٥/ ١٦٩/ ح١٧٨٨٦.

(٦) عدة الداعي: ٨٧

(٧) مكارم الاخلاق: ٢٢٠.

وعن رسول الله لما خرج على عثمان بن مظعون ومعه صبي له صغير يلثمه، قال له: (ابنك هذا؟ قال نعم. قال: أتحبه يا عثمان؟ قال إي والله يا رسول الله، إني أحبه! قال(صلى الله عليه وآله): أفلا أزيدك له حباً؟ قال: بلى، فداك أبي وأمي !قال(صلى الله عليه وآله): إنه من يرضي صبيا له صغيرا من نسله حتى يرضى ترضاه الله يوم القيامة حتى يرضى)[1].

٣- التغافل: وغضّ النظر عّما فعل وكأنك لم تعلم بما صدر منه من خطأ لكن مع الانتباه والمراقبة لما يفعل من طرف خفي.

وقد ورد هذا المعنى في بعض روايات ائمة اهل البيت (عليهم السلام) عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال: (إن العاقل نصفه احتمال، ونصفه تغافل)[2].

وعنه (عليه السلام) قال: (اشرف اعمال - او أحوال- الكريم غفلته عما يعلم)[3].

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (صلاح حال التعايش والتعاشر ملء مكيال، ثلثاه فطنة، وثلثه تغافل)[4].

وعن الإمام علي بن الحسين السجاد (عليه السلام) قال: (اعلم يا بني ان صلاح الدنيا بحذافيرها في كلمتين: اصلاح شأن المعايش ملء مكيال ثلثاه فطنه وثلثه

(١) كنز العمال: ح٤٥٩٥٨.

(٢) غرر الحكم: ٢٣٧٨.

(٣) نهج البلاغة / الحكمة ٣٢٣.

(٤) تحف العقول: ٣٩٣.

تغافل، لان الانسان لا يتغافل الا عن شيء قد عرفه ففطن له)[١].

٤- المداراة واللين والرفق بهم، وهو أدب عام من آداب المعاشرة مع الناس، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض)[٢]، وعنه (صلى الله عليه وآله): (مداراة الناس نصف الإيمان، والرفق بهم نف العيش)[٣]، وعنه (صلى الله عليه وآله) (إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف)[٤].

فالرفق من صفات الله تعالى، ومقتضى التوحيد العملي – كما في المصطلح – أن يتخلق الانسان بأخلاق الله فيكون رفيقاً، ويترك العنف والغلظة في الأفعال والاقوال على الخلق في جميع الأحوال، سواء صدر عنهم بالنسبة اليه خلاف الآداب او لم يصدر.

وروي عنه قوله (صلى الله عليه وآله): (خذوا بالناس الميسَّر ولا تملّوهم)[٥].

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (إن الله يحب الرفق، ويعين عليه)[٦].

وعنه (صلى الله عليه وآله): (لو كان الرفق خلقاً ما كان مما خلق الله شيء أحسن منه)[٧].

---

(١) الخزاز القمي- علي ابن محمد- كفاية الاثر: ٢٤٠. تحقيق عبد اللطيف الحسني ، انتشارات بيدار ن مطبعة الخيام قم ١٤٠١م.

(٢) الكافي: ١١٧/٢.

(٣) الكافي: ١١٧/٢.

(٤) الكافي: ١٢٠/٢.

(٥) كنز العمال: ح ٥٣٩٣.

(٦) الكافي،ن.م،ح١٢.

(٧) الكافي،ن.م،ح ١٣.

وعنه (صلى الله عليه وآله): (إن في الرفق الزيادة والبركة، ومن يحرم الرفق يحرم الخير)[١].

وعن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (من كان رفيقاً في أمره نال ما يريد من الناس)[٢].

وكان آخر ما اوصى به الخضر، موسى بن عمران (عليه السلام) أن قال له (وإن أحب الأمور الى الله عز وجل ثلاثة.....الرفق بعباد الله، وما رفق أحد بأحد في الدنيا إلا رفق الله عزّ وجلّ به يوم القيامة)[٣].

وهو من آداب الدعوة إلى الله تعالى وإلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: قال تعالى مخاطباً نبيه الكريم موسى وأخاه هارون (عليهما السلام): ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه:٤٣-٤٤)، وهذا الأدب له آثار نفسية واجتماعية كبيرة[٤] ويزيد من فرص التأثير والترغيب،

---

(١) الكافي،ن.م،ح ٧.

(٢) الكافي،ن.م،ح ١٦.

(٣) الصدوق، الخصال: ١١١.

(٤) من الفوائد المرتبطة بالآية ما رواه الشيخ (قدس سره) في التهذيب بسنده عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (إن الحرب خدعة.. واعلم أن الله عز وجل قال لموسى (عليه السلام) حين أرسله إلى فرعون: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ وقد علم أنه لا يتذكر ولا يخشى ولكن ليكون ذلك أحرص لموسى (عليه السلام) على الذهاب) (التهذيب: ٢٩٩/١٦٣/٦)، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (النساء:١٤٢) - أي مجازيهم بالخداع-.

أما الشدة والغلظة فتوجب النفور والعناد[1]، وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل:١٢٥) وقال تعالى:﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤).

ويتأكد هذا الادب في علاقة الوالدين بالأبناء.

٥- العفو عنه: بمعنى عدم معاتبته ولا معاقبته او توبيخه، وقد اكد القران الكريم والنبي(صلى الله عليه وآله)في منهاجه على مبدأ العفو في العلاقات الاجتماعية داخل الاسرة وخارجها بشكل عام.

قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور:٢٢) ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ (البقرة:١٠٩)،﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (البقرة:٢١٩)، ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (البقرة:٢٣٧)، ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (النساء:١٤٩).

فالله تعالى رغم قدرته على العقاب وصف نفسه بانه عفو، ونحن مأمورون بان نتأدب بأدب الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

والخداع كما عن مفردات الراغب: (إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبديه على خلاف ما يخفيه) والمكر: (صرف الغير عما يقصده بحيله وهو محمود ومذموم بحسب ما يراد منه، والاستدراج والإمهال من مكر الله).

(١) هذا بحسب الغالب أو بحسب ما يناسب مع مراعاة المراتب وبعضها غليظ كما هو واضح، كما عبّر الشاعر بقوله:

ووضع الندى في موضع السيف في العلا مُضِرٌّ كوضع السيف في موضع الندى.

(النحل:﴿٦٠﴾) ونتخلق بأخلاقه أي اسمائه الحسنى (تخلقوا بأخلاق الله)[١] ففيما ناجى الله تعالى به نبي الله عيسى (عليه السلام) (طوبى لك ان اخذت بأدب الهك)[٢].

عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (رحم الله من اعان ولده على بره، وهو ان يعفو عن سيئته ويدعو له فيما بينه وبين الله)[٣].

٦- المشاورة والمشاركة في الرأي، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران:﴿١٥٩﴾) ولأمير المؤمنين (عليه السلام) عشرات الكلمات في المشاورة[٤]، منها قوله (عليه السلام): (الشركة في الرأي تؤدي الى الصواب)[٥] و(حقٌ على العاقل أن يضيف الى رأيه رأي العقلاء، ويضمَّ الى عمله علوم الحكماء)[٦] و(من شاور الرجال شاركها في عقولها)[٧] و(ما استنبط الصواب بمثل المشاورة)[٨] وعلى صعيد العلاقة مع الولد فقد قيل في المثل العامي (إذا كبر ابنك خاويه) أي أجعل أبنك أخاً لك إذا بلغ الرشد.

وعن ابي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (عليكم بالعفو، فان

---

(١) الجامع الحديثي الثانوي كتاب بحار الأنوار للعلامة المجلسي.

(٢) الكافي: ٨/ ١٣٥.

(٣) الحلي احمد ابن فهد عدة الداعي ونجاح الساعي ، ص ٨٦ مؤسسة الرسول الاعظم ، العراق ط ١ ٢٠١٠ م.

(٤) هداية العلم في تنظيم غرر الحكم:٣١١.

(٥) غرر الحكم: ١٩٤٢.

(٦) غرر الحكم: ٤٩٢٠.

(٧) غرر الحكم: ٨٦٥٢.

(٨) غرر الحكم: ٩٥٢٧.

العفو لا يزيد العبد الا عزا، فتعافوا يعزكم الله)[١].

فعلى المسؤول والمربي والمؤدب ان لا يلجأ الى استعمال اسلوب العقوبة مباشرة، بل يوازن بين اسلوب العفو واسلوب العقوبة، فلعل اسلوب العفو عن العقوبة على السلوك غير المرغوب فيه يكون له فائدة اشد تأثيرا في العملية التربوية.

٧- بر الولد واعانته على البر: عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال رجل من الانصار للنبي (صلى الله عليه وآله): من أبر؟ قال: والديك. قال قد مضيا. قال: برّ ولدك)[٢].

وعن يونس بن رباط، عن الإمام الصادق (عليه السلام)، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) (رحم الله من اعان ولده على بره، قال: قلت: كيف يعينه على بره؟ قال: يقبل ميسوره، ويتجاوز عن معسوره، ولا يرهقه، ولا يخرق به)[٣].

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (رحم الله والداً أعان ولده على البر)[٤].

وهكذا ينبغي للمسؤول اعانة رعيته على بِّره وطاعته من خلال أدائه لمسؤولياته كما ينبغي.

٨- التصابي معه: فقد وجدنا الأحاديث الشريفة تحث الوالد على اللعب مع

---

(١) الكافي: ٢/ ١٠٨.

(٢) الكافي: ٦/ ٤٩.

(٣) الطوسي محمد بن الحسن ، تهذيب الاحكام في شرح المقنعة: ٨/ ١١٣/ ح ٣٩٠، تحقيق الموسوي الخرسان ، دار الكتب الاسلامية طهران،١٣٦٥هـ شرح مفردات الحديث (لايرهقه): أى لا يسفه عليه ولا يظلمه من الرهق محركة او يحمل عليه ما لا يطيقه. و(الخرق) بالضم: الحمق والجهل اى لا ينسب اليه الحمق.

(٤) مستدرك الوسائل: ١٥/ ١٦٨/ ح ١٧٨٨٥.

الطفل، والتصابي معه، بمعنى النزول الى مستوى مدارك الطفل الحسية والحركية وتعامل الاب معه كأنه صبي مثله.

عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من كان عنده صبي فليتصاب له)[١].

وعن الإمام علي (عليه السلام) (من كان له ولد صبا)[٢].

وعن جابر بن عبد الله الانصاري قال: (دخلت على النبي، والحسن والحسين على ظهره، وهو يجثو لهما، ويقول: (نعم الجمل جملكما، ونعم العِدلان[٣] انتما)[٤].

وعن سعد بن ابي وقاص: دخلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله) والحسن والحسين يلعبان على بطنه فقلت يا رسول الله أتحبهما فقال وما لي لا أحبهما وهما ريحانتاي)[٥].

وعن أبي هريرة قال: كنا نصلي مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) العشاء، فإذا سجد، وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا رفع رأسه، أخذهما بيده من خلفه أخذا رفيقا، ويضعهما على الأرض، فإذا عاد، عادا، حتى إذا قضى صلاته، أقعدهما على

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ٤٨٣/٣/ ح٤٧٠٧.

(٢) الكافي: ٥٠/٦.

(٣) العدلان مثنى العِدل وهو نصف الحمل على احد شقي الجمل وسميا بذلك لتساويهما

(٤) ابن شهر آشوب ، محمد بن علي ، مناقب آل ابي طالب ج٣/ص١٥٨ تحقيق لجنة اساتذة من النجف الاشرف المطبعة الحيدرية ١٣٧٦هـ -١٩٥٦ م والطبراني ، سليمان بن احمد المعجم الكبير ج٣/ص٥٢، تحقيق عبد المجيد السلفي ، دار احياء التراث العربي ط٢، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

(٥) الهيثمي- المصدر: مجمع الزوائد - الصفحة أو الرقم: ١٨٤/٩ خلاصة حكم المحدث: رجاله رجال الصحيح.

فخذيه...)[١].

واذا اردنا نقل هذا المعنى الى الحالة العامة فنفهم منها رفع الحواجز بين المسؤول والناس ومشاركة الناس في فعالياتهم ومشاركتهم همومهم وافراحهم واحزانهم ولا نقصد بالحواجز المادية فقط وانما المعنوية اي بجعل الحواشي والحجّاب المانعين من وصول المظلومين والمحتاجين والبوح بمطالبهم من دون اي حزازة وقد يكون الحجاب بايجاد (اتكيت) او (برستيج) خاص كالتي كانت تعرف في زمن الامويين والعباسيين (رسوم دار الخلافة) وألفّت الكتب فيها، تعرف احياناً في اوساطنا بالشأنية، فهذه كلها من مبتدعات الحكّام وليست من خصال الانبياء (عليهم السلام) والائمة وورثتهم من العلماء الصالحين، حيث لم يميّز احد منهم نفسه عن الناس كما وصف احدهم امير المؤمنين بقوله (كان فينا كأحدنا).

٩- العدل والمساواة بينهم :عن النبي (صلى الله عليه وآله): (... اتقوا الله واعدلوا بين اولادكم ...)[٢].

وعنه (إن لهم عليك من الحق أن تعدل بينهم كما لك عليهم من الحق أن يبروك) [٣].

وعنه: (ساووا بين اولادكم في العطية)[٤].

---

(١) (حم) ١٠٦٦٩، انظر الصحيحة: ٣٣٢٥، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن.

(٢) كنز العمال: ج١٦/ ص٤٤٥.

(٣) كتاب السنن الكبرى، عن ابي داوود.

(٤) كتاب حديث خالد بن مرداس السراج /ح١٢.

وعنه: (إن الله تعالى يحب ان تعدلوا بين اولادكم حتى في القُبل)[١].

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (نظر رسول الله (صلى الله عليه وآله) الى رجل له ابنان، فقبّل احدهما وترك الآخر، فقال له النبي: فهلا واسيت بينهما؟)[٢].

وعن النبي (صلى الله عليه وآله): (من كان له ابنة، فلم يؤذها، ولم يهنها، ولم يؤثر ولده عليها ادخله الله الجنة)[٣].

وعن سعد بن سعد الاشعري قال: سألت ابا الحسن الرضا (عليه السلام)... (فقلت جعلت فداك، الرجل يكون بناته احب اليه من بنيه؟ قال الرضا (عليه السلام): البنات والبنون في ذلك سواء، انما هو بقدر ما ينزلهم الله عزّ وجلّ منه)[٤].

وتطبيقه ان من يلي امر مجموعة من الناس عليه ان يعدل بينهم فلا يحابي او يجامل او يقرّب هذا وذاك لانه ذو مال او جاه او موقع ونحو ذلك.

١٠- الاكرام والاحسان والتآلف: عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (اكرموا اولادكم، واحسنوا آدابهم)[٥].

وعنه قال: (رحم الله عبداً أعان ولده على بره بالإحسان اليه، والتآلف له وتعليمه وتأديبه)[٦].

---

(١) ميزان الحكمة: ٤/ ٣٦٧٣.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٣/ ٤٨٣.

(٣) عوالي اللئالي: ١/ ١٨١.

(٤) الكافي: ٦/ ٥١.

(٥) مستدرك الوسائل: ١٥/١٦٧/ ح١٧٨٨٣.

(٦) مستدرك الوسائل: ١٥/١٦٧/ ح١٧٨٨٦.

١١- الشفقة: عن الإمام علي (عليه السلام) قال: (يجب عليك ان تشفق على ولدك اكثر من اشفاقه عليك)[١]، وهي مطلوبة في التعامل مع جميع الخلق، في الحديث القدسي (الخلق عيالي فاحّبهم اليَّ اشفقهم على عيالي)[٢].

وهي منزلة عظيمة ينالها الانسان حيث يكون أحبَّ الخلق الى الله تعالى بكثرة شفقته على الخلق، والخلق لا تقتصر على الانسان بل تشمل الحيوانات والحشرات وكل شيء من خلق الله تعالى .

١٢- الوفاء بالوعد: عن رسول الله(صلى الله عليه وآله): (أحبوا الصبيان، وأرحموهم، وإذا وعدتموهم شيئا فوفوا لهم، فإنهم لا يدرون إلا أنكم ترزقونهم)[٣].

وعن الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إذا واعد أحدكم صبيه فلينجز)[٤].

وعنه (عليه السلام) قال: (لا يصلح من الكذب جدٌّ ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم صبيه ثم لا يفي له، إن الكذب يهدي الى الفجور، والفجور يهدي الى النار.....)[٥].

وعن أبي الحسن (عليه السلام) قال: (إذا وعدتم الصبيان فوفوا لهم، فإنهم يَرَوْن أنكم الذين ترزقونهم، إن الله عز وجل ليس يغضب لشيء كغضبه للنساء

---

(١) شرح نهج البلاغة:ج٢٠ / الحكم المنسوبة الى امير المؤمنين (عليه السلام) ح١٥٢.

(٢) دعائم الإسلام ج٢/ ص٣٢٠/ ح١٢٠٧. وشرح نهج البلاغة: ج٢٠ ص٣٤٠ الرقم ٨٩٣.

(٣) الكافي: ٦/ ٤٩.

(٤) مستدرك الوسائل: ١٥/ ١٧٠/ ح١٧٨٩٣.

(٥) الصدوق – الامالي: ٥٠٥ /ح٦٩٦، تحقيق قسم الدراسات الاسلامية – مؤسسة البعثة، طهران ط١٤١٧،١هـ

والصبيان)[1].

وهكذا المسؤول عليه ان يفي لرعيته بوعوده التي قطعها على نفسه ولا يجعلها خديعة ليعطيه الناس اصواتهم ثم يدير ظهره لهم بعد تحقيق مبتغاه.

١٣- ايثارهم على النفس قال تعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر:٩) فالأبوان يجوعان ليشبعا أطفالهما ويهجران لذيذ النوم من اجلهم ويشقيان في الحياة من اجل اسعادهم وهكذا يكون المسؤول كالوالد الرحيم للرعية وهذه الخصلة مما وصفت به السيدة الزهراء (عليها السلام) امير المؤمنين في خطبتها قالت: (عليها السلام) عنه (عليه السلام) (ولم يكن يتحلى من الدنيا بطائل، ولا يحظى منها بنائل، غير ري الناهل وشبعة الكافل)[2].

١٤- ومن صفات المسؤول: سعة الصدر في الحديث الشريف عن امير المؤمنين (عليه السلام) (آلة الرئاسة سعة الصدر)[3].

١٥- ومن لوازم موقع المسؤولية النصيحة عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (طلبت الرئاسة فوجدتها في النصيحة لعباد الله)[4].

---

(١) الكافي: ٦/ ٥٠.

(٢) الاحتجاج: ١٣٩/١.

(٣) نهج البلاغة / الحكمة ١٧٦.

(٤) مستدرك الوسائل: ١٧٣/١٢/ ح ١٣٨١٠.

القبس/١٧٤

سورة ص:﴿٢٤﴾

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

موضوع القبس: ضع الله تعالى نصب عينيك عندما تكون في خلاف مع الآخر وانصف الناس من نفسك

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ (ص:٢٤).

تشخّص الآية الكريمة ظاهرة اجتماعية خطيرة وحالة لا إنسانية متفشية في المجتمع منشأها الحرص والطمع وعدم القناعة وحب الدنيا وان حاز منها اضعاف حاجته، وهذا يبطل بعض الاطروحات التي تقول بأن استقرار الانسان يتحقق باطلاق العنان له حتى يشبع غرائزه فاذا اكتفى فانه سيستقر، فان وجود هذه الظاهرة تفنّده.

وقد وردت الكلمة في سياق قضية الخصمين اللذين احتكما إلى نبي الله تعالى داود (صلوات الله عليه وعلى نبينا) ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ (ص:٢٢).

والخلطاء الاشخاص الذين بينهم نحو من انحاء الاختلاط والشراكة في شيءٍ ما ولا يختص بالشركة المالية حتى يقال انه لا دلالة في الآية على وجود شراكة بينهما، فيمكن أن يكون اختلاط هذين المتخاصمين بسبب الرعي

المشترك أو تجاورهما أو أي سبب آخر، ويمكن أن تكون نفس هذه المنازعة اختلاطاً بينهما.

والقرآن الكريم يشخّص هذه الحالة المذمومة التي تحصل بين الخلطاء وهي بغي بعضهم على بعض ومحاولة كل منهما تحصيل الغلبة على الآخر، والاستئثار بالكل وانتزاع ما في يد الآخر بشتى الوسائل ولو كانت محرمّة كالدعوى الباطلة وتزوير الشهادات والوثائق والكلام المعسول وأساليب الخطاب الماكرة التي تخدع الناظر في القضية وقد يتوسل بالقوة لتحقيق ذلك ﴿إِنَّ هَـذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ (ص:٢٣) أي طلب مني ضم نعجتي إلى نعاجه وغلبني بكلامه وحججه وخدعه، وكم كان ادب المظلوم رائعاً حين بقي يصف الباغي بأنه (أخي) فلم يتنكر لاخوانه رغم تعرضه للظلم والبغي، وهذا التعبير ورد في كلمات امير المؤمنين (عليه السلام) حينما سمع بعض أصحابه يشتمون معاوية واصحابه في صفين ويلعنوهم فزجرهم عن ذلك فقالوا: أدبنا بأدبك يا أمير المؤمنين فقال (عليه السلام) (هم إخواننا بغوا علينا)[1]، هذا هو ادب الإسلام المحمدي الأصيل وهو برئ ممن يكفّر أخاه ويعاديه لمجرد أنه أختلف معه في فكرة او موقف.

ولعل تسجيل هذا المورد من الظلم والبغي مع أن مواردهما كثيرة لالفات النظر إلى خطورة هذه الظاهرة ولؤم الباغي فيها لان المفروض أن خلطتهما وتواصلهما المستمر يكون سبباً لتبادل الثقة والمودة بينهما وأن يكون كل منهما

(١) وسائل الشيعة: ج١٥/ص٨٣.

أميناً على حق الآخر وحافظاً له وان لا يتوقع كل منهما صدور الظلم والبغي من الآخر.

وقد استثنت الآية المؤمنين ذوي السيرة الصالحة لكنهم الاقلّون عدداً فانهم يصمدون بايمانهم امام اهواء النفس وانانيتها وطمعها وحبّها للغلبة والاستعلاء وحسدها، وهذا يعني ان ما يعصم من الوقوع في هذا البغي والظلم هو الايمان الصادق الذي يتمظهر في العمل الصالح والسيرة الحسنة، ومراعاة حقوق الاخوة والمعاشرة، هذه الرقابة الداخلية من الضمير الحي والقلب المفعم بالحب والرحمة وتقوى الله تعالى هو ما يجعل صاحبه لا يفكّر الا بالخير للآخرين اما أي رقابة أخرى كالسلطة والقانون والعقوبات فانها يمكن التخلص منها والتحايل عليها والاحتماء منها، وهذا الفرق يظهر لنا أحد مميزات الدين والالتزام به ودور الدين في حياة الانسان.

وقد علّمنا الائمة المعصومون (سلام الله عليهم اجمعين) هذا الادب في التعامل مع الآخرين بأقوالهم وأفعالهم، روي عن صفوان الجمال قال: وقع بين أبي عبد الله (عليه السلام) وبين عبد الله بن الحسن كلام حتى وقعت الضوضاء بينهم واجتمع الناس فافترقا عشيتهما بذلك وغدوت في حاجة، فإذا أنا بأبي عبد الله (عليه السلام) على باب عبد الله بن الحسن وهو يقول: (يا جارية قولي لأبي محمد يخرج) قال: فخرج فقال: يا أبا عبد الله ما بكر بك؟ فقال: إني تلوت آية من كتاب الله عز وجل البارحة فأقلقتني، قال: وما هي؟ قال: قول الله جل وعز ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (الرعد:٢١) فقال: صدقت لكأني لم أقرأ هذه الآية من كتاب الله جل وعز قط فاعتنقا

وبكيا)[١].

وهذا أدب يصعب على الناس الالتزام به لذا جعلت الروايات الشريفة انصاف الناس من نفسك من أشق الاعمال، روي عن رسول الله (ﷺ) (ثلاث لا تطيقها هذه الأمة: المواساة للأخ في ماله، وانصاف الناس من نفسه، وذكر الله على كل حال)[٢]، وبذلك استحق اهله الكرامة عند الله، ففي وصية النبي (ﷺ) لابن مسعود (يا ابن مسعود أنصف الناس من نفسك وأنصح الامة وارحمهم فاذا كنت كذلك وغضب الله على أهل بلدة وأنت فيها وأراد أن ينزل عليهم العذاب نظر إليك فرحمهم بك يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود:١١٧))[٣].

ونذكر هنا بعض الاحاديث الشريفة لردع من تسوِّل له نفسه التجاوز على حق خليطه ومن له نزاع او اختلاف معه مستخدماً شتى الوسائل والذرائع الشيطانية.

١- روى الشيخ الطوسي في كتابه الآمالي عن عدي قال (اختصم امرؤ القيس ورجل من حضرموت إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) في أرض، فقال: ألك بيّنة ؟) باعتبار ان القاعدة المعمول بها في حل النزاعات هي بأن يقدّم المدّعي بيّنة واضحة على ما يدعيه (قال: لا، قال (صلى الله عليه وآله): فيمينه) لان المدعي اذا لم تكن لديه بيّنة يحلف المدّعى عليه وهو المنكر للدعوى على نفسها فيحكم له بالحق (قال:

---

(١) الكافي: ٢/٣٣٤/ ح٢٣.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٤/ ٤٥.

(٣) مكارم الاخلاق: ٢/٣٦٠/ ح ٢٦٦٠، ميزان الحكمة: ٣٦/٩.

إذن والله يذهب بأرضي) أي ان المدعي خاف من ان خصمه لا يتورع عن الحلف كذباً فيحكم له بالأرض (قال: إن ذهب بأرضك بيمينه كان ممن لا ينظر الله إليه يوم القيامة، ولا يزكيه، وله عذاب اليم، قال: ففزع الرجل وردّها إليه)[١].

٢- صحيحة هشام بن الحكم، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إنما اقضي بينكم بالبينات والايمان وبعضكم ألحن بحجته – أي افطن لها – من بعض، فأيما رجل قطعتُ له من مال أخيه شيئا، فإنما قطعت له به قطعة من النار)[٢].

روى عن أبي بصير: قال (دخل رجلان على أبي عبد الله (عليه السلام) في مداراة بينهما ومعاملة فلما أن سمع كلامهما، قال: أما انه ما ظفر أحد بخير من ظفر بالظلم أما ان المظلوم يأخذ من دين الظالم أكثر مما يأخذ الظالم من مال المظلوم)[٣]، فكم من مظلوم ذهب حقّه هدراً لانه لم ينجح في مقارعة حجة الآخر وأثبا حقه او ان القاظي لم ينصفه في الاستماع الى ادلة الخصمين والتأمل فيها جيداً لاستكشاف الحقيقة وعدم السقوط في فخ الخداع والاغراء.

ومن الواضح ان ظاهرة بغي بعض الخلطاء على بعض لها مدى واسع في حياة المجتمع فيمكن ان تكون بين زوجين مختلفين فيحاول كل منهما ان يتغلب على الآخر ويثبت انه على الحق وان الاخر هو المخطئ ويكشف من اسراره وخصوصياته ويسعى لتسقيطه وتشويه صورته، ويبالغ كل منهما في تحميل الآخر

---

(١) وسائل الشيعة: ٢٣٥/٢٧، كتاب القضاء، أبواب كيفية الحكم/ باب٣/ ح٧.

(٢) الكافي: ٢/ ٣٣٤/ ح٢٢.

(٣) وسائل الشيعة: ٢٣٢/٢٧، باب٢/ ح١.

مبالغ واستحقاقات كبيرة بالاستفادة من القانون الوضعي الحاكم.

او تحصل بين متنازعين في السوق وما أكثر الاختلافات بين المتعاملين، او النزاع بين ورثة او أي شركاء فيعمل كل منهما على كسب الشيء له بلا وازع من دين او ضمير او اخلاق.

وتتوسع الأمثلة الى الشركاء السياسيين او حكومات الدول المختلفة فأنها مبنية على الاستئثار والهيمنة وتجريد الاخر من حقوقه وليس على أساس العدالة والانصاف والمرؤة والحقوق المتبادلة الا من عصم الله تعالى كما ذكرت الآية.

فالدرس الذي نستفيده من الآية أنه يجب على الانسان أن يضع الله نصب عينيه حينما يكون في نزاع مع الآخر وأن ينصف الناس من نفسه فلا يكون همه الا إحقاق الحق لا الغلبة على الآخر، وتقرّر الآية أن من يكونون كذلك قليلون.

ولأجل هذا كُرهت الشركة، روي عن امير المؤمنين (عليه السلام) قوله (الشركة في الملك تؤدي الى الاضطراب)[1]، الا اذا وجدت مُبررّاتها وضماناتها كمشاركة المرزوقين في الاعمال التجارية، قال امير المؤمنين (عليه السلام) (شَارِكُوا الَّذِي قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ الرِّزْقُ، فَإِنَّهُ أَخْلَقُ لِلْغِنَى، وَأَجْدَرُ بِإِقْبَالِ الْحَظِّ عَلَيْهِ)[2].

كما تستحب الشركة في الرأي أي المشاورة واستمزاج الرأي (الشركة في الرأي تؤدي الى الصواب)[3].

---

(١) غرر الحكم: ١٩٤١.

(٢) نهج البلاغة: الحكمة ٢٣٠.

(٣) غرر الحكم: ١٩٤٢.

القبس/١٧٥

سورة ص:﴿٦٢﴾

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾

موضوع القبس: عاقبة التسقيط والاستهزاء الذي يتعرض له الرساليون

قال الله تبارك وتعالى ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ۞ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ۞ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (ص:﴿٦٢﴾-﴿٦٤﴾).

مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة ينقل لنا حواراً يجري بين أهل النار زعماءاً واتباعاً يسألون فيه عن اشخاص كانوا يعدُّونهم في الدنيا من سقط الناس وأراذلهم وأنهم لا قيمة لهم وان النار والعذاب والشقاء خلق لهم وهو استحقاقهم، كما كان ينظر طواغيت قريش وأثريائها مثل الوليد بن المغيرة وأبي جهل وأبي سفيان وأمية بن خلف إلى ضعفاء المسلمين الأوائل كبلال الحبشي وخبّاب بن الأرت وعمار بن ياسر، ففي يوم القيامة حيث يُلقى هؤلاء الطواغيت واتباعهم في النار ينظرون في أهلها الأشقياء فلا يجدون أولئك الذين كانوا يترفعون عنهم ويسخرون منهم فيتساءلون بينهم: لماذا لا نجدهم معنا في النار؟ هل هم في الجنة وقد فازوا بالنعيم وإننا كنا مخطئين حينما كنا نسخر منهم ونستهزئ بهم ونحتقرهم ونستصغر شأنهم ولم نحمل أمرهم على الجدّ وننظر في دعاواهم بإنصاف

وموضوعية؟ أم إنهم معنا في النار فعلاً كما كنا نظن في الدنيا الا أن أبصارنا مالت عنهم فلم ترهم بسبب ظلمات النار وعذابها وشقائها ودخانها.

وكما كانوا في الدنيا أهل خصومة ولجاج وعناد واستكبار ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (الزخرف:٥٨) فإنهم يصحبون صفاتهم هذه إلى يوم القيامة، فيتخاصمون في النار حتى الاتباع مع قادتهم بعد أن كانوا يفدونهم بأرواحهم في الدنيا، والمستكبرين مع مستضعفيهم حيث يتبادلون الاتهامات والأوصاف البذيئة، قال تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ (سبأ:٣١-٣٢) ولو كانوا عقلاء وأهل حكمة لاستفادوا مما يقال فيهم من نقد وتقويم وتصحيح ولاعترفوا بأخطائهم، لا أن يرشقوا منتقديهم ببذيء الكلام والبهتان والافتراء.

وتتناول آيات أخر من سورة الصافات هذه الحالة لكن من زاوية أخرى في الجنة حيث يحصل نفس التساؤل عند أهلها، قال تعالى بعد أن وصف الحياة الطيبة السعيدة التي يتنعم بها المؤمنون ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۞ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۞ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۞ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ۞ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ۞ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۞ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ۞ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (الصافات:٥٠-٥٧) ففي بعض جلسات الود والهناء والإقبال وهم

﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر:٤٧) يتحدث بعض المؤمنين إلى بعض بأنه كان لي زميل في الجامعة أو في العمل أو في المنطقة يسخر مني ويستهزئ بمعتقداتي ويقول لي هل انك تصدق فعلاً بأننا سنبعث بعد الموت وتلاشي أبداننا ونقوم للحساب يوم القيامة فيعاقب المسيء على أساءته ويكافأ المحسن على إحسانه؟ فكان يعد هذه العقائد وهماً وخرافات لا يصدقها العقل وتخلّفاً ورجعية.

وحينئذ يطلب هذا المؤمن المنعّم من رفقائه في الجنة أن يتطلعوا إلى النار لعلهم يجدون هذا الزميل فيها بعد أن افتقده بين أهل الجنة، وليطمئن قلبه إلى نتائج الأعمال في الدنيا إحساناً وإساءةً كما كان يؤمن ويعتقد، فلما نظروا في أهل النار وجدوا ذلك الزميل في وسطها كما كان في الدنيا وسط العصاة والفسقة والملحدين، وهنا يستعيد المؤمن ما كان يفعله هذا الزميل الشقي البائس من الاستهزاء والتسقيط والافتراء والضغط النفسي وقد يصل الى استعمال العنف والتهديد ليصدَّه عن دينه ويشكّكه في معتقداته، ويقسم المؤمن بالله تعالى أن هذا الزميل مارس كل ألوان الضغط عليه والكيد له وكاد أن ينجح في مساعيه لأن مقاومة الإنسان للإغراء أو التهديد محدودة وقد يضعف أمام بعض مراتبها، لكنه هنا يستذكر نعمة الله ولطفه وتأييده إذ ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ (الحجرات:٧) وتولى عصمته من الزلل والانحراف ولولا ذلك لكان من المحضرين في عذاب جهنم كهذا الزميل ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الصافات:١٢٧-١٢٨) فإنه وإن لم يفلح في هداية هذا الزميل من الضلال لسبب منه أو من الآخر أو لأمر خارج عنهما إلا أنه بفضل الله تعالى لم يتأثر به ولم يخضع لإغراءاته أو

تهديداته بل بقي متمسكاً بدينه وأخلاقه الفاضلة.

ثم يصف هذه النتيجة السعيدة التي حصل عليها ﴿إِنَّ هَـذَا لَهُـوَ الْفَـوْزُ الْعَظِـيمُ﴾ (الصافات:٦٠) ويوصي بالثبات على هذا المنهج الرباني العظيم وتكريس الجهود والطاقات له لا لغيره من أمور الدنيا الفانية ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَـلِ الْعَامِلُونَ﴾ (الصافات:٦١).

إن المقصودين بهذا الحوار فئات عديدة إذ يمكن أن يجري بين المؤمنين وغيرهم وهو الظاهر من سياق الآيات الكريمة، أو بين طائفة وطائفة أخرى من المسلمين كالذي يتعرض له اتباع أهل البيت (عليهم السلام) من بعض الحسّاد والحاقدين وأهل المصالح الدنيوية الضيقة والمتطرفين والتكفيريين والنواصب ممن يدّعون الإسلام فيكفّرون الشيعة ويقتلونهم ويفترون عليهم ويصفونهم بأقذر الأوصاف.

ويمكن أن يجري هذا الحوار في بعض مراتبه بين أبناء الطائفة الواحدة حيث يتعرض بعضهم من البعض الآخر إلى شتى أنواع الافتراء والأوصاف القذرة الشنيعة لإقصائهم وعزلهم والتنفير منهم، ويمكن ان تجري الآيات الكريمة على الحكومات الجائرة الظالمة التي تصف الشعب الثائر عليهم المطالب بحقوقه بأنهم غوغاء وفوضويون وعملاء للأجانب وجواسيس وطابور خامس ومفسدون وأشرار كما وصف صدام المقبور أبطال الانتفاضة الشعبانية عام ١٩٩١م، من أبناء محافظات الوسط والجنوب عندما ثاروا على ظلمه وطغيانه وهكذا يمكن تطبيق المشهد على كثير من الحالات.

وقد تحتقر شخصاً لأنك ترى أنك تمتلك من الدين أو الثقافة أو الورع ما لا

يمتلكه فتتكبر عليه وتستصغر شأنه، ولعلك تنكر نعمة ينعمها الله عليه وتستغرب من اختصاص الله له بها. وقد تستمر بفكرة قديمة عنه ويكون قد تاب عنها وانصلح وتغير، أو أنه كان وقتها يمر بانتكاسة، فتتمسك بها ويعفو الله عنها، ويتوب على عبده فيما تستمر أنت باحتقاره وكرهه.. وأنت تظن أنك تكرهه لسبب ديني وأن معاداتك له مبررة ولا بأس فيها، بينما هي تنخر بإيمانك وتظلم بها نفسك.

إن هؤلاء الذين كانوا يحتقرون المؤمنين ويظنونهم من الأشرار يحتمل أنهم من داخل العنوان الديني ويَزِنون الشر والخير بميزان ديني، ولكنهم احتقروا فئة من المؤمنين مذهبياً أو سلوكياً، واحتفظوا بسخريتهم واحتقارهم لهم حتى وهم في النار، فلا يتصورون أن أولئك الذين سخروا منهم أخيار فيحتملون أنهم في النار أيضاً ولكن لم يروهم. وهذه مواقف خطيرة ينبغي على المؤمنين الانتباه لها، والحذر منها لا سيما أولئك الذين يظنون أنهم محسوبون على الله، ويتكبرون باسم الدين وينقمون بسوط الله على الناس، وقد رأينا خلال عمرنا وتجربتنا أنه كانت هناك فئة من المتدينين تكبروا على المجتمع الجاهل وفرحوا بما عندهم من التدين، ثم قيض الله للجاهلين من يعلمهم حتى صاروا خيراً من أولئك في الثقافة والورع والعمل، وعادت قلوب أولئك قاسية وألسنتهم جارحة وتحول التكبر إلى حقد وكبرياء وجنون. وهناك حديث ينبغي أن يحمل المنتظرين للإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) والداعين لدولته على القلق والأرق ومحاسبة النفس والتدقيق في حقيقتها، وهو ما رواه النعماني في الغيبة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إذا خرج القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) خرج من هذا الأمر من كان يَرى (أو يُرى) أنه من أهله ودخل فيه شبه

عبدة الشمس والقمر)[1].

وتطبق الروايات الشريفة هذا المشهد على اتباع أهل البيت (عليهم السلام) الصادقين وما يلاقونه من خصومهم، فقد روى الشيخ الكليني بسنده عن ميسر قال (دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (عليه السلام) فَقَالَ كَيْفَ أَصْحَابُكَ فَقُلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ لَنَحْنُ عِنْدَهُمْ أَشَرُّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا قَالَ وَكَانَ مُتَّكِئاً فَاسْتَوَى جَالِساً ثُمَّ قَالَ كَيْفَ قُلْتَ قُلْتُ وَاللَّهِ لَنَحْنُ عِنْدَهُمْ أَشَرُّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا فَقَالَ أَمَا وَاللَّهِ لَا تَدْخُلُ النَّارَ مِنْكُمُ اثْنَانِ لَا وَاللَّهِ وَلَا وَاحِدٌ وَاللَّهِ إِنَّكُمُ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَقالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ثُمَّ قَالَ طَلَبُوكُمْ وَاللَّهِ فِي النَّارِ فَمَا وَجَدُوا مِنْكُمْ أَحَداً)[2].

وروى الشيخ الطوسي في أماليه بإسناده قال (دَخَلَ سَمَاعَةُ بْنُ مِهْرَانَ عَلَى الصَّادِقِ (عليه السلام)، فَقَالَ لَهُ: «يَا سَمَاعَةُ مَنْ شَرُّ النَّاسِ؟» قَالَ: نَحْنُ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ. قَالَ: فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ ثُمَّ اسْتَوَى جَالِساً، وَكَانَ مُتَّكِئاً، فَقَالَ: «يَا سَمَاعَةُ مَنْ شَرُّ النَّاسِ عِنْدَ النَّاسِ؟» فَقُلْتُ: وَاللَّهِ مَا كَذَبْتُكَ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، نَحْنُ شَرُّ النَّاسِ عِنْدَ النَّاسِ، لِأَنَّهُمْ سَمَّوْنَا كُفَّاراً، وَرَافِضَةً. فَنَظَرَ إِلَيَّ، ثُمَّ قَالَ:«كَيْفَ بِكُمْ إِذَا سِيقَ بِكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ، وَسِيقَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ، فَيَقُولُونَ: ﴿مالَنا لا نَرىٰ رِجالاً كُنّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ﴾. يَا سَمَاعَةَ بْنَ مِهْرَانَ، إِنَّ مَنْ أَسَاءَ مِنْكُمْ

(١) بحار الأنوار: ج٥٢/ ص٣٦٣/ ح١٣٧.

(٢) الكافي: ج٨/ ص٧٨/ ح٣٢.

إِسَاءَةً مَشَيْنَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَقْدَامِنَا فَنَشْفَعُ فِيهِ فَنُشَفَّعُ، وَاللَّهِ لاَ يَدْخُلُ النَّارَ مِنْكُمْ عَشْرَةُ رِجَالٍ، وَاللَّهِ لاَ يَدْخُلُ النَّارَ مِنْكُمْ خَمْسَةُ رِجَالٍ، وَاللَّهِ لاَ يَدْخُلُ النَّارَ مِنْكُمْ ثَلاَثَةُ رِجَالٍ، وَاللَّهِ لاَ يَدْخُلُ النَّارَ مِنْكُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَتَنَافَسُوا فِي الدَّرَجَاتِ، وَأَكْمِدُوا عَدُوَّكُمْ بِالْوَرَعِ، وَاللَّهِ مَا عَنَى وَلاَ أَرَادَ يْرَكُمْ، صِرْتُمْ عِنْدَ أَهْلِ هَذَا الْعَالَمِ شِرَارَ النَّاسِ، وَأَنْتُمْ وَاللَّهِ فِي الْجَنَّةِ تُحْبَرُونَ، وَفِي النَّارِ تُطْلَبُونَ)[1].

أيه الأحبة:

أنتم مقبلون على الدراسة الجامعية التي لها مميزات تختلف عمّا تعودتهم عليه في دراستكم السابقة، ومن تلك المميزات وجود تنوع فكري وايديولوجي وديني وطائفي واجتماعي وطبقي، وهذا التنوع فيه جانب إيجابي لأنه يقوّي الشخصية وينضجها ويثري الثقافة ويفجّر الطاقات، وبنفس الوقت يشكل لكم تحدياً وصراعاً يستلزم تحصيل الأدوات والصفات والقدرات التي تمكنكم من النجاح في هذا الاختبار.

فالطالب والطالبة الجامعيان المتدينان سيجدان من يسخر من التزامهما بالتعاليم الدينية ويصفهما بالتخلف والرجعية والأفكار البالية التي لم تعد مناسبة للعصر ولا توجد حاجة إليها ونحو ذلك، فيقال للفتاة المحجبة ان الحجاب تضييق للحرية وحرمان لها من التمتع بالجمال والجاذبية واعجاب الآخرين، فعليها أن تكون شجاعة وذات ارادة قوية وتمتلك الإجابات الداحضة لشبهات المعارضين، كأن تقول أن التبرج وإظهار المفاتن امام الغرباء مرض فتّاك يؤدي إلى تخريب المجتمع وفساده، وان المتبرجة لا تقلّ خطراً عن الفايروسات المعدية التي تنقل

(١) أمالي الطوسي: ٣٠١/١، البرهان: ١٩٩/٨/ ح٧.

الأمراض الفتاكة فيجب الوقاية منها وتجنّبها، وان الحجاب يحمي المجتمع من هذا الخطر المدمّر، ولإثبات ذلك عملوا في الغرب استبياناً لحالات التحرش الجنسي فوجدوها تزداد كلما كانت المرأة أكثر إغراءاً وإظهاراً للمفاتن وينعدم التحرش عندما تكون المرأة محجّبة فارتداء الحجاب وقاية للنفس والمجتمع.

أو تقول: إن حجابي هو التزام بالقانون الذي أؤمن به وهو الذي وضعه خالق الإنسان والعارف بتركيبته وما يصلحه وما يفسده وما يكفل سعادته في الدنيا والآخرة، فهل في الالتزام بالقوانين مصادرة للحريات أم هو تضحية ببعض الأهواء والمشتهيات الشخصية من أجل حفظ النظام الاجتماعي العام؟ فالذي يتوقف عند الإشارة المرورية الحمراء وهو يودّ أن ينطلق بسيارته لا يقال له بأنك مسلوب الحرية، وكذا المرأة التي تمرّ بسوق الصاغة وترى المجوهرات والمصوغات الذهبية التي تشتهي أن تمد يدها وتأخذها لتتزين بها لكنها تكبح جماح أهوائها وتتوقف لأن القانون يحرّم الاعتداء على ممتلكات الآخرين وغير ذلك، فهذه كلها ليست مصادرة للحريات بل تنظيم لها وتهذيبها بقوانين تحفظ النظام الاجتماعي العام ، وهكذا القوانين الإلهية فإنها شُرعَّت لحفظ كرامة الإنسان والمجتمع وسعادتهما وتحقيق العدالة الاجتماعية، مع البون الشاسع بين القوانين الوضعية التي يشرعها بشر ناقصون قاصرون خطاؤون تتحكم فيهم الأهواء والمصالح الضيقة وبين القوانين الإلهية التي أودعها في كتاب ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (فصلت:٤٢).

وقد كشفت آيات صورة ص والصافات المتقدمة ان المتدينين سيقطفون ثمرة ثباتهم على الدين واستقامتهم وعدم انسياقهم وراء الشهوات والاهواء

وخضوعهم لضغوط المنافقين والطغاة والمتمردين الذين سيجدون ضلال فعلهم حينما كانوا يسخرون من المؤمنين وينتقصونهم ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف:١٢٨).

ولكي نزداد ثباتاً وتمسكاً بالدين علينا ان نلتفت إلى أن هؤلاء المستهزئين ليسوا مقتنعين بما يقولون فينا ويعلمون أنه باطل وافتراء مثلاً قريش كانت تصف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنه الصادق الأمين وتضع عنده الأشياء الثمينة أمانات وما وجدت له كذبة قط، ولكن ما إن دعاهم إلى التوحيد ونبذ عبادة الأصنام التي منها مصالحهم الدنيوية حتى وصفوه بأنه ساحر مرتد مثير للفتنة كذاب إلى آخره، وكذلك الفسقة والعصاة فإنهم يعلمون أن ما عليه المتدينون صواب وسمو وكمال وفضيلة حتى أن المجتمع يسمي المتدين (خيِّر) وهي صيغة مبالغة من الخير أي ان المؤمن كله خير ولا يتوقع منه الا الخير، إذن ما الذي نقموا من المؤمنين حتى عابوهم وسخروا منهم واستهزؤا بهم، يشرح لنا الإمام الصادق (عليه السلام) السبب في ما رواه يعقوب بن شعيب – وهو حفيد الشهيد ميثم التمار رضوان الله تعالى عليه – عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ (عليه السلام) مَنْ أَشَدُّ النَّاسِ عَلَيْكُمْ، قَالَ قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ كُلٌّ «(أي كل الناس شديدون علينا ومبغضون لنا» قَالَ: أَتَدْرِي مِمَّ ذَاكَ يَا يَعْقُوبُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا أَدْرِي جُعِلْتُ فِدَاكَ، قَالَ (عليه السلام): إِنَّ إِبْلِيسَ دَعَاهُمْ فَأَجَابُوهُ وَأَمَرَهُمْ فَأَطَاعُوهُ وَدَعَاكُمْ فَلَمْ تُجِيبُوهُ وَأَمَرَكُمْ فَلَمْ تُطِيعُوهُ فَأَغْرَى بِكُمُ النَّاسَ)[1].

إذن إنه الحسد وعقدة الحقارة والصغار امام المؤمنين وفقدانهم الإرادة

(١) الكافي: ج٨/ ص١٤١ (الروضة)، ح ١٠٥.

والشجاعة للإرتقاء والتكامل حتى يكونوا مثلهم فيتخذون كل وسيلة قذرة للإيقاع بالمؤمنين وإفسادهم حتى ينزلوهم الى الحضيض الذي هم فيه.

فيكون ردّنا عليهم بمزيد من الثبات والاستقامة والبصيرة حتى يحصل عندهم اليأس من أن يسلبونا هذه الجوهرة الثمينة التي حبانا الله تعالى بها أعني الايمان بالله تعالى كما ورد في الرواية المتقدمة (وأكمدوا عدوكم بالورع) وأن ننظر إليهم كمرضى مصابين بالأمراض المعنوية فيستحقون منا الشفقة والنصح والرعاية والتوجيه وتصحيح الأفكار ونحن أهلها لأننا على الحق ونمتلك الأدلة القوية ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ (الأنعام:١٤٩).

وعلينا أن نكون واثقين بأنفسنا شجعاناً ولا تهزمنا الاشاعات والافتراءات والتسقيط الإعلامي ولا نكون كبعض الذي يرفعون عناوين إسلامية لكنهم ينهزمون في هذه الحالات خوفاً على دنياهم البائسة.

القبس/١٧٦

سورة الزمر:﴿٣٠﴾

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾

موضوع القبس: دروس وعبر من وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله)

خطاب موجه الى النبي (صلى الله عليه وآله) ولجميع البشر استعمل فيه لفظ الفعلية بصيغة الصفة المشبهة (ميّت) رغم انهم مازالوا أحياء ولم يقل انك ستموت لافادة التحقق القطعي وانهم صائرون اليه لا محالة، قال تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران:﴿١٨٥﴾).

ان الموت لا يعني الفناء بل التحرر من البدن والانتقال من عالم الدنيا الى عالم الاخرة الذي ستكون فيه الحياة الحقيقية ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ (العنكبوت:﴿٦٤﴾) وستظهر للإنسان حينئذ حقيقة ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ (العنكبوت:﴿٦٤﴾)، وسيندم على عدم اخذه من حياته الدنيا الزائلة ما ينفعه في تلك الحياة الباقية ويقول ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر:﴿٢٤﴾)، وقوله هذا اعتراف صريح بأن الاخرة هي الحياة ولكنه لم يقدم لها شيئاً.

وقد عقدنا هذا القبس لبيان دلالات موت رسول الله (صلى الله عليه وآله) وآثاره، منها:

الأول: كانت وفاته (صلى الله عليه وآله) شهادة من الله تعالى على أن البقاء لله وحده قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (الزمر:﴿٣٠﴾) وقال الإمام الحسين (عليه السلام) ليلة

عاشوراء لأخته العقيلة زينب (عليها السلام): (إن أهل الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون)[1] ولو استحق أحد أن يبقى لكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأنه أكمل الخلق وأفضلهم وجعل الكون بما فيه طوع إرادته وهو عند الله تعالى أكرم من نبيه سليمان بن داود الذي قال فيه أمير المؤمنين (عليه السلام): (ولو أن أحداً يجد إلى البقاء سلّماً، أو لدفع الموت سبيلاً، لكان ذلك سليمان بن داود (عليه السلام)، الذي سُخّر له مُلك الجن والإنس، مع النبوة وعظيم الزلفة. فلما استوفى طُعمته، واستكمل مدّته، رمَته قِسيُّ الفناء بنبال الموت، وأصبحت الديار منه خالية والمساكن معطّلة، وورثها قومٌ آخرون)[2] وفي ذلك موعظة للخلق جميعاً.

الثاني: هوان الدنيا على الله تبارك وتعالى حين يُخليها من رسول الله (صلى الله عليه وآله) فما قيمتها بدونه (صلى الله عليه وآله) فأصبحت الدنيا بفقده مظلمة، والآخرة بنوره مزهرة، وفي ذلك عبرة لمن تطمح عينه إلى الدنيا ويجعلها هدفاً لحياته، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (ولقد كان في رسول الله (صلى الله عليه وآله) كافٍ لك في الأسوة، ودليل لك على ذم الدنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساويها، إذ قُبضت عنه أطرافها، وَوُطِّئت لغيره أكنافها، وفُطمَ عن رضاعها، وزوي عن زخارفها) (فتأسَّ بنبيِّك الأطيب الأطهر (صلى الله عليه وآله) فإن فيه أسوةً لمن تأسّى، وعزاءً لمن تعزّى. وأحبُّ العباد إلى الله المتأسّي بنبيه والمقتصّ لأثَره) (عُرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها، وعلمَ أن الله سبحانه أبغضَ شيئاً فأبغضه، وحقَّر شيئاً فحقّره، وصغّر شيئاً فصغّره. ولو لم يكن فينا إلا حبُّنا ما أبغضَ اللهُ ورسولُه وتعظيمُنا ما صغّرَ اللهُ ورسولُه، لكفى به شقاقاً لله،

(١) الارشاد للمفيد: ٩٤/٢.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢، ص٢٦٢، شرح د. صبحي الصالح، بيروت ١٩٦٧م.

ومحادَّةً عن أمر الله)[١].

الثالث: انقطاع جملة من البركات كانت مرتبطة بشخصه المبارك ووجوده بين الناس (منها) الوحي المباشر الذي كان ينزل عليه (صلى الله عليه وآله) (ومنها) ارتفاع ألوان من العذاب، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال:٣٣) وورد في أخبار الفريقين أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال:(أنزلَ الله عليَّ أمانين لأمتي: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة)[٢] ومع ذلك فإن خيره وبركاته متواصلة حتى بعد وفاته، عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): مقامي بين أظهركم خير لكم فإن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ ومفارقتي إياكم خير لكم. فقالوا:يا رسول الله مقامك بين أظهرنا خير لنا فكيف يكون مفارقتك خير لنا؟ فقال:أما مفارقتي لكم خير لكم فإن أعمالكم تعرض علي كل خميس واثنين فما كان من حسنة حمدت الله عليها، وما كان من سيئة أستغفر الله لكم)[٣].

الرابع: انفتاح باب الظلم والعدوان على آل بيت النبي (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) وقد قال (صلى الله عليه وآله) لأهل بيته: (أنتم المستضعفون بعدي)[٤] وحصل

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠، ص٢٢٦-٢٢٨.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، في ذيل الآية ٣٣ من سورة الأنفال.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ٨٦/٩.

(٤) بحار الأنوار: ٤٦٩/٢٢ عن كتاب (إعلام الورى بأعلام الهدى: ١٤٠-١٤٣. والإرشاد: ٩٦-١٠٠. وأورد الحديث الشيخ الصدوق في عيون أخبار الرضا: ٧٢/٢/ باب٣١/ ح٣٠٣.

ما حصل على دار علي وفاطمة (صلوات الله عليهما وآلهما) - لذا لا يكاد ينفك الحديث عن وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) من الحديث عما تعرضت له الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام)- مخالفين بذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى:٢٣) ووصايا نبيه الأكرم (صلى الله عليه وآله) الكثيرة.

الخامس:الانقلاب على الأعقاب ومخالفة وصية رسول الله (صلى الله عليه وآله) في أمير المؤمنين (عليه السلام) بالإمامة والخلافة، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٤) وهذه أهم قضية بلّغها رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأدّاها عن ربه بنص القرآن الكريم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٧).

وكل واحد من هذه الأمور يستحق أن نطيل الوقوف عنده والتأمل فيه، ولكن الوقت لا يسع لذلك فنقتصر على الأخير لأهميته.

إن قضية الإمامة والخلافة أعظم قضية في الإسلام فهي مفتاح كل خير لو أن الأمة اهتدت إليها وأخذت بها، ومفتاح كل شرّ - والعياذ بالله- من سفك دماءٍ وتخريب ديار وانحرافٍ عن الدين، عندما يتخلفون عنها، وقد كان النبي (صلى الله عليه وآله) بدأ التصريح بها والدعوة إليها منذ أيام الإسلام الأولى عندما نزلت الآية الشريفة ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤) فقد روى الفريقان أن النبي (صلى الله عليه وآله)

جمع بني عبد المطلب وكانوا أربعين رجلاً ودعاهم إلى الإيمان ومؤازرته واختار علياً ليكون وصيه وخليفته[١] ثم والى (صلى الله عليه وآله) الإعلان والتبليغ بها حتى دعاه الله تبارك وتعالى إلى إكمال الدين وإتمام النعمة بإلزام المؤمنين بولاية علي بن أبي طالب (عليه السلام) في غدير خم قبل وفاته (صلى الله عليه وآله) بشهرين وعشرة أيام، لكن بعض الصحابة ولأسباب معلومة نكثوا البيعة، وعندما حاول (صلى الله عليه وآله) تأكيدها قبل وفاته بأربعة أيام أي يوم الخميس الذي سبق وفاته يوم الاثنين حصل لغط وخلاف بين الصحابة فقال (صلى الله عليه وآله) لهم: قوموا، ثم أوصى أهل بيته بالاستعداد للبلاء واتخاذ الصبر جلباباً، هذه الحادثة التي أطلق عليها عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن: (رزيّة يوم الخميس)[٢] لأنها أساس المصائب والانحراف عن خط الرسالة.

الانحراف الذي –كأي خط مائل عن الصراط المستقيم- يزداد بعداً كلما تقدم الزمن فبدأت عُرى الإسلام تُنقَض، ومقدساته تنتهك ولم تبق حرمة له حتى آلت الخلافة إلى أناس يقتلون أولاد النبيين ويحرقون الكعبة ويشربون الخمر ويفعلون المنكرات جهاراً على منابر المسلمين، ونشأت أجيال من المسلمين لا تفقه من أحكام الإسلام شيئاً لأن الناس على دين ملوكهم، ولا سبيل للوصول إلى الأئمة الهداة الحقيقيين فهم معتقلون ومعذبون ومحاصرون، وكان الداخلون الجُدد في الإسلام من الأمم التي غزاها المسلمون لا يرون من الإسلام إلا ما يظهر على سلوك الأمراء، ولولا جهاد وجهود الأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) والثلة

(١) الميزان في تفسير القرآن: ذيل تفسير الآية ٢١٤ من سورة الشعراء.

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ٣٠/ ٥٣٦.

المباركة من أصحابهم لما بقي للدين عين ولا أثر[١] كأبان بن تغلب الذي قال فيه الإمام الصادق (عليه السلام) لما بلغه موته: (لقد اوجع قلبي موت أبان)[٢]، وقال (عليه السلام) في بعض أصحابه كزرارة ومحمد بن مسلم وغيرهم (حم الله زرارة بن أعين، لولا زرارة ونظراؤه لاندرست أحاديث أبي (عليه السلام))[٣].

وكان لهذا الانقلاب على وصية رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مستحقي الإمامة والخلافة من بعده وإقصاء القادة الحقيقيين للأمة آثار[٤] كارثية وويلات عظيمة على الأمة:

منها: تصدي غير المؤهلين للخلافة بل الفاسدين من بني أمية وبني العباس وأضرابهم مما أدى إلى:

١- تشوّه صورة الإسلام نفسه لأن أي دين أو نظام أو آيديولوجية تُقيَّم من خلال سلوك القائمين عليها لعدم التفكيك بين النظرية والممارسة والتطبيق، فلما يتصدى للحكم باسم الإسلام قتلةٌ ومجرمون وفاسدون فإنهم يشوّهون صورته.

٢- طمع أعداء الإسلام في الكيد له واستئصال قواعده وتعاليمه حيث وجدوا لهم منفذاً بل حظوة لدى أولئك المتسلطين الجبابرة.

٣- ضياع مقاييس ومعايير الاستحقاق لهذا المنصب العظيم فأصبحت هدفاً

---

(١) أنظر: وسائل الشيعة (آل البيت): ١٤٢/٢٧.

(٢) رجال النجاشي: ١٠، الفهرست للشيخ الطوسي: ٥٧.

(٣) وسائل الشيعة (آل البيت)- الحر العاملي: ٢٧/ ١٤٣/ ح ٢٠.

(٤) تجد تفصيل هذه النقاط في قبس قوله تعالى: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ (آل عمران:١٤٤)، في تفسير من نور القرآن.

لكل الطامعين في السلطة والحكم ولو بالقهر والسيف ما دام الحكم لمن غلب.

ومنها: ابتداع وسائل من صنع الإنسان للوصول إلى التشريعات كالقياس والشورى وأمثالها لابتعادهم عن مصادر التشريع الأصلية ولحاجتهم إلى قوانين تؤصّل لسلطتهم وتعطيهم الشرعية، لذا تبدلت الأحكام وصارت القوانين التي تحكم الحياة وضعية وليست إلهية.

ومنها: عرقلة تربية البشرية وتكاملها، لأن المعلم يجب أن يكون عالماً والواعظ متّعظاً والمصلح صالحاً فكيف يربي الأمة من يتبع هواه ويطلق لنفسه الأمارة بالسوء العنان وقد جعل الشيطان ولياً له من دون الله العظيم فافتقدت الأمة الأسوة الحسنة والمربي الصالح الحنون إلا القليل ممن اهتدى إلى الحق ورزقه الله اتباعه، وعلى العكس من ذلك فقد شجعت تلك السلطات الفساد والانحراف وكانت تمارسه علناً وتوفّر أسبابه.

ومنها: تمزّق الأمة وتشتتها إلى فرق وأحزاب وطوائف متناحرة يستحل بعضهم دماء البعض الآخر ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (المؤمنون:٥٣) ولم يلتفتوا إلى وصية الله تبارك وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران:١٠٣) وقوله تعالى: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال:٤٦) وقد فسّرت الأحاديث الشريفة حبل الله بالقرآن الكريم وعترة النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته[1].

ومنها: انحسار دور الدين عن التأثير في حياة الأمة، فبعد أن كانت رسالته تنظيم

(١) أنظر: تفسير العياشي: ١٩٤/١.

شؤون الحياة كلها اقتصر أثره على عدد من المتدينين من خلال طقوس وعبادات يؤدونها، وقد عمل الطغاة على ذلك لأنهم يعلمون أن إعطاء دور شامل للدين يعني الحاجة إلى الرجوع إلى القيّمين الحقيقيين عليه مما يعني خسارة الحكام الجائرين لسلطتهم ومواقعهم فقرروا عزل الدين ليعزلوا أئمته والأدلاّء عليه.

ومنها: تأخر ركب الحضارة الإنسانية، لأن أوصياء النبي (صلى الله عليه وآله) كان لديهم كل ما تحتاجه البشرية من علوم وقد احتوت المصادر على نظريات علمية في الفيزياء والفلك والرياضيات والفسلجة والكيمياء والطب وغيرها لأئمة أهل البيت (عليهم السلام) (راجع كتاب قضاء أمير المؤمنين (عليه السلام) وتوحيد المفضّل ورسائل جابر بن حيّان في الكيمياء) فلو أُتيحت الفرصة لأئمة أهل البيت (عليهم السلام) لإظهار علومهم وثنيت لهم الوسادة، لما احتجنا إلى أربعة عشر قرناً لنصنع الطائرة والكومبيوتر والإنسان الآلي والتكنولوجيا النووية وغيرها مما يضمن للبشرية حياةً أفضل وأهنأ وأسعد.

وعلى أي حال فقد كانت خسارتنا برسول الله (صلى الله عليه وآله) عظيمة بعظم النتائج التي حصلت بوفاته (صلى الله عليه وآله) فما أصيبت البشرية بمثل رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعلى مثله فليبك الباكون وليندب النادبون:

أنسَتْ رزيّتُكم رزايانا التي سلفتْ وهوّنت الرزايا الآتية[1]

(١) بيت من قصيدة مطولة للشيخ عبد الحسين الأعسم، أنظر أدب الطف- السيد جواد شبر: ٢٨٩/٦.

القبس/١٧٧

سورة الزمر:﴿٥٤﴾

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾

موضوع القبس: دعوة إلى الرجوع إلى الله تعالى والانقياد له

هذه وصية من ربكم أوصلها إليكم من خلال رسالته العظيمة إلى الناس، أعني القرآن الكريم وهو مليء بالموعظة لأنه كتاب هداية وصلاح وحياة للقلوب والموعظة أهم ادواتها، ومنها هذه الآيات الكريمة في سورة الزّمر الحافلة بهذه المواعظ وهي تحذّر من عاقبة الافعال السيئة. وتتضمن الوصية حركتين:

الأولى: قوله تعالى ﴿وَأَنِيبُوا﴾ أي ارجعوا عن ذنوبكم واخطائكم وغيّروا طريقة حياتكم البعيدة عن الله تعالى ولا تغرّنكم الحياة الدنيا بشهواتها واطماعها وزخارفها فأنها كلها أوهام زائلة، وعودوا ﴿إِلَى رَبِّكُمْ﴾ واختيار هذا الوصف للتذكير بصفة الربوبية والرعاية والتربية والتنشئة من عالم إلى عالم ومن حال إلى حال.

وباب التوبة هذه والرجوع إلى الله تعالى مفتوحة لكل أحد مهما عظم ذنبه وقد أطلقت الآية السابقة هذه الحقيقة لتفتح الباب على مصراعيه امام الجميع ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:٥٣) فهذه الانابة والتوبة هي الخطوة الأولى وهي ممهدة للتالية.

الثانية: ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أي اطيعوا ربّكم وانقادوا لأحكامه ولا تجعلوا لغيره نصيباً في قلوبكم ولا تأثير لغيره في افعالكم سواء كان هذا الغير الذي تطيعونه وتتبعونه هي انانيتكم وأهواءكم واطماعكم أو اعرافكم الاجتماعية أو العشائرية أو الرموز التي تتبعونها أو الجماعات والأحزاب التي تنتمون اليها وغير ذلك.

هاتان الخطوتان تضمنان لكم السعادة والفوز والنجاة من عذاب معصية الله تعالى والتمرد على طاعته والابتعاد عن دينه فبادورا اليهما الآن وفي هذه اللحظة لأن المستقبل غير مضمون والموت يأتي بغتة وبشكل مفاجئ ولا يعلم وقته الا الله تعالى.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ لأن الانسان اذا لم يتدارك أمره ويعود إلى ربه فانه قد حكم على نفسه بالشقاء والتعاسة وعندما يموت يغلق عليه باب العمل، ويحرم من الفرص الكثيرة التي اتاحها الله تعالى له.

﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ لا ينصركم شيء مما كرستم له حياتكم من مال أو أولاد أو منصب أو جاه أو اتباع أو غير ذلك ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ (البقرة:١٦٦).

ولا ينفع الندم وتمني العودة والرجوع ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ (الفرقان:٢٧) من وصية النبي (صلى الله عليه وآله) لأبي ذر (رضوان الله تعالى عليه) (يا أبا ذر اغتنم خمسا قبل خمس:شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل

موتك)[1] ومن كلام لأمير المؤمنين (عليه السلام) في المبادرة إلى التوبة والعمل الصالح (أيها الناس! الآن الآن ما دام الوثاق مطلقاً ـ أي الحياة وفرصة العمل موجودة ـ والسراج منيراً، وباب التوبة مفتوحاً، من قبل أن يجفَّ القلم وتُطوى الصحف، فلا رزق ينزل، ولا عمل يصعد، المضمار اليوم والسباق غداً وانكم لا تدرون إلى جنة أو إلى نار !!! وأستغفر الله لي ولكم)[2].

ثم تبيّن الآية التالية ما أجملته الآية السابقة ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ (الزمر:٥٥) وهو هذا القرآن العظيم الذي فيه تبيان كل شيء فعليكم العمل به وتدبر معانيه واتخاذه هادياً ومرشداً وقائداً ولكن عقولنا تقصر عن الإحاطة بتفاصيله فيأتي دور كلام المعصومين (عليهم السلام) في بيانه.

وتتكرر المطالبة بالمبادرة والمسارعة واغتنام الفرصة قبل فواتها ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (الزمر:٥٥) فإن باب التوبة قد يغلق ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ (غافر:٨٥).

وحينئذٍ لا ينفع الندم ولا الحسرة ولا التأسف لأن هذه الحقيقة قد بيّنها الله تعالى للناس وحذرهم منها فلا عذر لهم ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ (الزمر:٥٦) في كل ما يرتبط بالله تعالى من دين وأئمة وقادة هداة، وسيندم على استخفافه واستهزائه بهذا كله ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ

(١) مكارم الاخلاق للطبرسي: ٦٢٦.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي: ٦٨٦.

السَّاخِرِينَ﴾ (الزمر:٥٦) فقد كان يسخر ممن يدعوه إلى الله تعالى ويسخّف كلامه ويتهم دعوته بأنواع الأوصاف المنفرّة، فاذا طلبت منهم، إقامة شريعة الله تعالى والالتزام بقوانينها عارضوك ووصفوها بأنها رجعية وتخلّف أو أن الوقت غير مناسب لتطبيقها، لاحظوا معي هذا المشهد لهم يوم القيامة ﴿وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنعام:٢٧).

فكل إعراض عن الشريعة وصدٌّ عنها وعن العمل بها هو تفريط في جنب الله تعالى، وكل نكران لنبوة النبي (صلى الله عليه وآله) وإمامة آله الكرام هو تفريط في جنب الله ففي الكافي بسنده عن موسى بن جعفر (عليهما السلام) (جنب الله أمير المؤمنين)[١]، وفي بصائر الدرجات عن أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول (أنا عين الله، وأنا جنب الله، وأنا يد الله، وأنا باب الله)[٢] وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (انا شجرة من جنب الله فمن وصلنا وصله الله)[٣] وفي المناقب بسنده عن ابي ذر في خبر عن النبي (صلى الله عليه وآله) (يا ابى ذر يؤتى بجاحد علي يوم القيامة أعمى أبكم يتكبكب في ظلمات يوم القيامة ينادي ﴿يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ وفي عنقه طوق من نار)[٤].

فالله تعالى يدعونا دائماً إلى تذكر هذه الحقائق ونحن في هذه الدنيا

---

(١) الكافي: ج١/ ص١٤٥.

(٢) بصائر الدرجات: ١٩.

(٣) بصائر الدرجات: ١٩.

(٤) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٦٤.

لنستطيع معالجة الخلل وتدارك التقصير قبل فوات الأوان، ورد في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله) (أكثروا من ذكر هادم اللذات، فأنكم إن كنتم في ضيق وسعه عليكم فرضيتم به فأثبتم، وإن كنتم في غنى بغضّه اليكم فجُدتم به - أي أنفقتم منه - فأُجِرتم، ألا إن المنايا قاطعات الآمال، والليالي مدنيات الآجال، وان المرء عند خروج نفسه وحلول رمسه يرى جزاء ما قدَّم وقلة غنى ما خلَّف، ولعله من باطل جمعه ومن حق منعه)[1].

إن هذه الآيات الكريمة فيها قانون عظيم لإصلاح المجتمع بفتحه باب العودة إلى الصواب والاندماج في المجتمع من جديد مهما كان خطؤه عظيماً، لأن كثيراً ممن يرتكبون مثل هذه الأخطاء يفقدون الأمل ويظنون ان باب التوبة اغلق في وجوههم فيقدمون على الانتحار للتخلص من آلام تأنيب الضمير أو يندفعون نحو الجريمة أكثر لإسكات صوت الضمير وإماتته، وما يريده الله تعالى من الانسان اعترافه بخطئه ورجوعه عنه إلى طاعة الله تعالى، وسيقبله ويمحو ما سبق منه.

أيها المؤمنون الموالون للصديقة الطاهرة فاخمة الزهراء (عليها السلام)[2]

لقد ارادت السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) بقيامها المبارك أن تعيد الأمة إلى رشدها وأن تعمل بهذه الوصية من ربها لأنهم ارتكبوا اثماً عظيماً بانقلابهم على اعقابهم ومخالفتهم لنبيّهم وعصيانهم لإمامهم وأسسّوا خطاً باطلاً منحرفاً ويزيد

(١) ارشاد القلوب: ٤/١.

(٢) ألقي القبس على التجمع الحاشد في ذكرى استشهاد فاطمة الزهراء (عليها السلام).

ابتعاده عن الحق كلما مرّ عليه الزمن، تأملوا في قولها سلام الله عليها (وكيف بكم وانى تؤفكون وكتاب الله بين اظهركم، اموره ظاهرة واحكامه زاهرة واعلامه باهرة وزواجره لائحة وأوامره واضحة، وقد خلّفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تريدون؟ ام بغيره تحكمون؟ بئس للظالمين بدلا ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران:٨٥) (أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟! أفلا تعلمون؟)[1].

وتذكّر الأمة بأن الانابة إلى الله تعالى والإسلام له يتحققان بطاعة ولي الأمر الذي فرض الله طاعته، قالت (عليها السلام) (أما والله لو تركوا الحقّ على أهله، واتبعوا عترة نبيّه، لما اختلف في الله اثنان، ولورثها سلف عن سلف، وخلف بعد خلف، حتّى يقوم قائمنا التاسع من ولد الحسين (عليه السلام).. ولكن قدّموا من أخّره الله، وأخّروا من قدّمه الله، حتّى إذا ألحدوا المبعوث - أي دفنوا النبي (صلى الله عليه وآله)-، وأودعوه الجدث المجدوث، اختاروا بشهوتهم وعملوا بآرائهم، تبّاً لهم! أوَلم يسمعوا الله يقول ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ (القصص:٦٨) بل سمعوا ولكنّهم كما قال الله سبحانه ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج:٤٦) هيهات! بسطوا في الدنيا آمالهم ونسوا آجالهم فتعساً لهم وأضلّ أعمالهم، أعوذ بك يا ربّ من الحَوَر بعد

(١) الاحتجاج للطبرسي: ١٣١/١.

الكور)[1].

أيها الأحبَّة:

لا يمكن ان يجتمع حب فاطمة وموالاتها وطلب شفاعتها مع ما انحدر اليه المجتمع من مفاسد وانحراف وانحلال بلغ مديات غير معقولة من فساد مالي تحَّول إلى ثقافة عامة فأدى إلى تخريب مؤسسات الدولة وشمل حتى الخدمات الحيوية كالصحة والتعليم والقضاء والأمن ومن تجارة للمخدرات وادمان عليها إلى احتفالات الفسق والفجور إلى العلاقة المشبوهة بين الجنسين مما أدى إلى كثرة حالات الطلاق والانتحار، وازدادت الصراعات العشائرية التي تخلّف ضحايا وخسائر بالأموال وتغذيها أحياناً بعض الأحزاب المتنفذة للحفاظ على مصالحها الشخصية، وانتشرت الملاهي ومحلات بيع الخمور بشكل غير مسبوق وأصبحت متاحة حتى للصبيان وتمارس عملها بشكل علني وبحماية السلطة وبعض الجهات المتنفذة، والتشكيك في العقائد الحقة والثابتة بل الاستهزاء بها والدعوات إلى نبذها أصبحت علنية بلا حياء ولا مراعاة لمقدسات المجتمع وحرماته.

هل من المعقول أن يحصل كل هذا على أرض ضمت الأجساد الطاهرة لأمير المؤمنين والحسين والكاظمين والعسكريين (عليهم السلام) وفي ظل حكومات يتسيّدها الإسلاميون وتدعي الالتزام بتوجيهات المرجعية الدينية؟

وهل يمكن أن نرجو شفاعة الزهراء (عليها السلام) ونعدُّ أنفسنا من شيعتها الذين تلتقطهم يوم المحشر لتشفع لهم، ونحن نرى كل هذا الظلم والانحراف ولا

(١) موسوعة المصطفى والعترة للشاكري: ٣٦٢/٤، عن عوالم المعارف:٢٢٨/١١، والحور بعد الكور أي النقصان بعد الزيادة.

نتحرك بالشكل الكافي لمواجهته. روى الشيخ الطوسي في مجالسه بسنده قال (كان يقال:لا يحل لعين مؤمنة ترى الله يُعصى فتطرف حتى تغيّره)[١].

وقد جعلت سلام الله عليها معياراً لمن يستحق عنوان شيعة فاطمة قالت (عليها السلام) (إن كنت تعمل بما أمرناك، وتنتهي عما زجرناك عنه فأنت من شيعتنا)[٢].

ان الله تعالى يستنهض عباده المؤمنين خصوصاً النخبة العاملة الرسالية الواعية للدفاع عن المحرومين والمستضعفين الذين لا حول لهم ولا قوة الا بالله العلي العظيم[٣] ويدعوهم الى التحرك لإنقاذ إخوانهم من ضعاف الايمان والعقيدة والجاهلين بأحكام الشريعة فيرفعون عنهم الشبهات والشكوك ويعلمونهم الاحكام الدينية ويطلعونهم على سيرة المعصومين (عليهم السلام) وأخلاقهم وتعاليمهم وليغيّرون الظلم والفساد، قال تعالى ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:١٠٤).

كما يستنهضهم لدفع الظلم والحرمان والاضطهاد عن المؤمنين الذين لا حول لهم ولا قوة فيطلبون النجدة من إخوانهم ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ

(١) وسائل الشيعة: ١٦/ ١٢٥، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الباب١/ ح٢٥.

(٢) بحار الأنوار: ٦٨/ ١٥٥.

(٣) راجع قبس قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ (النساء:٧٥)، في تفسير من نور القرآن.

نَصِيراً﴾ (النساء:٧٥).

ويستنكر في أحاديث شريفة على المتقاعسين عن هذه الواجبات كالحديث المروي عن الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) (ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)[1] وعن الإمام الباقر (عليه السلام) قال (بئس القوم قوم يعيبون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وروي الإمام الرضا (عليه السلام) عن جده رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله (اذا أمتي تواكلت - أي اتكّل بعضهم على بعض فتركوا فريضته - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فليأذنوا بوقاع من الله).

أيها الأخوة والاخوات

إذن نحن بحاجة إلى أن نحيي في أنفسنا هذه الغيرة الفاطمية ونستمد من القيام الفاطمي العزم والقوة للتحرك في جميع الساحات وبكل الوسائل الفاعلة والمؤثرة للعمل بما أمرت به هذه الآية الشريفة اداءً لرسالة الصلاح ولمكافحة الفساد والانحراف والضلال والظلم أسوة بالأنبياء والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين).

(١) وما بعده وسائل الشيعة: ١٦/ ١١١-١١٨ كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باب١.

القبس/١٧٨

سورة الزمر:﴿٦٧﴾

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[1]

معنى (وما قدروا الله حق قدره):

أي ما عرفوا الله حق معرفته ولا وضعوه في المقام الذي يستحقه ولا أحسنوا فهم صفاته وأسمائه المباركة سبحانه وتعالى عما يصفون.

ففي الآية عتابٌ وتوبيخٌ لهذا التقصير في إدراك حقوق الربوبية ووظائف العبودية أمام الله تبارك وتعالى حتى أنبهم بقوله عز من قائل ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلّهِ وَقَارًا﴾ (نوح:﴿١٣﴾)، وبنفس الوقت تستبطن الآية الحث على بذل الوسع لتحصيل هذه المعرفة، مع الاعتراف بالعجز عن معرفة حق قدره، وإدراك الحقيقة الإلهية، روى في الكافي عن الفضيل بن يسار، قال: سمعت أبا عبد الله يقول: (إن الله لا يوصف، وكيف يوصف وقد قال الله في كتابه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ فلا يوصف بقدر الا كان أعظم من ذلك)[2]. وفي الدعاء المشهور عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) (**مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ وَمَا عَرَفْنَاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ**)[3]، وهذا معنى للتكبير (الله اكبر) أي أكبر من أن يوصف، وأكبر من أن يعرف قدره،

---

(١) وردت هذه الآية في سورة الانعام:﴿٩١﴾، وسورة الحج:﴿٧٤﴾، أيضاً.

(٢) الكافي: ١/ ٨٠/ ح١١.

(٣) بحار الانوار: ٧١/ ٢٣.

وإنما يقدِّر المخلوقون ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرا﴾ (الطلاق:٣).

بل نحن عاجزون عن إدراك اسمٍ من اسمائه تعالى وصفةٍ من صفاته كالمنعم، قال الله تعالى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (النحل:١٨)، روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: (أوحى الله تعالى الى موسى (عليه السلام): يا موسى اشكرني حقَّ شكري، فقال: يا ربِ كيف أشكرك حقَّ شكرك، وليس من شكرٍ أشكرك به الا وأنت أنعمت به عليَّ؟ فقال: يا موسى شكرتني حق شكري حين علمت أن ذلك مني)[1] وهذا فضلٌ من الله تعالى وكرمٌ حين جعل الاعتراف بالعجز أداءً للحق، فإذا كنّا عاجزين عن استيعاب وادراك اسم من اسمائه فكيف نقدر على معرفته حق المعرفة سبحانه وتعالى.

معنى الزجر والتوبيخ في الآية:

فالاستغراب والزجر والتوبيخ ليس من عدم معرفة الخلق للخالق حق معرفته، لانهم عاجزون عن بلوغ ذلك، ولكن الاستغراب والتوبيخ من عدم سعيهم لتحصيل المعرفة بالمقدار الممكن لهم أولا ولاستكبارهم على ربّهم مع هذا العجز ثانياً.

﴿وَمَا قَدَرُوا﴾ شاملة لكل الناس فكل الناس ما قدروا الله حَقَّ قدره، وكان النبي وأهل بيته (صلوات الله عليهم اجمعين) الذين نخاطبهم بوصف (...**مَحالِّ مَعْرِفَةِ الله... وَالتَّامِّينَ فِي مَحَبَّةِ الله**...)[2] اكثر الناس اقراراً بالعجز عن معرفة الله

(١) ميزان الحكمة: ٤/ ٤٧٣.

(٢) مفاتيح الجنان- زيارة الجامعة الكبيرة: ٦٢٢.

تعالى كما تقدم في دعاء النبي (صلى الله عليه وآله)، لأن الانسان كلما ازداد معرفة ازداد ادراكاً لقصوره وتقصيره في معرفة كنهه سبحانه وتعالى، فيزداد في خضوعه وتذلله لله تعالى، وانما يستكبر الجاهل ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (الإسراء:٤٣)، نعم كما أن الناس على درجات متصاعدة في تعظيم قدر الله تعالى كذلك هم على درجات متسافلة في عدم إعطاء الله تعالى حق قدره.

فبعض الذين ما قدروا الله تعالى حقَّ قدره أنكر وجوده تعالى وبعضٌ أشرك به غيره بل قدّموا غيره تعالى عليه فعبدوا الغير من دون الله تعالى فهؤلاء ما قدروا ربوبيته والوهيته حق قدرها وهم اكثر الناس انحطاطاً وجهلاً، وبعض أنكر وحيه وبعثة الانبياء والرسل وانزال الكتب فهؤلاء ما قدروا لطفه ورحمته وحكمته وعلمه حق قدرها هذه الاسماء الحسنى التي تقتضي بعث الانبياء والرسل اذ ان الله تعالى يعلم ان الانسان عاجز عن الوصول بمفرده الى الكمال والسعادة ما لم يهده الله تعالى ببعث الانبياء وانزال الكتب، وان رحمته بعباده وحكمته تقتضيان ذلك ولا بخل في ساحته فكيف ينكرون بعث الانبياء والرسل.

وبعض أنكر المعاد يوم القيامة، فهؤلاء ما قدروا عدله وقدرته حق قدرها وبعض انكر صفاته وأسماءه كالقدرة على تدبير الكون والغلبة على اعدائه، وقد ورد هذا النص القرآني في عدة مواضع بلحاظ هذه الجوانب المتعددة لعدم تقدير الله تعالى حق قدره قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر:٦٧).

وقال تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج:٧٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الانعام:٩١) فينزّه الله تعالى نفسه عن هذه الأباطيل ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النحل:١)، اذ حق قدره ان يوحَّد في الوهيته وربوبيته وفي انه المبدأ واليه المعاد وله ما بينهما، وننزهه عن كل نقص وانه لا يشبهه شيء (**وَتَنَزَّهَ عَنْ مُجانَسَةِ مَخْلُوقاتِهِ**)[1].

الهيمنة اللا محدودة:

وتذكر الآية في سورة الزمر مظهراً من مظاهر قدرته فالسماوات والأرضون كلها في قبضته وتحت هيمنته اللامحدودة كما أن الورقة حينما تُطوى تكون في القبضة فهو تعبير عن التسلط التام على السماوات والأرضين، وهو كذلك في الدنيا وليس في الآخرة فقط، لكن الفرق أنه تعالى في الدنيا خَوّل عباده ببعض الملك وأنحاء التصرفات، لكن الإنسان يأتي في الآخرة مجرداً عن كل ذلك ﴿تَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ﴾ (الأنعام:٩٤).

المؤمنون ما قدروا حق ربهم:

وننتقل الآن الى دائرة أضيق من الذين ما قدروا الله حق قدره وهم المؤمنون

(١) مفاتيح الجنان- دعاء الصباح: ٩٣.

بالله تعالى فإنهم أيضا ما قدروه حق قدره بأشكال عديدة، أوضحها ارتكاب الذنوب والمعاصي فإن فيها استخفافاً بحقوق الربوبية، روى إسحاق بن عمار عن الإمام الصادق (عليه السلام)حديثاً جاء فيه: (يا إسحاق خَفِ الله كأنك تراه فإن كنت لا تراه فإنه يراك، فإن شككت أنه يراك فقد كفرت وإن أيقنت أنه يراك ثم بارزته بالمعصية فقد جعلته أهون الناظرين اليك)[1].

من أشكال (ما قدروا الله حقّ قدره):

ومن أشكال ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ عدم مراعاة حقّ من أمر الله تعالى بمراعاة حقه، كالنبي(صلى الله عليه وآله) والأئمة المعصومين (عليهم السلام) والحجج من بعدهم، وفي موارد كثيرة اخرى وردت في الروايات.

كقوله (عليه السلام): (ومن لم يوقّر القرآن فقد استخف بحرمة الله)[2]، ومن مصاديق عدم توقير القرآن نبذ احكامه والعمل بالقوانين الوضعية التي يصنعها البشر.

وقوله (عليه السلام): (الا ومن استخف بفقيرٍ مسلمٍ فقد استخف بحق الله والله يستخفُّ به يوم القيامة إلا أن يتوب)[3].

وفي الحديث القدسي قوله تعالى: (يا موسى إن من إعظام جلالي إكرام عبدي الذي أنلتُهُ حظاً من حطام الدنيا عبداً من عبادي مؤمناً قَصُرَتْ يدُهُ في

(١) بحار الانوار: ٥/ ٣٢٣، عن ثواب الاعمال ورجال الكشي وقضاء حقوق المؤمنين.

(٢) بحار الأنوار: ٨٩/ ١٩/ ح١٨.

(٣) بحار الأنوار: ٦٩/ ٣٨/ ح ٣٠.

الدنيا، فإن تكبّر عليه فقد استخف بعظيم جلالي)[1].

ومن أشكال ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الاعتقاد بأن الاسباب المخلوقة هي المؤثرة من دون الله تعالى كقول البعض (لولا فلان لما حصل كذا)، ومنها طاعة المخلوقين في غير ما امر الله تعالى به، أو تطبيق القوانين الوضعية في الحياة وترك القوانين الالهية وهكذا. وآية سورة الحج صريحة في ذلك فقد سبقها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج:٧٣) فلا فرق بين من كان في الأزمنة السابقة يعبد الأصنام طمعاً في منفعة أو دفعاً لمضرةٍ بحسب اعتقاده وبين من يلتجئ اليوم الى المخلوقين من دون الله تعالى لنفس الغرض مهما كانت القوة والقدرة الموجودة عند المخلوقين كأمريكا التي يسمونها (القوة العظمى) أو أي دول أو شخصيات متفرعنة اخرى ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ فهؤلاء كلهم ما قدروا الله حق قدره ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فالعزة والقدرة والعظمة لله تبارك وتعالى.

علاقة غير منصفة مع الله تعالى:

تتناول بعض الأحاديث القدسية هذه العلاقة غير المنصفة بين الناس وخالقهم، روى الإمام الرضا (عليه السلام) أن أباه (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يقول الله تبارك وتعالى يا بن آدم ما تنصفني أتحبّب اليك بالنعم، وتتمقّت اليّ بالمعاصي، خيري اليك نازل وشرك اليّ صاعد ولا يزال ملك كريم يأتيني عنك

(١) بحار الأنوار: ٢٣/ ٢٦٧/ ح١٢.

في كل يوم وليلة بعمل قبيح يا بن آدم لو سمعت وصفك من غيرك وأنت لا تعلم من الموصوف لسارعت الى مقته)[1].

وقد سجَّل الإمام السجاد (عليه السلام) هذا المعنى في دعائه الجليل لليالي شهر رمضان المبارك المروي عن طريق أبي حمزة الثمالي وفيه: (**تَتَحَبَّبُ إِلَيْنا بِالنِّعَمِ وَنُعارِضُكَ بِالذُّنُوبِ خَيْرُكَ إِلَيْنا نازِلٌ وَشَرُّنا إِلَيْكَ صاعِدٌ وَلَمْ يَزَلْ وَلايَزالُ مَلَكٌ كَرِيمٌ يَأْتِيكَ عَنّا بِعَمَلٍ قَبِيحٍ فَلا يَمْنَعُكَ ذِلِكَ مِنْ أَنْ تَحُوطَنا بِنِعَمِكَ وَتَتَفَضَّلَ عَلَيْنا بِآلائِكَ، فَسُبْحانَكَ ماأَحْلَمَكَ وَأَعْظَمَكَ وَأَكْرَمَكَ**)[2].

هذا النقص والتقصير في معرفة الله تعالى بسبب الجهل أو التعصب أو اتبّاع الهوى أو التلقّي من وسائل غير صحيحة وبأدوات غير طاهرة يأخذه الإنسان الى يوم القيامة أيضاً ويجادل فيه ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف:٥٤) فيريد أن يعرف ربه من خلال تلك القنوات المعرفيّة المشوّهة المملوءة بالشوائب، أي يفصّل له رباً على طبق معتقداته المستندة الى الأوهام التي ذكرناها آنفاً فلو تجلى له ربه بما يليق بقدسه وجلاله فانه ينكر ربه لانه يريد رباً يصوره هو ويعرفه هو ويتناغم مع هواه، مثلاً كان في الدنيا يتعصب لشخص او جهة او كان يؤمن بعقيدة معينة او باتجاه ما واخبره ربه في الاخرة ان محبوبه الذي يتعصب له وهم باطل فانه سيقول له انت لست ربي حقيقة، ولو كنت ربا حقا لقلت لي ان هذا

(١) بحار الانوار: ٧٧/ ١٩/ ح٢، عن عيون اخبار الرضا: ٢/ ٢٨.

(٢) مصابيح الجنان: ٥٤٩/ دعاء أبي حمزة الثمالي.

الشخص او العقيدة او الحالة حق[١]، فهم يحكمون على الله تعالى بما عندهم من غث وسمين وليس العكس بأن يحكّموا الله تعالى فيما عندهم، والاول هو الذي يسميه بعض أهل المعرفة بالرب المقيد بتصوراتنا واوهامنا، والثاني بالرب المطلق الذي لا تحددّه اوهامنا وعقولنا واهواؤنا وهو الاعتقاد الصحيح، وقد وضع أمير المؤمنين قاعدة في ذلك بقوله: (إنّ دينَ اللّهِ لا يُعرَفُ بِالرّجالِ، بَل بِآيَةِ الحَقّ؛ فَاعرِفِ الحَقّ تَعرف أهلَهُ)[٢].

وتوجد رواية عاميّة يظهر منها هذا المعنى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول من كان يعبد شيئا فليتبعه، فيتّبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت[٣]، وتبقى هذه الامة فيها منافقوها، فياتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: انا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى ياتينا ربّنا فاذا جاء ربنا عرفناه

---

(١) مثلاً الذين يقدّسون بعض الطقوس التي اضيفت الى الشعائر الحسينية فلو تجلى لهم رب العزة والجلال وقال لهم هذا الفعل ليس من الشعائر الحسينية وانما هو طقس وفعالية ابتدعها البعض للتعبير عن تفاعله مع قضية الحسين (عليه السلام)، فان هؤلاء سيقولون انت لست رباً حقاً، ولو كنت الرب الحقيقي لقلت لنا أن الدين هو هذا الفعل، والذين يقدّسون شخصاً تعصّباً وعاطفةً لو قال لهم الله سبحانه وتعالى هذا إنسان غير صالح لردَّوا عليه بأنك لست ربَّنا.

(٢) وسائل الشيعة: ٢٧/ ١٣٥/ ح٣٢.

(٣) وقد يكون هؤلاء الطواغيت متلبسين بزي علماء الدين ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة:٣١).

فياتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون، فيقول: انا ربكم فيقولون: انت ربنا فيتبعونه)[1].

فإذا أردنا معرفة الله حق معرفته فلنأخذها من معينها وهم أهل البيت (عليهم السلام) عدل القرآن وصنوه والقرآن الناطق، ومن ادعية أمير المؤمنين والإمام الحسين والإمام السجاد (صلوات الله عليهم اجمعين) والكلمات الاخرى للائمة المعصومين (عليهم السلام).

(١) صحيح مسلم: ٨٢، باب ٨١ معرفة طريق الرؤية، ح٢٩٩.

القبس/١٧٩

سورة الزمر:﴿٧٣﴾

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾

موضوع القبس: لماذا يُساق المتقون الى الجنة؟

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر:﴿٧٣﴾).

قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصف أحوال هؤلاء عندما قرأ الآية: (قد أُمِنَ العذاب، وانقطع العتاب. وزُحزحوا عن النار، واطمأنت بهم الدار، ورضوا المثوى والقرار. الذين كانت أعمالهم في الدنيا زاكية، وأعينهم باكية. وكان ليلهم في دنياهم نهاراً، تخشّعاً واستغفاراً. وكان نهارهم ليلاً، توحشاً وانقطاعاً. فجعل الله لهم الجنة مآباً، والجزاء ثواباً. وكانوا أحق بها وأهلها. في ملك دائم، ونعيم قائم)[1].

﴿سِيْقَ﴾ فعل مبني للمجهول من (ساق) ولم يذكر السائق فلعله من الملائكة كما في بعض الروايات الاتية أو غيرهم، قال تعالى: ﴿وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (ق:﴿٢١﴾)، وفي المفردات ((سوق الإبل جلبها وطردها يقال: سقته فانساق)) ومنه (لا أستطيع أن أسوق إلى نفسي خير ما أرجو) أي أجلب،

(١) نهج البلاغة: ٢/ ١٣٢، شرح محمد عبده.

وسمي مهر المرأة سياقاً لأن الأصل فيه كان من الإبل والغنم يسوقها الرجل إلى المرأة، وعُبِّر عن النزع الأخير للإنسان في حال الاحتضار ((السَوْق)) لأن روحه تُساق لتخرج من البدن، وفي قول أمير المؤمنين (عليه السلام) لعثمان: (فلا تكونن لمروان سِيقة يسوقك حيث شاء) والسيقة الناقة التي ساقها العدو[1].

والزُمَر جمع (زمرة) وهي الجماعة فيُساقون على شكل جماعات، ربما لأن طاعاتهم كانت جماعية كالحج وصلاة الجمعة والجماعة وزيارة المعصومين (عليهم السلام) والأعمال الخيرية، كما أن الكافرين كانت معاصيهم جماعية في حفلات المجون والمظاهرات ضد الحق وأهله والتجمعات لنصرة الباطل والطواغيت فسيقوا زمراً أيضاً.

أو إنَّ سوق المتقين زمراً ليأنس بعضهم ببعض ويعوِّضهم عن الوحشة والخذلان الذي لاقوه في الدنيا بحيث أصبحوا معزولين عن أغلبية المجتمع من أهل الدنيا، بعكس زمر الكافرين وجماعتهم فهي تزيدهم وحشة بعضهم من بعض لأنهم كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٦٧)، لأنهم يذكّرونهم بصحبتهم السيئة وأفعالهم المشينة ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ (آل عمران:٣٠).

ولعل جمع (الزمر) لأن المتقين على درجات متفاوتة فتساق كل زمرة بحسب استحقاقها، ولذا كان للجنة أبواب بحسب ما يناسب هذه الدرجات، كما

(١) مجمع البحرين: ٥-٦ / ١١٨، مادة (سوق).

أن أهل النار يساقون جماعات بحسب استحقاقهم فقالت فيهم الآية السابقة: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً﴾ لأنهم على دركات متفاوتة ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (الحجر:٤٤)، وللجنة ثمانية أبواب روى أنس بن مالك عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (إن للجنة ثمانية أبواب، وللنار سبعة أبواب)[١]، وروي عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام): (إن للجنة ثمانية أبواب: باب يدخل منه النَبيُّون والصِّدِّيقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون. وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومُحِبُّونا، وباب يدخل منه سائر المسلمين، مِمَّن شهد أن لا إله إلا الله، ولم يكن في قلبه مقدار ذَرَّة من بغضنا أهل البيت)[٢]، وروي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله: (أحسنوا الظن بالله تعالى واعلموا أن للجنة ثمانية أبواب عرض كل باب منها مسيرة أربعين سنة)[٣].

ولا يخفى ما في التعبير بالزمر من إيحاء إلى تأثير الانتماء إلى الجماعة في سلوك الفرد وفي استحقاقه، حتى أنه يُحشر إلى الجنة أو النار بلحاظ انتمائه، وقد ورد التأكيد في الروايات على أن معرفة الشخص تتم من خلال معرفة الجماعة التي ينتمي إليها فإن كانوا من أهل الصلاح كان منهم ظاهراً وإن كان من أهل الضلال كان منهم كذلك، ففي وصية أمير المؤمنين (عليه السلام) لولده الحسن (عليه السلام): (قارن أهل الخير تكن منهم وباين أهل الشر تِبن عنهم)[٤]، ومما روي عن نبي الله

---

(١) وسائل الشيعة: ٣/ ٢٤٦، أبواب الدفن وما يناسبه، باب ٧٢، ح١١. عن أمالي الصدوق: ١٢٣.

(٢) الخصال: ٤٠٦.

(٣) بحار الأنوار: ٨/ ١٣١، عن كتاب الخصال: ٢/ ٣٩.

(٤) نهج البلاغة: ٣/ ٥٢، بشرح الشيخ محمد عبده.

سليمان (عليه السلام) قوله: (لا تحكموا على رجل بشيء حتى تنظروا إلى من يصاحب فإنما يُعرف الرجل بأشكال أقرانه ويُنسب إلى أصحابه وأخدانه)[1].

والملفت أن زمر النار قال تعالى فيهم: ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ بينما قال في أهل الجنة ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي وقد فتحت ولعل الاختلاف يُشعر بأن أبواب النار تكون مغلقة وتفتح عند وصول مستحقيها إليها، كأبواب السجون المغلقة على أهلها وتفتح عندما يصل محكوم بالسجن إلى الباب، أما الجنة فأبوابها مفتوحة قبل وصولهم إليها لأن الواو حالية أي أن المتقين جاؤوها حال كونها مفتوحة لأنها تكون مهيئة لاستقبالهم بالزينة والتكريم.

ولم تذكر الآية خبر ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا﴾ لأن الإبهام يكون أدعى للرغبة في ما فيها والتطلع إليها ولأن الكلمات لا تسع وصف الخبر لان فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ويثار هنا سؤال: أن السوق اذا كان يتضمن الدفع قسراً فهو بالنسبة لأهل النار معلوم لأنهم يرغمون على دخولها ويُدفعون إليها دفعاً، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً﴾ (الطور:١٣) وقال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ (مريم:٨٦)، لكن سَوقَ الذين اتقوا غير واضح لأن المفروض أنهم يسرعون إليها مبادرين لأنها غاية مُناهم وقد تحققت.

---

(١) بحار الأنوار: ٧١/ ١٨٨، عن كنز الفوائد لأبي الفتح محمد بن علي الكراجكي (ت ٤٤٩ هجـ): ٣٦.

وبتعبير آخر قاله بعض المفسرين: ((استعمال لفظ ﴿سِيقَ﴾ أثار التساؤل، كما لفت أنظار الكثير من المفسرين لأن هذا التعبير يستخدم في موارد يكون تنفيذ العمل فيها من دون أي اشتياق ورغبة في تنفيذه، ولذلك فإن هذه العبارة صحيحة بالنسبة لأهل جهنم، ولكن لمَ استعملت بشأن أهل الجنة الذين يتوجهون إلى الجنة بتلهف واشتياق))[1].

ويمكن أن نذكر هنا عدة أجوبة:

١- أن نسلّم بالإشكال أي بهذا المعنى للسوق فيكون الجواب بأن اللفظ استُعمل من باب المشاكلة وهو من أساليب البديع المعروفة في الأدب العربي ومثاله قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة:١٩٤) والمقابلة بالمثل واستنقاذ الحق ليس عدواناً لكن أحد وجوه استعمال اللفظ أنه استُعمل من باب المشاكلة، وتوجد وجوه أخرى ذكرناها في قبس آخر.

٢- إن نفس مفردة (السوق) لا تتضمن معنى التعنيف والزجر والإهانة، ولعل صاحب المفردات شرحها بلحاظ سوق الإبل، وإن جهود أهل اللغة مبنية على استقراء الاستعمالات وهو قد يكون قاصراً عن بيان المعنى الحقيقي وإنما ينقلون المعنى المستعمل فيه وهو أعم كقوله في مادة حشر: ((إخراج الجماعة من مقرّهم وإزعاجهم عنها إلى الحرب وغيرها))[2] وهو لا يلائم قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً﴾ (مريم: ٨٥)، لذا عرّف ابن فارس في معجم مقاييس

(١) الأمثل في تفسير القرآن للشيخ مكارم الشيرازي: ١١/ ٥٧٩.

(٢) مفردات غريب القرآن- الأصفهاني: ١١٩.

اللغة السوق بأنه ((حدو الشيء))[1] من دون أن يتضمن معنى الزجر أو التعنيف، وعرّفه الشيخ الطبرسي في مجمع البيان بأنه ((الحث على السير))[2]، وقال بعض المحققين: ((حث على سير من خلف في ظاهر أو معنى فالسوق في الظاهر كما في ﴿فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ (فاطر:٩) والسوق المعنوي كما في ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ (القيامة:٣٠) والسوق في ما وراء المادة، كما في ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً﴾ (الزمر:٧١) ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾ (الزمر:٧٣)، فكما أن السحاب يساق إلى بلد ميت لحفظ النظم وتتميم اللطف والفضل، كذلك يساق الكافر إلى جهنم، ويساق المؤمن إلى الجنة، حفظاً للنظم وإجراءً للعدل وإعطاءً لما تقتضيه الطبائع، وتطلبه النفوس من لوازم الضلال والهداية ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة:٣٦)))[3].

وعلى هذا فيمكن استعمال لفظ السوق في المحبوب والمكروه ويُعرف ذلك من القرائن أو من الغرض المقصود للسوق كلفظ البُشرى الذي يُفهم منه الأمور المفرحة لكنه يستعمل أيضاً في الأمور السيئة ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران:٢١)، فقد يكون السوق للتكريم والتبجيل كمن يلتمس ضيفاً على الباب لدخول داره فيأخذ بكتفيه أو بيديه ويدخله الدار فهذا سوق للتكريم، وهو ما يقوم به بكل إخلاص وسرور أصحاب المواكب الحسينية في أيام زيارة

(١) معجم مقاييس اللغة- ابن فارس: ٣/ ١١٧.

(٢) مجمع البيان للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي: ٨/ ٢٢١.

(٣) التحقيق في كلمات القرآن الكريم للعلامة حسن المصطفوي: ٥/ ٣٣٠.

الأربعين فيعزمون على المشاة أن يستريحوا في مواكبهم ويتناولوا من طعامهم وشرابهم.

فاشتياق المتقين إلى الجنة مهما كان عظيماً فإن الجنة وملائكتها وحورها مشتاقون إليهم أكثر ويتلهفون إلى لقائهم فيسوقونهم إليهم بتكريم وحث، لذا فسّر في مجمع البيان سوق الذين كفروا بأنهم ((يساقون سوقاً في عنف)) وقال عن سوق الذين اتقوا: ((أي يُساقون مكرمين)) ولم يجد بأساً في استعمال لفظ السوق فيهما معاً لأن الحال لم يستظهره من اللفظ وإنما من القرائن.

وبذلك يقترب معنى السوق من الدلالة والهداية على نحو الحث والدفع، لذا يستعمل أهل المعرفة لبيان غرض القرآن أو الدين عموماً تعبير السوق نحو الكمال، والهداية قد تكون إلى الجنة وهو معروف وقد تكون إلى النار، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً﴾ (النساء:١٦٨-١٦٩)، وقال تعالى: ﴿شَيطَاناً مَرِيداً ۞ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (الحج:٣-٤)، فسوقُ الذين اتقوا إلى الجنة لأنهم يحتاجون من يهديهم إليها ويدلّهم عليها في تلك الأجواء الرهيبة في محشر القيامة.

٣- إنَّ غاية ما يمكن أن يقال في السوق أنه تحريك بدون إرادة المتحرك او عند عجزه سواء كان خلاف إرادته أو من حيث لا يعلم، وحينئذٍ لا خير في نسبة السوق الى المؤمنين فالله تعالى يسوق المؤمنين من حيث لا يشعرون إلى الجنة، كما ورد في بعض الأحاديث وعن رسول الله (ﷺ) قال: (يا علي، مَن ترك

الخمر لغير الله سقاه الله من الرحيق المختوم، فقال علي (عليه السلام) لغير الله؟ قال: نعم، والله صيانة لنفسه، يشكره الله على ذلك)[1]، وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (مَن سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة)[2].

٤- أو أن الذين اتقوا لمَّا يُنادى بهم لدخول الجنة يبقون في المحشر لأمرٍ ما ويتأخرون عن دخول الجنة فتحثّهم الملائكة على دخولها وهو معنى السوق.

وسبب تأخرهم قد يكون للشفاعة في ذويهم ومحبيهم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ (الطور:٢١) كالذي ورد في صحيحة محمد بن مسلم عن الإمام الصادق (عليه السلام) (إن السقط يجيء محبنطئاً على باب الجنة فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: لا، حتى يدخل أبواي الجنة قبلي)[3].

أو للوفاء بالعهد مع إخوانهم المؤمنين كما في المؤاخاة المذكورة في أعمال يوم الغدير (أن لا أدخل الجنة إلا وأنت معي)[4].

أو أنهم لتواضعهم وحسن أدبهم لا يريدون سبق إخوانهم في الدخول إلى الجنة فينتظرون الرفقة ليدخلوا زمراً وجماعات.

أو لكي يُعرف قدرهم كما في الحديث الوارد في شفاعة الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء (عليها السلام) أنها إذا (صارت عند باب الجنة تلتفت، فيقول الله: يا

---

(١) مكارم الأخلاق، للشيخ الطبرسي: ٤٣٣، بحار الأنوار: ج٧٦/ ص١٥٠.

(٢) الأمالي، للشيخ الصدوق: ١١٦، بحار الأنوار: ج١/ ص١٦٤.

(٣) وسائل الشيعة: ٢٠/ ١، كتاب النكاح، أبواب المقدمات، باب١، ح٢.

(٤) مستدرك الوسائل- المحدث النوري: ٦/ ٢٧٩.

بنت حبيبي ما التفاتك وقد أمرت بك إلى جنتي؟ فتقول: يا رب أحببت أن يُعرف قدري في مثل هذا اليوم، فيقول الله: يا بنت حبيبي ارجعي فانظري من كان في قلبه حب لك أو لأحد من ذريتك خذي بيده فأدخليه، الجنة، قال أبو جعفر (عليه السلام): والله يا جابر إنها ذلك اليوم لتلتقط شيعتها ومحبيها كما يلتقط الطير الحب الجيد من الحب الرديء، فإذا صار شيعتها معها عند باب الجنة يلقي الله في قلوبهم أن يلتفتوا، فإذا التفتوا يقول الله: يا أحبائي ما التفاتكم وقد شفعت فيكم فاطمة بنت حبيبي؟ فيقولون: يا رب أحببنا أن يعرف قدرنا في مثل هذا اليوم، فيقول الله: يا أحبائي ارجعوا وانظروا من أحبكم لحب فاطمة، انظروا من أطعمكم لحب فاطمة، انظروا من كساكم لحب فاطمة، انظروا من سقاكم شربة في حب فاطمة، انظروا من ردّ عنكم غيبة في حب فاطمة فخذوا بيده وأدخلوه الجنة، قال أبو جعفر (عليه السلام): والله لا يبقى في الناس إلا شاك أو كافر أو منافق فإذا صاروا بين الطبقات نادوا كما قال الله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ فيقولون: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال أبو جعفر (عليه السلام): هيهات هيهات منعوا ما طلبوا ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾)[1].

٥- إن الذين اتقوا لا تؤهلهم أعمالهم إلى دخول الجنة فلا تحركهم الحركة الكافية نحوها، ولكن لطف الله تعالى ورحمته تشملهم فتعطيهم زخماً وتسرّع بهم نحو الجنة فهم يحتاجون إلى (سوق) أيضاً ليدخلوا الجنة بلا تأخير، وهذا السوق ورد في (الذين اتقوا) وليس في (المتقين) وبينهما فرق فالذين اتقوا حالة قد

(١) بحار الأنوار: ٨/ ٥٢ عن تفسير فرات الكوفي: ١١٣-١١٥.

يحصل معها ما ينافيها كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:٢٠١) والمتقون مقام تحولت التقوى عند أهَله إلى صفة ثابتة ولازمة لذواتهم، لذا لم يستعمل معهم لفظ السوق، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً ۞ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ (مريم: ٨٥-٨٦) والخلاصة أن أهل التقوى على درجات فبعضهم تكون حاله غير تامة فيحتاجون إلى تكميلها بسوق وبعضهم تكون عندهم تامة فلا يحتاجون.

٦- أن الذين اتقوا يُصار بهم الى الجنة التي تناسب استحقاقهم فيتوقفون عن دخولهم لانهم يرون جنّات اعلى منها فيطمعون ولكنه يحال بينهم وبينها لانهم ليسوا مؤهلين لها ويساقون الى الجنة التي يستحقونها ولعل هذا وجه قوله تعالى ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (الأعراف:٤٦).

٧- إن السوق ليس للذين اتقوا وإنما لذويهم ومتعلقيهم ومحبيهم وقد وعد الله تعالى أن يلحقهم بهم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور:٢١) وهؤلاء يحتاجون إلى سوق لأن منزلتهم ليست بدرجة الذين اتقوا وإنما نسب السوق إلى الذين اتقوا لأنهم هم الملحوظون والمقصودون بالتكريم ودخول الجنة، فكل واحد منهم يمثل جماعة ويعادل جماعة نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (النحل:١٢٠) كما أن الملك حينما يدعى يساق معه رفاقه

وحاشيته وينسب السوق إلى الجميع.

٨- إن الذين اتقوا لما يرون ما أعد الله لهم من الكرامة والفوز العظيم الذي تحقق لهم تخرج أرواحهم من أبدانهم فرحاً وشكراً وشوقاً إلى المنعم المتفضل فتساق أرواحهم إلى أبدانهم ليدخلوا الجنة وهم كانوا هكذا في الدنيا كما وصفهم أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبته في صفة المتقين (ولولا الأجل الذي كُتب لهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب)[1].

٩- ما يُستفاد من بعض الروايات في فضل زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) ونصرته لإقامة دين الله تعالى ونشر ولاية أهل البيت (عليهم السلام) وهي من سيماء الذين اتقوا ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج:٣٢)، فقد روى زرارة عن الإمام الباقر (عليه السلام) أو الصادق (عليه السلام) أنه قال: (يا زرارة إذا كان يوم القيامة جلس الحسين (عليه السلام) في ظل العرش وجمع الله زواره وشيعته ليبصروا من الكرامة والنصرة والبهجة والسرور إلى أمر لا يُعلم صفته إلا الله فيأتيهم رسل أزواجهم من الحور العين من الجنة فيقولون إنا رُسل أزواجكم إليكم يقلن: إنا قد اشتقناكم وأبطأتم عنا فيحملهم ما هم فيه من السرور والكرامة على أن يقولوا لرسلهن: سوف نجيئكم إن شاء الله)[2].

ورويت بشكل آخر أكثر تفصيلاً في كامل الزيارات عن زرارة وفيها (وما من عبد يُحشَرُ إلاّ وعيناه باكيةً إلاّ الباكين على جدِّيَ الحسين (عليه السلام)، فإنّه يحشر وعينه قَريرة، والبشارة تلقاه والسّرور (بيّن) على وجهه، والخلق في الفزع وهم

(١) نهج البلاغة: ٢/ ١٦١، خطبة ١٩٣، في وصف المتقين.

(٢) بحار الأنوار: ١٠١/ ٧٥، ح٢٥ عن نوادر علي بن أسباط ضمن الأصول الستة عشر: ١٢٣.

آمنون، والخلق يعرضون وهم حدّاث[1] الحسين (عليه السلام) تحت العرش وفي ظلّ العرش، لا يخافون سوءَ يوم الحساب، يقال لهم: ادخلوا الجنّة، فيأبون ويختارون مجلسه وحديثه، وأنَّ الحور لترسل إليهم أنّا قد اشتقناكم مع الولدان المخلّدين فما يرفعون رؤوسهم إليهم لما يرون في مجلسهم مِنَ السُّرور والكَرامَة، وإنَّ أعداءَهم مِن بين مَسْحوب بناصيته إلى النّار، ومِن قائل: ﴿ما لَنا مِن شافِعينَ وَلا صَدِيقٍ حَميم﴾، وإنّهم ليرون منزلهم، وما يقدرون أن يدنوا إليهم ولا يصلون إليهم، وإنَّ الملائكة لتأتيهم بالرِّسالة مِن أزواجهم ومِن خُزّانهم على ما أُعطوا مِن الكَرامة فيقولون: نأتيكم إن شاء الله، فيرجعون إلى أزواجهم بمقالاتهم، فيزدادون إليهم شوقاً إذا هم خبّروهم بما هم فيه مِنَ الكَرامة وقُربهم مِن الحسين (عليه السلام)، فيقولون: الحمد لله الَّذي كفانا الفَزَع الأكبرَ، وأهوال القيامة، ونجّانا ممّا كنّا نخاف، ويؤتون بالمراكب والرِّحال على النَّجائب، فيستوون عليها، وهم في الثَّناء على الله والحمد لله والصَّلاة على محمَّدٍ وآله، حتّى يَنْتَهوا إلى منازلهم)[2]، فهؤلاء المتقون من زوار الإمام الحسين (عليه السلام) وشيعته والمقيمين لشعائره بإخلاص يفضلون النظر إلى وجهه الكريم على المصير إلى الجنة وينشغلون به عنها فتأخذهم الملائكة برفق وتكريم إلى الجنة حينما أذن الله تعالى بذلك.

والرواية واضحة الانطباق على الآية الكريمة، إلا أن أحداً من أصحاب التفسير بالروايات -كالبرهان ونور الثقلين- لم يذكرها، ولعل السبب لأن الرواية لم تستشهد بالآية صريحاً فلم يلتفتوا إليها.

---

(١) أي يتحدثون مع الإمام (عليه السلام).

(٢) كامل الزيارة: ٨٤.

ملحق: الأنس بولاية أهل البيت (عليهم السلام) من أعظم نعم الجنة ومسؤوليتنا تجاهها

من مظاهر رحمة الله تعالى وتجليات لطفه بعباده لجذبهم إلى الهداية والطاعة هو تعجيل بعض نعم الجنة لعباده المؤمنين في دار الدنيا؛ ليتذوقوها ويتلذذوا وينتشوا بها فيتشوقون إلى الجنة ويندفعون إلى الأعمال الموجبة لها ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ (الإسراء:١٩).

ومن تلك النعم معرفة الله تعالى ومحبته والأنس بلقائه والنظر إلى وجهه الكريم، وهي أعظم نعم الجنان قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:٧٢). ومن دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) التام في معرفة الله تعالى ومحبّته: (ماذا وَجَدَ مَن فَقَدَكَ ومَا الَّذي فَقَدَ مَن وَجَدَكَ)[1] والكلام مطلق شامل لنعيم الجنان.

لذا كان العارفون بالله تعالى يتلذذون بعبادته ومناجاته تعالى (فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ)[2] فعبادة الله تعالى عندهم ليست تكاليف تؤدى طلباً للثواب أو خوفاً من العقاب، وإنما هي نِعم اهديت اليهم من الجنة ليتنعموا

(١) من دعائه (عليه السلام) يوم عرفة مفاتيح الجنان.

(٢) نهج البلاغة خطبة ١٩٣، من خطبة يصف فيها المتقين.

بها، روى في الكافي عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: (قال الله تبارك وتعالى: يا عبادي الصديقين تنعموا بعبادتي في الدنيا فإنكم تتنعمون بها في الآخرة)[1].

يقول الإمام السجاد (عليه السلام) في مناجاة العارفين: (وَقَرِّتْ بِالنَّظَرِ إلى مَحْبُوبِهِمْ أَعْيُنُهُمْ،) إلى أن يقول: (إلهِي ما أَلَذّ خَواطِرَ الإِلْهامِ بِذِكْرِكَ عَلَى الْقُلُوبِ، وَما أَحْلَى الْمَسِيرَ إلَيْكَ بِالأَوْهامِ فِي مَسالِكِ الْغُيُوبِ، وَما أَطْيَبَ طَعْمَ حُبِّكَ، وَما أَعْذَبَ شِرْبَ قُرْبِكَ...)[2].

ومن تلك النعم[3] ولاية أهل البيت (عليهم السلام) ومودّتهم والأنس بذكرهم وزيارة مشاهدهم وتعظيم شعائرهم، فإنها من نعم الجنة العظمى التي اتحف الله تعالى بها الموالين لأهل البيت (عليهم السلام)، وكلما ازدادت نشوتهم بهذا الولاء والمودّة

---

(١) الكافي، للكليني: ج٢، ص٨٣.

(٢) وهي إحدى المناجيات الخمس عشرة التي نُقلت عن الإمام السجاد (عليه السلام)، نقلها المجلسي في بحار الأنوار: ج٩١، ص١٥٠، وجدتها مروية عنه (عليه السلام) في بعض كتب الأصحاب (رضوان الله عليهم)، ونقلها الشيخ عباس القمي في مفاتيح الجنان، وصارت تطبع مع الصحيفة السجادية مؤخراً.

(٣) ولا يفوتني أن أذكر هنا أن من تلك النعم الزوجة الصالحة فقد اختارها الله تعالى لعبده المؤمن وفضّلها على الحور العين، ففي الحديث عن أم سلمة زوج النبي أنها سألت النبي (صلى الله عليه وآله) فقالت: (يا رسول الله، نساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة، قالت: يا رسول الله، ولم ذلك؟ قال: بصلاتهنَّ وصيامهنَّ وعبادتهنَّ الله تعالى، ألبس الله وجوههنَّ النور، وأجسادهنَّ الحرير، بيض الألوان خضر الثياب صفر الحلي، مجامرهنَّ الدر، وأمشاطهنَّ الذهب) رواه الطبراني في المعجم الأوسط. وفي مستدرك الوسائل عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (وما مِن امرأة تكسو زوجها إلا كساها الله يوم القيامة سبعين خِلعة من الجنة كل خلعة منها مثل شقائق النعمان والريحان، وتُعطى يوم القيمة أربعين جارية تخدمها من الحور العين) (مستدرك الوسائل، للميرزا النوري: ج١٤/ص٢٤٥).

الصادقة ازداد تعلقهم بحب اهل البيت (عليهم السلام)، مع ما يرون منهم (عليهم السلام) من نجدة لهم في وقت الشدة وإغاثة في حال الكرب[1].

وقد دلت الروايات على ان نعمة القرب من أهل البيت (عليهم السلام) لا تضاهيها نعمة من نعم الجنة بعد معرفة الله تبارك وتعالى، وأن الأنس بهم (عليهم السلام) يشغل أهل الجنة عن النظر إلى نعمها الأخرى، بحسب روايتي زرارة المتقدمتين في القبس.

أيها الأحبة:

لذا قلنا إن السير إلى الإمام الحسين (عليه السلام) وزيارته طريق إلى الجنة بل هي الجنة، ولذا يلتذ عشاق أبي عبد الله (عليه السلام) بها رغم ما يصيبهم من العناء[2] والمشقة الكبيرين مما يعجز عن تحمل يسير منه في غير هذه الطاعة المباركة، ويعيشون الحرقة والأسى عندما تنتهي مدة الخدمة ويقوِّضون خيامها.

إن هذه النعمة العظيمة توجب علينا مسؤوليات كما اوجبت لنا تشريفاً وكرامة، منها:

---

(١) فصلنا الكلام في نعمة ولاية اهل البيت (عليهم السلام) في أكثر من قبس في تفسير (من نور القرآن) كقوله تعالى ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى:١١) وقوله تعالى ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (إبراهيم:٢٨) وقوله تعالى ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة:٣).

(٢) تجاوزت درجة الحرارة في العراق أيام الزيارة خمسين درجة مئوية والموالون يسيرون تحت الشمس المحرقة مئات الكيلومترات.

١- التمسّك بالإسلام المحمدي النقي الأصيل الذي نستقيه من معينه الصافي: القرآن الكريم وأحاديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعترته الأطهار (صلوات الله عليهم أجمعين) في جميع أمورنا الفردية والاجتماعية والقوانين التي تنظم حياتنا، فإن الإسلام أثمن جوهرة وهبها الله تعالى لعباده فلا بد من المحافظة عليها بأي ثمن، كما ضحّى الإمام الحسين (عليه السلام) بأعزّ أهلٍ وأصحاب من أجل بقاء الإسلام نقياً من التحريف.

وعلينا ان ننفي عنه الضلالات والشبهات التي يواصل أعداء الإسلام دسها لتشويه صورة الإسلام وإبعاد الناس عنه ويساعدهم على ذلك أفعال الجهلة من مدَّعيه.

٢ – بذل الوسع في دعوة الناس إلى الله تبارك وتعالى ونشر تعاليم أهل البيت (عليهم السلام) حتى يهتدي كل الناس إلى نور التوحيد وولاية أهل البيت (عليهم السلام)، ويكون ذلك بعد التفقه في علوم الدين ومعارفه وأخلاقه امتثالاً لقول الله عز وجل ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة:١٢٢) وقول الإمام الرضا (عليه السلام): (رحم الله عبداً أحيا أمرنا. فقلت له: فكيف يحيي أمركم قال: يتعلم علومنا ويعلمها الناس فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا)[1].

٣- إدامة هذه الشعائر المباركة وإظهارها بأبهى صورها وتوسيعها لتصل إلى العالم كله ومنع محاولات تشويهها وإفراغها من محتواها وأهدافها وتحويلها إلى طقوس

(١) عيون أخبار الرضا (عليه السلام)، للشيخ الصدوق: ج١/ص٢٧٥، معاني الأخبار – الشيخ الصدوق: ١٨٠.

ومهرجانات شعبية لا علاقة لها بأهداف القيام الحسيني التي صَرّحَ بها في كلماته (عليه السلام) حتى تسمع جميع البشرية نداء الحق فتهفوا إليه.

٤- المحافظة على وحدتكم والألفة والمودة بينكم التي تجلت في أنواع الخدمة الحسينية التي لا نظير لها ويعجز اللسان عن وصفها، ولم تتحقق هذه المودة التي وحّدت ملايين من المؤمنين ينتمون إلى مائة دولة تقريباً إلا بالألطاف الإلهية وببركة ولاية أهل البيت (عليهم السلام) ﴿هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۞ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّه أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال:٦٢-٦٣).

فلا يجوز أن نعيش هذه النعمة في أيام الزيارة فقط ثم نتخلى عنها ونعود إلى انقساماتنا ونزاعاتنا وعصبياتنا وتحزّباتنا، فهذا تفريط بهذه النعمة وسوف نندم عليه، وحينئذٍ نكون ممن ينطبق عليهم قوله تعالى ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ (النحل:٩٢).

٥- الالتفاف حول المرجعيات الدينية المخلصة العاملة الرشيدة امتثالاً لأوامر الأئمة المعصومين (عليهم السلام)، فإنها القائد إلى الخير كله والكهف الحصين الذي تأوي إليه الأمة، فلا بد من الدفاع عنها ورد الشبهات والأكاذيب التي تحاول فصل الأمة عنها.

٦- التحلي بالوعي والبصيرة وقراءة الأحداث بعمق وتحليل لا بسذاجة وسطحية فإن الأعداء مستمرون في الكيد لنا وتغليف حروبهم العسكرية والناعمة الأشد

خطراً بعناوين خادعة، فعلينا فهم حقيقة الصراع، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[1] (البقرة:٢١٧).

اللهم اجعلنا من الشاكرين لإلائك، المداومين على طاعتك، المستقرين في محبتك، الثابتين على ولاية اوليائك، والمستشعرين لذة القرب منك، ولاتجعلنا من الغافلين المبعدين.

(١) راجع تفاصيل هذه الحرب وانوعها في تفسير (من نور القرآن) عند هذه الآية.

القبس/١٨٠

سورة غافر:﴿٥٦﴾

﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾

موضوع القبس: داء التكبر: سوء عاقبته وأسباب علاجه

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (غافر:﴿٥٦﴾).

تحليل نفسي لسبب صدود المعاندين عن الحق وعدم اذعانهم به وعنادهم، فإن الآية الكريمة تنفي أن يكون سبب جدالهم في آيات الله هو عدم وضوح الحق لديهم، أو الشك في صدق هذه الآيات، ولا أنهم يجرون حواراً بناءً يطلبون به الوصول إلى الحقيقة، وإنما هم يخوضون في هذا الجدال والخصام غير المستند إلى الدليل والبرهان ودافعهم فيه منحصر بمرض نفسي مترسّخ فيهم وهو الكبر ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (النمل:﴿١٤﴾) فيتوهمون أنهم بهذا الاستكبار والإعراض يدحضون الحق ويهزمونه بهذا الصخب والضجيج والتشويش على الرسالة وصاحبها وكل رسالة إصلاحية ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ (غافر:﴿٥﴾)، وليرضوا أنفسهم الأمارة بالسوء التي تأبى أن تكون تبعاً للنبي (صلى الله عليه وآله) وهو (يتيم أبي طالب) أو أن يجلسوا مع العبيد والمستضعفين من المؤمنين.

لكن الله تبارك وتعالى يطمئن نبيه الكريم (صلى الله عليه وآله) ومن خلاله جميع المؤمنين بأن المعاندين لا يستطيعون تحقيق مرادهم، ولا يبلغون هدفهم في إبطال الحق بهذا الجدال العقيم، الذي يغلق على قلوبهم منافذ النور، وإن ما حسدوك عليه ويريدون زواله عنك وانتقاله إليهم كالنبوة والزعامة حيث كانت قريش تحسد بني هاشم على النبوة لأنه مقام لا يستطيعون منافستهم فيه، أو أن الآية عنت اليهود - كما في بعض الروايات - فإنهم ((يريدون رجوع المُلك إليهم عند خروج الدجال)) ((وإن الكبر الذي ليس هم ببالغيه: توّقع أمر الدجال، فتكبرّوا متربصين يتوقعون خروج الجدال، فأعلم الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن هذه الفرقة التي تجادل لا تبلغ خروج الدجال))[1].

﴿مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ لأن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ولا يدرك بالأماني والسعي بالباطل، والضمير في (بالغيه) يعود إلى الكبر، فيكون من ذكر السبب وهو الكبر الذي دعاهم إلى الجدال، وإرادة المسبب وهو دحض هذه الدعوة المباركة، فلا يحزنك جدالهم وإعراضهم لأن الله تعالى مذلُّهم ومحبطٌ لأعمالهم فلا يتحقق لهم ما يريدون، وهذا شأن كل من يسعى إلى هدفه بالوسائل الباطلة، بل هو مصير كل عمل لا يُبنى على أساس الإخلاص لله تعالى وصدق النية والحجة الشرعية ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (الفرقان:٢٣) ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

---

(١) الدر المنثور: ٥/ ٣٥٣، والتبيان: ٦/ ٨٨، ومجمع البيان: ٤/ ٥٢٩.

والكبر والتكبّر أي توهم العظمة في النفس وتفخيم الأنا، وهو وصف لا يليق بالعبد الضعيف الذليل العاجز الفقير الذي لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فكيف يريد التلبّس بهذه الصفة المختصة بالخالق العظيم المتكبر الجبار، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (يقول الله جل وعلا: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار)[1] وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (الكبر رداء الله، فمن نازع الله شيئاً من ذلك اكبّه الله في النار).

لذا وصفت الآيات الكريمة هؤلاء الواهمين بأنهم مستكبرون أي طالبون للكبر ومنتحلون للتكبّر من غير استحقاق له، فإن الله تعالى هو ﴿الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ (الحشر:٢٣)، وإنما وظيفة الإنسان استشعار هذه العبودية والخضوع والفقر والحاجة لله تبارك وتعالى، وإنه يزداد كمالاً كلما ازداد تواضعاً وعبودية لله تعالى، ويتحقق ذلك بزيادة معرفته بصفات الله الحسنى.

ثم تقدم الآية الكريمة العلاج بالدعوة إلى تنقية النية والدافع وتطهير الباطن من خلال الاستعاذة بالله تعالى للتخلص من هذه الرذيلة الخُلقية، ومن تأثير المتصفين بها ومكرهم وجدالهم بالباطل من غير حجة أو دليل، ويكفي في احتقارهم أن الله تعالى يأمر بالاستعاذة منهم.

وتُطمئنُ الآية الكريمة النبي (صلى الله عليه وآله) والمؤمنين مرة أخرى بأن الله تعالى سميع لدعاء عباده، بصير بأحوالهم وظروفهم ومعاناتهم وحوائجهم، وبما يصلح حالهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة، مضافاً إلى ما تضمنته الآية السابقة من تطمين

---

(١) الحديث والذين بعده في ميزان الحكمة: ٧/ ٤١٧.

وتوجيهات عملية، قال تعالى ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (غافر:٥٥).

والكبر من أصول الرذائل الخلقية الذي تترشح منه صفات خبيثة كثيرة كالعصبية والحسد والبغي والاستعلاء وعدم الانصاف والصد عن الحق، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (احذر الكبر فإنه رأس الطغيان ومعصية الرحمن)[١]، وقال (عليه السلام): (أقبح الخلق التكبر)[٢]، ولو تركه الإنسان ولم يعالجه فإنه سيملأ كيانه ويترسخ في قلبه ويصبح المحرك لسلوكه ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾.

وكان الكبر سبب إباء إبليس السجودَ لآدم (عليه السلام) وعصيان الخالق العظيم ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾ (ص:٧٣-٧٤) فكان جزاؤه الطرد من رحمة الله وجنتَّه المحرمة على المتكبرين ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (الأعراف:١٣)، فهو صغير عند الله تعالى، وعند الناس ورد في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (يحشر الجبارون المتكبرون يوم القيامة في صور الذر، يطؤهم الناس لهوانهم على الله تعالى)[٣].

وهو الذي دفع قادة الانقلاب في السقيفة بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) فخالفوا أمر النبي (صلى الله عليه وآله) في تعيين الولي من بعده ففتحوا باب الصراع والاقتتال

---

(١) غرر الحكم: ح ٢٦٠٩.

(٢) غرر الحكم: ح ٢٨٩٨.

(٣) المحجة البيضاء: ٦/ ٢١٥.

والانحراف على الأمة إلى يوم القيامة وكانوا يبرّرون فعلتهم (كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتبجحوا على الناس بجحاً)[١].

وصِفَة الكبر راسخة في النفوس الأمّارة بالسوء فإنها نزّاعة إلى التكبر والاستعلاء حتى إلى ادعاء الربوبية لو وجدت لذلك سبيلاً، وقول فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات:٢٤) لا يختص به، لكن عدم إظهارها يكون لفقدانه ما يصول به، وإن هذه الصفة تظهر على الإنسان في أنماط متعددة من السلوك، كاحتقار الآخرين والاستعلاء عليهم، وعدم الجلوس إلا في صدر المجلس، أو عدم الاذعان بصواب رأي الآخر مع اعتقاده بذلك، أو الترفع عن بدء الآخرين بالسلام وغير ذلك، روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: (إياكم والكبر، فإن الكبر يكون في الرجل وأن عليه العباءة)[٢] وهو كناية عن تظاهره بالزهد في الدنيا واعتزال الناس فيقال عنه: أنه لبس العباءة.

وإن كثيراً من طالبي المقامات الروحية العالية ينطلقون من الكبر والأنانية فلا يزدادون إلا بعداً لعدم سلوكهم السبيل الصحيح الموصل إلى الله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (الفرقان:٢١) ولذا حذّر المعصومون (سلام الله عليهم) من هذه الرذيلة، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إياكم والكبر، فإن إبليس حمله الكبر على أن لا يسجد لآدم)[٣] وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (فاعتبروا بما كان من

(١) ابن الأثير: ٣/ ٦٣، وتاريخ الطبري: ٤/ ٢٢٣.

(٢) كنز العمال: ح رقم ٧٧٣٥.

(٣) كنز العمال: ح رقم ٧٧٣٤.

فعل اللّه بإبليس، إذ أحبط عمله الطّويل، وجهده الجهيد، وكان قد عبد اللّه ستّة آلاف سنة لا يدرى أمن سنيّ الدّنيا أم سنيّ الآخرة عن كبر ساعة واحدة، فمن بعد إبليس يسلم على اللّه بمثل معصيته)[1]؟!

وقد تعرضت آيات كثيرة لما يسببه الكبر من آثار سيئة في الدنيا والآخرة، منها ما تقدم من الطرد من الجنة ومن رحمة الله تعالى والصغار عند الله تعالى وعند الناس ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف:٤٠)، و(منها) أنه يوجب الشحناء والعداوة ويمحق المودة، أما التواضع فإنه يجلب المودة، قال تعالى ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة:٨٢) وأنه يوجب شدة سكرات الموت، قال تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام:٩٣) ويؤدي إلى عدم قبول الحق تكبراً على أهله ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الأعراف:٧٦) ويدعوه إلى عدم الإيمان بيوم الحساب ليبرّر لنفسه تصرفاته ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.

بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (غافر:٢٧) ويوجب مقت الله تبارك وتعالى والطبع على القلب ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر:٣٥) والمتكبر يستنكف عن الاعتراف بالخطأ والنصيحة بالتصحح ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (المنافقون:٥) وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (الكبر قد يكون في شرار الناس من كل جنس - أي في اراذل الناس ووضيعهم - ، والكبر رداء الله، فمن نازع الله عز وجل رداءه لم يزده الله إلا سفالاً، إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) مرّ في بعض طرق المدينة وسوداء تلقط السرقين فقيل لها: تَنَحّي عن طريق رسول الله، فقالت: إن الطريق لمعرض، فهمّ بها بعض القوم أن يتناولها، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): دعوها فإنها جبّارة)[1]، فلم تمنعها وضاعتها وخسّتها من التجبّر والتكبّر مما يدل على رسوخ هذه الصفة في البشر وعدم اقتصارها على أولي الحول والقوة.

فعلى المؤمن أن يلتفت إلى هذا الداء ويتعهد نفسه بالتهذيب وقلبه بالتطهير، وإلا ساقته نفسه إلى الهلكة من حيث يشعر أو لا يشعر، والشيطان يعلم ذلك، لهذا فإن الكبر من أعظم وسائله للإغواء وأوسع مداخله لتحريك النفس الأمّارة بالسوء، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (فأطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبيّة، وأحقاد الجاهليّة، فإنّما تلك الحميّة تكون في المسلم من خطرات الشّيطان ونخواته، ونزغاته ونفثاته، واعتمدوا وضع التّذلّل على رءوسكم، وإلقاء التّعزّز تحت

(١) الكافي: ٢/ ٣٠٩، باب (الكبر)، ح٢.

أقدامكم، وخلع التّكبّر من أعناقكم، واتّخذوا التّواضع مسلحة، بينكم وبين عدوّكم إبليس)[1]، وقال (عليه السلام): (فالله الله في عاجل البغي، وآجل وخامة الظّلم، وسوء عاقبة الكبر، فإنّها مصيدة إبليس العظمى، ومكيدته الكبرى، التي تساور قلوب الرّجال مساورة السّموم القاتلة، فما تكدى أبداً، ولا تشوى أحداً: لا عالماً لعلمه، ولا مُقلاّ في طمره)[2].

ومبرزات الكبر الموجود في النفس الإنسانية ومظهراته عديدة كالسلطة ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ (الزخرف:٥١) والزعامة بكل أشكالها السياسية والاجتماعية والعشائرية حتى الدينية، والعلم ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الأعراف:١٧٥) والمال[3] والجاه والعصبة من الأولاد والإخوة والأتباع ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ (النمل:٣٣) ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ (فصلت:١٥) وهو منطق الدول المستكبرة اليوم وفي كل زمان، وهذه لو تحققت لصاحب النفس الكريمة فإنها تكون مدعاة للتواضع وفعل الخير والإحسان إلى الناس، وإنما يسقط في امتحانها ذو النفس اللئيمة الذي يعاني من عقدة الحقارة والدونية، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (لا

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢ وهي المسماة بالخطبة القاصعة.

(٢) المصدر السابق.

(٣) راجع قبس قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق:٦-٧). في تفسير من نور القرآن.

يتكبر إلا وضيع خامل)[١] وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (ما من رجل تكبّر أو تجبّر إلا لذلّة وجدها في نفسه)[٢].

وقد دأب علماء الأخلاق على تقسيم علاج الرذائل الخلقية إلى علمي وعملي، فعلاج الكبر العلمي ما ذكرناه من معرفة حقوق الربوبية ووظائف العبودية والتفاته إلى ضعفه وهوانه ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴾ (المرسلات:٢٠) ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ (النساء:٢٨) ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ (الروم:٥٤)، وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (عجبت لابن آدم أوله نطفة وآخره جيفة وهو قائم بينهما وعاء للغائط، ثم يتكبر)[٣].

فالإنسان خلق من ضعف وهوان، وهو صائر إلى الضعف والهوان، فلا يليق به إلا التواضع واستشعار الذلة والفقر والحاجة إلى الرب الغني العزيز المقتدر، روى الإمام السجاد (عليه السلام) قال: (وقع بين سلمان الفارسي رحمه الله وبين رجل كلام وخصومة، فقال له الرجل: من أنت يا سلمان؟ فقال سلمان: أما أولي وأولك فنطفة قذرة، وأما آخري وآخرك فجيفة منتنة، فإذا كان يوم القيامة ووضعت الموازين فمن ثقل ميزانه فهو الكريم، ومن خف ميزانه فهو اللئيم)[٤].

أما العلاج العملي فيكون بالتواضع لله تبارك وتعالى ولسائر الخلق وتدريب النفس عليه إن لم يكن متّصفاً به، وأن لا يرى لنفسه فضلاً أو تقدماً على الناس،

---

(١) غرر الحكم: ح ١٠٨٠٨.

(٢) الكافي: ٢/ ٣١٠/ ح١٧.

(٣) علل الشرائع: ١/ ٢٧٦.

(٤) بحار الأنوار: ٢٢/ ٣٥٥، عن الأمالي للصدوق: ٧٠٨/ ح٩٧٦.

روى الشيخ الصدوق في الخصال عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال: (في المؤمن عشر خصال) إلى أن قال: (والعاشرة وما العاشرة! لا يرى أحداً إلا قال: هو خير مني وأتقى، إنما الناس رجلان فرجل هو خير منه وأتقى، وآخر هو شر منه وأدنى، فإذا رأى من هو خير منه وأتقى تواضع له ليلحق به، وإذا لقي الذي هو شر منه وأدنى قال: عسى خير هذا باطن وشره ظاهر، وعسى أن يختم له بخير، فإذا فعل ذلك فقد علا مجده، وساد أهل زمانه)[1].

وقد ذكرت الروايات بعض العلاجات للكبر، روي عن أبي ذر الغفاري (رضوان الله عليه) قال: (دخلت ذات يوم في صدر نهاره على رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مسجده.. فقلتُ: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أوصني بوصية ينفعني الله بها، فقال: .. يا أبا ذر، من مات وفي قلبه مثقال ذرة من كبر لم يجد ريح الجنة إلا أن يتوب قبل ذلك، فقال: يا رسول الله، إني ليعجبني الجمال حتى وددت أن عِلاقة سوطي وقِبال نعلي حسن، فهل يرهب علي ذلك؟ قال: كيف تجد قلبك؟ قال: أجده عارفاً للحق مطمئناً إليه، قال: ليس ذلك بالكبر، ولكن الكبر أن تترك الحق وتتجاوزه إلى غيره، وتنظر إلى الناس ولا ترى أن أحداً عرضه كعرضك ولا دمه كدمك)[2]، وقال الإمام السجاد (عليه السلام): (من قال: أستغفرُ الله وأتوب إليه،

(١) الخصال: ٤٣٣، أبواب العشرة.

(٢) بحار الأنوار: ٧٤/ ٩٠، نقلاً عن مكارم الأخلاق للطبرسي.

فليس بمستكبر ولا جبار، إن المستكبر مَن يصرّ على الذنب الذي غلبه هواه فيه، وآثر دنياه على آخرته)[١].

ومما ورد في خطبة الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) في مسجد أبيها (صلى الله عليه وآله) في مصالح التشريعات الإلهية: (فجعل الله الصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر)[٢] فالصلاة لو أقيمت حق قيامها فإنها علاج الكبر لأنها ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت:٤٥) وفيها من الأفعال ما يزيل الكبر عملياً كالركوع والسجود وأذكار التسبيح والتعظيم والتكبير وتذكّر الوقوف بين يدي الله يوم القيامة، وما فيها من الدعاء والتذلل وإظهار الحاجة إلى الله تبارك وتعالى، فإن الدعاء يقوّي عزيمة المؤمن ويربطه بالعطاء اللامتناهي، روى الشيخ الكليني بسند صحيح عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إن الله عز وجل يقول: ﴿إِنْ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر:٦٠) قال (عليه السلام): (الدعاء، وأفضل العبادة الدعاء)[٣]، فالدعاء علاج فعّال للكبر، وتركه للشعور بالاستغناء وعدم الحاجة استكبار وفي دعاء مكارم الاخلاق للإمام السجاد (عليه السلام): (ولا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزا ظاهرا إلا أحدثت لي ذلة باطنة عند نفسي بقدرها)[٤].

---

(١) بحار الأنوار: ٩٠/ ١٩٣.

(٢) الاحتجاج: ١/ ١٢٨.

(٣) الكافي: ٢/ ٣٣٩/ ح١.

(٤) الصحيفة السجادية: ١١٠.

القبس/١٨١

سورة غافر:﴿٦٠﴾

﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾

موضوع القبس: الدعاء: فضله وظروف استجابته

الأعمال بآثارها وخواتيمها:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ادْعُونِي أستَجِبْ لَكُم﴾ وقال تعالى:﴿وإذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعوَةَ الدَاعِ إذَا دَعَانِ فَليَستَجِيبُوا لِي وَليُؤمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرشُدُونَ﴾ (البقرة:﴿١٨٦﴾).

ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى﴿مَا يَفتَحِ اللهُ للنَاسِ مِنْ رَحمَةٍ فَلا مُمسِك لَهَا﴾ (فاطر:﴿٢﴾)، قال (عليه السلام):(الدعاء)[1].

الدعاء أيسر الوسائل إلى أعظم الخزائن:

أيها الأحبة..

هذه حقيقة نغفل عنها وهي امتلاكنا لهذه الوسيلة التي تفتح خزائن رحمة الله تبارك وتعالى التي وسعت كل شيء من خلال الدعاء، تصوروا لو أن لأحدكم وسيلة إلى مسؤول كبير وشخصية ذات نفوذ وقوة فإنه سيكون حريصاً على إبقاء

(١) الروايات الواردة في الخطبة موجودة في كتاب بحار الأنوار، المجلد التاسع عشر، عن مصادرها الأصلية، وأصول الكافي.

تلك الوسيلة والاستفادة منها، وها نحن نمتلك أيسر الوسائل إلى أعظم الخزائن وهو الدعاء، ولا نستثمره، يقول الإمام السجاد (عليه السلام): (ولو دلّ مخلوق مخلوقاً من نفسه على مثل الذي دللت عليه عبادك منك، كان موصوفاً بالإحسان ومنعوتاً بالامتثال ومحموداً بكل لسان، فلك الحمد ما وُجِد في حمدك مذهب، وما بقي للحمد لفظ تُحمد به، ومعنى ينصرف إليه)[1]، يقول الإمام الصادق (عليه السلام): (فأكثر من الدعاء فإنه مفتاح كل رحمة ونجاح كل حاجة ولا ينال ما عند الله إلا بالدعاء، فإنه ليس من باب يكثر قرعه إلا أوشك أن يُفتح لصاحبه)[2].

وللدعاء أهمية كبرى في كتاب الله تبارك وتعالى والأحاديث الشريفة عن أهل بيت العصمة (صلوات الله وسلامه عليهم) ففي خبر صحيح عن الإمام الباقر (عليه السلام) في تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ يَستَكبِرُونَ عَن عِبَادَتِي سَيَدخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر:٦٠) قال (عليه السلام): (هو الدعاء وأفضل العبادة الدعاء) ويشهد لذلك صدر الآية ﴿ادْعُونِي أَستَجِبْ لَكُم﴾، وفي تفسير قوله تعالى:﴿إِنَّ إِبرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة:١١٤) قال (عليه السلام): (الأواه هو الدَعّاء) وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (وكان أمير المؤمنين رجلاً دَعّاءً)[3].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعبَؤ بِكُم رَبّي لَولا دُعاؤُكُم فَقَد كّذّبتُم فَسَوفَ يَكونُ لِزَاماً﴾ (الفرقان:٧٧) وقال تعالى: ﴿وَاسأَلُوا اللهَ مِن فَضلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ

(١) الصحيفة السجادية، من دعائه (عليه السلام) في وداع شهر رمضان.

(٢) الكافي: ج٢/ ص٤٧٠.

(٣) الكافي: ج٢/ ص٤٦٨.

بِكُلِّ شيءٍ عَلِيماً﴾ (النساء:٣٢).

الدعاء لكل حاجة:

والدعاء لكل حاجة مهما صغرت ونحن في كل نفس وكل طرفة عين محتاجون إلى الله تبارك وتعالى الغني فلا نتوقف عن اللجوء إلى الله تبارك وتعالى في كل شيء حتى إذا كان تافهاً بنظرك أو أن الحصول عليه سهل يسير فقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (سلوا الله عز وجل ما بدا لكم من حوائجكم حتى شسع النعل فإنه إن لم ييسره لم يتيسر، وقال:ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع)[١] وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (ألا أدلّكم على سلاح ينجيكم من عدوكم ويدرّ أرزاقكم؟ قالوا: نعم، قال: تدعون بالليل والنهار فإن سلاح المؤمن الدعاء)[٢] وروي أن الإمام الكاظم سئل عما قيل:لكل داء دواء فقال (عليه السلام): (لكل داء دعاء فإذا أُلهم العليل الدعاء فقد أُذن في شفائه)[٣]، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (عليكم بالدعاء، فإنكم لا تقربون بمثله، ولا تتركوا صغيرة لصغرها أن تدعوا بها، إن صاحب الصغار هو صاحب الكبار)[٤].

الدعاء في كل زمان:

والدعاء في كل زمان حتى زمان اليسر والرخاء ويشتد في زمان العسر

---

(١) بحار الأنوار: ج ٩٠/ ص ٢٩٥.

(٢) الكافي: ج ٢/ ص ٤٦٨.

(٣) فقه الرضا: ص ٣٤٥.

(٤) الكافي: ج ٢/ ص ٤٦٧.

والضيق والبلاء، يروي أحد أصحاب الإمام الكاظم (عليه السلام) الثقات في شدة المحنة التي فرضها المنصور العباسي بعد استشهاد الإمام الصادق (عليه السلام) وسيفه يقطر دماً من شيعة أهل البيت يقول: (دخلت على أبي الحسن موسى (عليه السلام) بالمدينة وكان معي شيء فأوصلته إليه فقال: أبلغ أصحابك وقل لهم: اتقوا الله عز وجل فإنكم في إمارة جبار -يعني أبا الدوانيق- فأمسكوا ألسنتكم وتوقّوا على أنفسكم وادفعوا ما تحذرون علينا وعليكم منه بالدعاء، فإن الدعاء - والله- والطلب إلى الله يرد البلاء وقد قدّر وقضي ولم يبق إلا إمضاؤه فإذا دعي الله وسئل: صُرف البلاء صرفاً، فألحوا في الدعاء أن يكفيكموه الله، قال أبو ولاّد: فلما بلّغت أصحابي مقالة أبي الحسن (عليه السلام) قال: ففعلوا ودعوا عليه وكان ذلك في السنة التي خرج فيها أبو الدوانيق إلى مكة فمات عند بئر ميمون قبل أن يقضي نسكه فأراحنا الله منه، قال الراوي: وكنت تلك السنة حاجاً فدخلت على أبي الحسن (عليه السلام) فقال: يا أبا ولاد كيف رأيتم نجاح ما أمرتكم به وحثثتكم عليه من الدعاء على أبي الدوانيق، يا أبا ولاد: ما من بلاء ينزل على عبد مؤمن فيلهمه الله الدعاء إلا كان كشف ذلك البلاء وشيكاً، وما من بلاء ينزل على عبد مؤمن فيمسك عن الدعاء إلا كان ذلك البلاء طويلاً فإذا نزل البلاء فعليكم بالدعاء)[1].

وقد ورد عن الإمام الهادي في حق دعاء (يا من تُحَلُّ به عُقَدُ المكاره) وهو من أدعية الصحيفة السجادية: (إن آل محمد صلى الله عليهم أجمعين يدعون بهذه الكلمات عند إشراف البلاء وظهور الأعداء وخوف الفقر وضيق الصدر)[2].

---

(١) بحار الأنوار: ج ٩٠/ ص٢٩٨.

(٢) بحار الأنوار: ج ٩٢/ ص٢٢٩.

الدعاء يمنع اليأس والإحباط:

ولمنع الإنسان من الوقوع في حالة اليأس والإحباط والقنوط والاستسلام لما يصيبه فقد نبّه الأئمة سلام الله عليهم إلى أن الدعاء يبقى مؤثراً وكفيلاً بتغيير الحال حتى لو أحكم القضاء والقدر ومهما كان التغيير عسيراً قال الإمام الصادق (عليه السلام): (ادع ولا تقل: إن الأمر قد فرغ منه. إن عند الله عز وجل منزلة لا تنال إلا بمسألة، ولو أن عبدا سد فاه ولم يسأل لم يعط شيئا فسل تعط)[1] وعن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: (الدعاء يرد القضاء بعدما أُبرم إبراماً)[2].

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): (ما زالت نعمة عن قوم ولا نضارة عيش إلا بذنوب اجترحوها، إن الله ليس بظلاّم للعبيد، ولو أنهم استقبلوا ذلك بالدعاء والإنابة لم تنزل، ولو أنهم إذا نزلت بهم النقم وزالت عنهم النعم فزعوا إلى الله بصدق من نيّاتهم ولم يهنوا ولم يسرفوا:لأصلح الله لهم كل فاسد ولرد عليهم كل صالح)[3].

ظروف استجابة الدعاء:

ولا شك أن ليس كل لقلقة لسان هو دعاء بل لا بد من توفّر ظروف لاستجابة الدعاء، روي أن رجلاً من أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام) (قال: إني لأجد آيتين في كتاب الله أطلبهما فلا أجدهما، قال (عليه السلام): وما هما؟ قال الرجل: ﴿ادْعُونِيْ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فندعوه فلا نرى إجابة، قال: أفتَرى الله أخلف وعده؟

---

(١) شرح أصول الكافي: ج١٠/ ص٢٢٩.

(٢) شرح أصول الكافي: ج١٠/ ص٢٣٧.

(٣) بحار الأنوار: ج٩٠/ ص٢٨٩.

قلت:لا، قال (عليه السلام): فمه؟ قلت: لا أدري، قال (عليه السلام): لكني أخبرك: من أطاع الله فيما أمر به ثم دعاه من جهة الدعاء أجابه، قال الرجل: وما جهة الدعاء؟ قال (عليه السلام): تبدأ فتحمد الله وتمجّده وتذكر نعمه عليك فتشكره ثم تصلّي على النبي (صلى الله عليه وآله) ثم تذكر ذنوبك فتقرّ بها ثم تستغفر منها فهذه جهة الدعاء، ثم قال (عليه السلام): وما الآية الأخرى؟ قلت: قوله: ﴿وَمَا أَنفَقتُم مِن شَيءٍ فهُوَ يُخلِفُهُ﴾ وأراني أنفق ولا أرى خلفاً، قال (عليه السلام): أفتَرى الله أخلف وعده؟ قلت: لا، قال: فمه؟ قلت: لا أدري، قال: لو أن أحدكم اكتسب المال من حله وأنفقه في حقه لم ينفق درهما إلا أخلف الله عليه)[1].

إشكال ورد:

وهنا نصحح فكرة وهي أننا حينما نقول: إن لاستجابة الدعاء ظروفاً فهذا لا يعني تضييقاً في كرم الله تبارك وتعالى وأنه سبحانه يشترط شيئاً لعطائه فإن نعمه تفضلٌ ويبتدئ بها من لا يستحق كما ورد في أدعية شهر رجب (يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة)، والإنسان الكريم لا يشترط ثمناً لعطائه فكيف يشترطها الكريم الحقيقي، يقول الإمام الحسين (عليه السلام) في دعاء يوم عرفة: (إلهي تقدس رضاك أن يكون له علّة منك، فكيف يكون له علة مني)[2] وهكذا كل صفاته عز شأنه ومنها الكرم تقدست أن يكون لها علة منه تبارك وتعالى لأنها ذاتية فكيف يكون لكرمه سبب من خلقه. وإنما أراد الأئمة (عليهم السلام) بذكر تلك

(١) بحار الأنوار: ج ٩٠/ ص٣١٧.

(٢) مفاتيح الجنان: ٣٤١.

الظروف تربية الإنسان وتكامله ليسعد وليكون لائقاً بمقام العبودية لله تبارك وتعالى ومحلاً قابلاً لنزول الفيوضات الإلهية، هذا المقام الذي يفخر به أمير المؤمنين (عليه السلام) حين يقول: (إلهي كفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً، وكفى بي عزّاً أن أكون لك عبداً، إلهي أنت كما أحب فاجعلني كما تحب)[1].

ظروف الاستجابة بحسب الأحاديث:

ويمكن من خلال الأحاديث الشريفة الحصول على ظروف الاستجابة.

فمنها: زمانية، كليلة الجمعة ويومها وما بين الطلوعين وعند الزوال وأيام الأعياد كهذا اليوم وغيرها من المذكورات في كتب السنن والمستحبات.

ومنها: مكانية، كالروضات الشريفة للمعصومين (سلام الله عليهم) والمساجد خصوصاً الأربعة المعظمة وعند قبر الوالدين ونحوها.

ومنها: حالية، كحال نزول المطر وإذا كان الدعاء جماعياً وإذا كان يدعو لغيره.

ومنها: ذاتية مرتبطة بنفس الشخص، ككونه متطهراً وفي حالة السجود وبعد الصلاة خصوصاً الفريضة فإن للمؤمن دعوة مستجابة إثر كل صلاة مفروضة[2] وأن يسبق الدعاء بالحمد والثناء على الله تبارك وتعالى والصلاة على النبي وآله (صلوات الله عليهم أجمعين) وأن يعترف بذنبه ويستغفر وأن يكون متوجهاً لما يقول وليس ساهياً[3] غافلاً ويلحّ في الدعاء ولا يمل من تكراره وأن يكون بحال

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ٩٤/٩١.

(٢) عن النبي (صلى الله عليه وآله): (من أدّى فريضة فله عند الله دعوة مستجابة).

(٣) عن الإمام الصادق (عليه السلام): (إن الله لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساهٍ، فإذا دعوت فأقبل بقلبك ثم

الاضطرار ومن تقطعت به الأسباب واثقاً بالإجابة وإن تأخرت فلعل تأخيرها خير له[١] وأن يدعو لإخوانه المؤمنين أولاً بالمغفرة والرحمة وقضاء الحوائج[٢] وأن يطلب من الغير أن يدعو له[٣] خصوصاً الإمام العادل والوالدين[٤].

إن من مفاخر شيعة أهل البيت (سلام الله عليهم) هذا العطاء المبارك الوفير

استيقن الإجابة).

(١) في صحيحة البزنطي عن الإمام الرضا (عليه السلام): (والله لَمَا أخَّرَ اللهُ عن المؤمنين مما يطلبون في هذه الدنيا خير لهم مما عجل لهم منها) ثم قال (عليه السلام) له: (أخبرني عنك لو أني قلت قولاً كنت تثق به مني؟ قلت له: جعلت فداك: وإذا لم أثق بقولك فبمن أثق وأنت حجة الله تبارك وتعالى على خلقه، قال: فكن بالله أوثق فإنك على موعد من الله، أليس الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعوَةَ الدَاعِ إذا دعَانِ﴾ (البقرة:١٨٦) وقال: ﴿لا تَقنَطُوا مِن رَحمَةِ اللهِ﴾ (الزمر:٥٣) وقال: ﴿وَاللهُ يَعِدُكُم مَغفِرَةً مِنهُ وفَضلاً﴾ (البقرة:٢٦٨) فكن بالله عز وجل أوثق منك بغيره، ولا تجعلوا في أنفسكم إلا خيراً فإنكم مغفورٌ لكم).

(٢) عن النبي (صلى الله عليه وآله): (إذا دعا أحد فليعم فإنه أوجب للدعاء ومن قدم أربعين رجلاً من إخوانه قبل أن يدعو لنفسه استجيب له فيهم وفي نفسه) وعنه (صلى الله عليه وآله): (ما من مؤمن أو مؤمنة مضى من أول الدهر أو هو آتٍ إلى يوم القيامة إلا وهم شفعاء لمن يقول في دعائه: اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات وإن العبد ليؤمر به إلى النار يوم القيامة فيسحب، فيقول المؤمنون والمؤمنات: هذا الذي كان يدعو لنا فشفّعنا فيه فيشفعهم الله فينجو).

(٣) روي أن الله سبحانه أوحى إلى موسى (عليه السلام): (يا موسى ادعني على لسان لم تعصني به، فقال: أنى لي بذلك؟ فقال: ادعني على لسان غيرك)، وبذل الإمام الهادي (عليه السلام) مالاً لأحد أصحابه كي يذهب إلى كربلاء ويزور جده الحسين (عليه السلام) ويدعو له.

(٤) عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (أربع لا ترد لهم دعوة: الإمام العادل لرعيته، والأخ لأخيه بظهر الغيب يوكل الله به ملكاً يقول له ولك مثل ما دعوت لأخيك، والوالد لولده، والمظلوم يقول الرب عز وجل: وعزّتي وجلالي لأنتقمن لك ولو بعد حين).

من الأدعية التي صدرت عن أهل بيت العصمة وغطّت كل حاجات الإنسان، ولولا أنهم (سلام الله عليهم) علّمونا كيف ندعو الله تبارك وتعالى وأدب الوقوف بين يديه لما علمنا كيف نناجي ربنا، وماذا تقتضي وظائف العبودية لله العظيم سبحانه.

لقد تضمنت تلك الأدعية أرقى معاني المعرفة بالله تبارك وتعالى وأسمى الأخلاق الكريمة وأفضل العلاقات الإنسانية وأعمق العلوم مما لا يمكن صدوره عن غيرهم (سلام الله عليهم) وليتأمل من يطلب الشواهد على ذلك في الأدعية الواردة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين والإمام الحسين والإمام السجاد (سلام الله عليهم أجمعين) ومنها الأدعية التي ورد الحث على المواظبة عليها كدعاء كميل ودعاء الصباح والمناجاة الشعبانية ودعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة.

فوائد الدعاء:

إن الأدعية المأثورة لا تتلى فقط لأنها عبادة بل أفضل العبادة كما ذكرنا ولا طلباً للثواب المرصود لها وإن كان عظيماً وإنما للتزود مما فيها من علوم ومعارف، وللتعرض للنفحات والألطاف الإلهية المودعة فيها فيطلب من الله تبارك وتعالى أن يحققها له ويتحفه بها، ولمعرفة الحلول لكل المشاكل والعقد النفسية والاجتماعية والفكرية والعقائدية والأخلاقية، بل حتى السياسية والاقتصادية.

وخلاصة ما تقدم أن نكثر من الدعاء في كل صغيرة وكبيرة وأن نحرص على توفير ظروف استجابته وهي يسيرة ومتوفرة وأيسرها أن لا ننفتل من صلاتنا

المفروضة حتى نسبّح تسبيح الزهراء (عليها السلام) ونسجد شكراً لله تعالى ثم نقول: (يا أرحم الراحمين) سبعاً ونصلّي على النبي وآله أجمعين ثم نستغفر الله تعالى مما صدر منا ونطلب العصمة منه تبارك وتعالى لما يأتي وندعو لإخواننا المؤمنين والمؤمنات بحوائجهم العامة والخاصة ثم ندعو لأنفسنا.

والأفضل أن نضم إليه مجالس الدعاء الجماعي في المساجد وعقيب صلاة الجماعة وغيرها وبذلك تحققون أكثر ظروف الاستجابة المذكورة.

اللهم صل على محمد وآل محمد (صلاة لا يقوى على إحصائها إلا أنت، وأن تشركنا في صالح من دعاك في هذا اليوم من عبادك المؤمنين يا ربَّ العالمين، وأن تغفر لنا ولهم إنك على كل شيء قدير، اللهم إليك تعمدّت بحاجتي، وبك أنزلت اليوم فقري وفاقتي ومسكنتي، وإني بمغفرتك ورحمتك أوثق مني بعملي، ولَمغفرتك ورحمتك أوسع من ذنوبي، فصلّ على محمد وآل محمد وتولَّ قضاء كل حاجة هي لي بقدرتك عليها، وتيسير ذاك عليك، وبفقري إليك، وغناك عني، فإني لم أُصِب خيراً قطّ إلا منك، ولم يَصرف عني سوءاً قط أحدٌ غيرك، ولا أرجو لأمر آخرتي ودنياي سواك)[1].

وأفضل الدعاء وأكمله لسيدنا ومولانا صاحب العصر والزمان (أرواحنا له الفداء) أن يجمع الله تبارك وتعالى له الخير كله.

---

(١) الصحيفة السجادية، من دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) في يوم الأضحى.

القبس/١٨٢

سورة فُصلت:﴿٣٦﴾

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

موضوع القبس: الاستعاذة بالله تعالى من شياطين الجن والانس

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأعراف:﴿٢٠٠﴾) الا انهما تختلفان في ان الآية عنوان البحث ظاهرة في الحصر بأن الله تعالى وحده هو الذي يسمع استعاذتك واستجارتك وهو العليم الذي يعلم بحاجتك واضطرارك بينما اكتفت آية الأعراف بالوصف دون الحصر، ولذا يستحب[1] ذكر هذين الاسمين من الأسماء الحسنى في الاستعاذة فتقول مثلاً (اعوذ بالله السميع العليم من الشيطان اللعين الرجيم).

والنزغ يعني الضغط بطرف قضيب او الاصبع بعنف مؤلم واستعمل هنا بمعنى الوسوسة الباعثة على الشر لذا عرّفه الراغب وغيره بأنه الدخول في الامر لإفساده قال تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً﴾ (الإسراء:﴿٥٣﴾) وقال تعالى ﴿مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ (يوسف:﴿١٠٠﴾).

---

(١) في تفسير العياشي: ٢/ ٢٧٠/ ح٦٧، عن سماعه عن ابي عبدالله (عليه السلام) في قول الله ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل:﴿٩٨﴾) قلت: كيف أقول: قال (عليه السلام) (تقول: استعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم).

فالآية الكريمة ترشد الانسان إلى انه اذا تعرض لتسويل من النفس الامارة بالسوء وتزيين من الشيطان او اغراء من الآخرين او هيجان للشهوة او غريزة الغضب فليستعذ بالله تعالى خاصة دون غيره ويطلب منه بصدق ان يحميه من الزيغ والانحراف والاستجابة لدعوة الشيطان، ولا يتهاون بالأمر ويترك الاستعاذة والاحتراز، وأن لا يتكل على قدراته الذاتية في الاعتصام من الذنوب والاخطاء كما يتصور بعض المعتدين بأنفسهم ويجازف احياناً ويصل الى حدود الذنب - كمجالسة الفسّاق أو الخلوة بالأجنبية - ولا يمتنع من ان يحوم حول حدود المعصية معتمداً على ثقته بانه قادر على أن يملك زمام نفسه والامتناع من الوقوع فيها، ولا يعلم أنه بمفرده عاجز عن مواجهة الشيطان الخبيث الماكر الطامع، فيجب عليه بمقتضى الآية الكريمة اتخاذ اجرائين عندما تسوِّل له نفسه امراً ويزيّنه الشيطان ويتحرك فيه داعي المعصية والباعث نحو الشر: أولهما الاستعاذة ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ وثانيهما أن تكون ﴿بِاللَّهِ﴾.

يضرب بعض أهل المعرفة مثالاً ليقرِّب الفكرة فيقول لأحد تلاميذه لو أنك كنت في طريق زراعي وكان هناك قطيع من الغنم يرعاه صاحبه ومعه كلب الحراسة فنبح عليك الكلب وأراد مهاجمتك فماذا ستفعل؟ قال: ألتقط حجراً وأرميه به لزجره، قال المعلم فلو لم يرتدع الكلب وعاد الى النباح والمهاجمة قال الطالب أرميه بآخر قال المعلم فأن لم ينفع ذلك ثانيةً وثالثة ، فسكت الطالب ، وهنا قال المعلم: أما كان الاجدر بك أن تطلب من الراعي ليبعد الكلب عن طريقك فإنه قادر على توجيهه ويأتمر بأمره.

وتقريب الفكرة إننا لا نملك القدرة لوحدنا على مواجهة مكائد الشيطان

وخدعه وتسويلاته ووسوسته إلا أن نستعيذ بالله تعالى القادر عليه والماسك بزمام أمره.

روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (اذا وسوس الشيطان الى أحدكم فليستعذ بالله وليقل :آمنت بالله مخلصاً له الدين)[1].

وروى الحاكم بسنده عن سليمان بن صرد قال (استبّ رجلان عند النبي (صلى الله عليه وآله) فأشتد غضب احدهما فقال النبي (صلى الله عليه وآله): إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب:اعوذ بالله من الشيطان الرجيم فقال الرجل: امجنون[2] تراني؟ فتلا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾[3].

ولابد ان نلتفت الى ان الاستعاذة المنتجة والمؤثرة ليست مجرد لقلقة لسان بل هي حالة معنوية لابد فيها من حضور الذكر في القلب والتقوى في النفس والإخلاص في العمل، اما من كان باطنه ملوثاً فلا ينفعه تحريك اللسان بالاستعاذة، لاحظ قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:٢٠١) أي ان ذهاب مس الشيطان متوقف على التذكر، فهذه الآية مشابهة لما نحن فيه وعبرت عن النزغ بالمس ومن المقابلة يعرف ان الاستعاذة تلزم التذكر بأن تذكروا نعمة الله عليهم واستحقاق الشكر عليها

---

(١) كتاب الخصال:باب الاربعمائة.

(٢) ربما يقصد هل انه فيه مسّ من الشيطان حتى تعوذه فيه حيث كانوا يعتبرون المجنون مساً من الشيطان او انه يستنكر اعتراض رسول الله (صلى الله عليه وآله) على غضبه ولا يرى سلوكه المتعصب خارجاً عن تصرف العقلاء.

(٣) روح المعاني: ٢٤/ ١٢٥.

وتذكروا العاقبة الوخيمة لاتباع الشيطان في الدنيا والآخرة وتذكروا تفاهة ما يمنيهّم الشيطان به وان بدا مغرياً لذيذا فبهذا الذكر والحضور الوجداني لله تعالى وهذه القوة المعنوية الحاصلة له يعصمه الله تعالى من الشيطان والتي تنتجها الاستعاذة لكن ليس مجرد الكلمات الخالية من المعاني.

الا ترى ان من هاجمه حيوان مفترس فانه لا يتخلص منه بان يقف مكانه ويقول بلسانه اعوذ بهذا المكان الحصين من هذا الحيوان بل عليه ان يدخله ويغلق بابه بإحكام لينجوا، وقد وعد تعالى من يستعيذ به بالنجاة من مكائد الشيطان، قال تعالى ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (النحل:٩٩-١٠٠) وقال تعالى ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص:٨٢-٨٣) وقال تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ (الإسراء:٦٥).

ويظهر من هذه الآيات الكريمة أن أهم شروط الاستعاذة المؤثرة الإخلاص: وفي الحديث القدسي (لا إله الا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي)[1] فالإخلاص في التوحيد ونفي سائر المعبودات غير الله تعالى فلا طاعة للهوى ولا للشهوة ولا لذوي النفوذ والجاه وأصحاب الأموال وانما لله تعالى وحده فهذا هو الحصن الذي يحمي من العذاب ومكائد الشيطان والإخلاص له مراتب فيتخلص من شر الشياطين بنفس مقدار إخلاصه.

ومن شروطها: الايمان والتقوى والتوكل على الله تعالى وحده دون غيره من

(١) التوحيد للصدوق: ٢٥، بحار الأنوار: ١٣/٣، ١٩٢/٩٠.

الأسباب واستشعار معنى العبودية لله تعالى وأداء استحقاقاتها كما نطقت به الآيات المتقدمة وغيرها.

هذا من جانب الأمور القلبية، وهناك إجراءات محصّنة على صعيد العملي ففي الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (قال ابليس: خمسة ليس لي فيهنّ حيلة وسائر الناس في قبضتي: من اعتصم بالله عن نية صادقة، واتكلَّ عليه في جميع اموره، ومن كثر تسبيحة في ليله ونهاره، ومن رضي لأخيه المؤمن بما يرضاه لنفسه، ومن لم يجزع على المصيبة حين تصيبّه، ومن رضي بما قسم الله له ولم يهتمّ لرزقه)[1]. وروى الإمام الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) قال (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ألا أخبركم بشيء إن أنتم فعلتموه تباعد الشيطان منكم كما تباعد المشرق من المغرب؟ قالوا: بلى، قال: الصوم يسوِّد وجهه، والصدقة تكسر ظهره، والحب في الله والمؤازرة على العمل الصالح يقطعان دابره، والاستغفار يقطع وتينه)[2].

فهذه الشروط والملكات الباطنية التي تبرزها مثل هذه الاعمال الصالحة تجعل الحالة المعنوية قويّة وعصيّة على اختراق الشيطان. لان الوساوس الشيطانية كالجراثيم الضارة لا تخترق الا الابدان الضعيفة ذات المناعة القليلة ولا تقدر على اختراق الابدان القوية ذات المناعة العالية.

أيها الأحبة:

اننا مطالبون بالاستعاذة من الشيطان على الدوام لأنه توعدّ البشر بالقعود على

---

(١) الخصال: ٢٨٥/ ح٣٧.

(٢) أمالي الشيخ الصدوق: ١١٧/ ح١٠٢.

الصراط ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف:١٦) لحرفهم عن الاستقامة أو ردّهم ومنعهم من السير نحو الكمال كقطّاع الطرق ولا يدع الانسان حتى يجعله من اتباعه بلا فرق بين شياطين الجن والانس فان دأبهم صد البشر عن التقرب من الله تعالى ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾ (النساء:٦٠) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ﴾ (المائدة:٩١).

وتتأكد الحاجة إلى الاستعاذة اليوم اكثر، لأنّ زماننا اعقد من أي زمان مضى في كثرة ابتلاءاته وتحدياته وصعوباته وتنوع ادواتها واساليبها وقوة تأثيرها الفائقة، وقد توعدّ شياطين الأنس بإيصال آلات الافساد والضلال الى داخل غرف النوم ولا يوجد احد بمنأى منها الا من تحصّن بدرع الله تعالى الحصينة، لذا تركّز الادعية المباركة على طلب العصمة من الذنوب والقدرة على النجاح في تجاوز المحن والصعوبات من الله تعالى وعدم الاتكال على النفس والقدرات الذاتية، كدعاء الإمام السجاد (عليه السلام) في صحيفته المباركة (اللهم احْصُرْني - أي امنعني- عَن الذُّنُوبِ، وَوَرِّعْنِي عَن الْمَحَارِمِ، وَلا تُجَرِّئْنِي عَلَى الْمَعَاصِي) وفي دعاء اخر قال (عليه السلام) (وَأَوْهِنْ قُوَّتَنَا عَمَّا يُسْخِطُكَ عَلَيْنَا وَلَا تُخَلِّ فِي ذَلِكَ بَيْنَ نُفُوسِنَا وَاخْتِيَارِهَا، فَإِنَّهَا مُخْتَارَةٌ لِلْبَاطِلِ إِلَّا مَا وَفَّقْتَ، أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمْتَ)[1] تصوّروا ان الإمام (عليه السلام) الذي يقول في دعاء آخر (لا تؤدّبني بعقوبتك) أي اجعل تأديبك اياي من دون بلاء وسلب للنعم كأن يكون بالموعظة والتعليم

(١) الصحيفة السجادية: الدعاء التاسع.

والتبصّر والاستفادة من تجارب الآخرين، لكن لما لم تفلح هذه الأساليب في الردع عن المعصية يطلب الاجتناب عنها ولو بسلب بعض القوى والأدوات التي يعصي بها الانسان ربّه المنعم.

لقد تفتقت الذهنيات الشيطانية عن خطط ماكرة وخبيثة لاستدراج الشخص وايقاعه في فخ المعاصي والخطايا والذنوب كالاتصال بأجهزة النقال مع نساء لا على التعيين وخداعهن بكلمات الحب والمشاعر العاطفية الجياشة التي تنطلي على المرأة الساذجة حتى تثق بهم وتلتقي بهم او تعطيهم صورا شخصية فيهددونها بالفضيحة او ابتزازها في اعمال منكرة او اغراء الشباب بمستقبل زاهر وحياة هنيئة ليكون جزءا من فسادهم واداة لتحقيق مآربهم.

ان الله تعالى يقدّر ضعف الانسان وعجزه عن مواجهة شياطين الجن والانس فجعل له ملائكة يحفظونه ويدافعون عنه[1]، وفي بعض الروايات[2] انه لو كشف لكم الغطاء لرأيتم العدد الكبير من الشياطين الذين يحيطون بكم ويتربصون بكم، لكن الله تعالى جعل الملائكة الحافظة لدفعهم.

وجعل بلطفه وكرمه شهر رمضان المبارك الذي تُغّلَ فيه الشياطين ففي خطبة النبي (صلى الله عليه وآله) في استقبال شهر رمضان (و- إن- الشياطين مغلولة - في هذا

---

(١) راجع قبس قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد:١١)، في تفسير من نور القرآن.

(٢) في الحديث عن الإمام الباقر (عليه السلام) (اذا مات المؤمن خُلّي على جيرانه من الشياطين عدد ربيعة ومضر كانوا مشتغلين به) (الكافي: ٢٥١/٢/ ح١٠) وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (إن الشياطين اكثر على المؤمنين من الزنابير على اللحم) (بحار الأنوار: ٢١١/٨١/ح٢٧).

الشهر - فسلوا ربكم أن لا يسلطها عليكم) واذا استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا فقد فتح لهم باب التوبة ليعودوا إلى الحالة النقية الطاهرة خصوصاً في هذا الشهر الكريم حيث تغفر فيه الذنوب بدرجة لا يحرم منها الا الاشقياء (فان الشقي من حُرِمَ غفران الله في هذا الشهر العظيم)[1]، وفي رواية صحيحة عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (من لم يغفر له في شهر رمضان لم يُغفر له إلى قابل الا أن يشهد عرفة)[2].

(١) مفاتيح الجنان: خطبة النبي (صلى الله عليه وآله) في اخر جمعة من شعبان.

(٢) وسائل الشيعة: ١٠/ ٣٠٥ أبواب احكام شهر رمضان، باب ١٨/ ح٦.

القبس/١٨٣

سورة الشورى:﴿١٣﴾

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾

موضوع القبس: مسؤوليتنا عن إقامة الدين ووحدة الأمة

قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (الشورى:﴿١٣﴾).

الشرع كمصدر - هو نهج الطريق الواضح البيّن، وأطلق كإسم على المنهج الإلهي، والشارع هو الطريق الواضح وشريعة الماء: المكان السهل على جرف النهر لاستقاء الماء، وفي الآية دلالات عديدة:

١- ان أصحاب الشرائع هم هؤلاء الخمسة لأن الآية في سياق كونها جامعة وحاصرة لهم ولم تذكر غيرهم، وهؤلاء هم اولو العزم وقد ورد هذا التحديد في آيات أُخر، كقوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (الأحزاب:﴿٧﴾)، ولازم ذلك عدم وجود شريعة بمعنى الاحكام والقوانين التي تنظّم حياة البشر وترفع اختلافاتهم قبل النبي نوح

(عليه السلام) وهو معنى تفيده الآية الكريمة ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ (البقرة:٢١٣).

٢- ان الدين الذي أنزله الله تعالى إليكم - وهو الإسلام - والى الذين سبقوكم مصدره واحد وهو الله تبارك وتعالى، وهي الحقيقة التي افتتحت السورة بها، قال تعالى ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الشورى:٣) وأكدّتها آيات أخر كقوله تعالى ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ (فصلت:٤٣).

وفي ذلك لمسة روحية رقيقة تثبّت قلوب المؤمنين وتطمئنهم، خصوصاً العاملين الرساليين منهم الذين يتعرضون لضغوط اجتماعية ونفسية عظيمة بسبب حملهم رسالة الهداية والتغيير والإصلاح فيحتاجون إلى تسلية ودعم معنوي كما يقال، فتأتي هذه الآية وامثالها لتقول لهم:انكم لستم وحدكم على هذا الطريق الإلهي الواضح بل أنتم حلقة في سلسلة طويلة من كرام الخلق وسادتهم عبر تاريخ البشرية الممتد آلاف السنين ورسالتكم هي رسالة كل هؤلاء العظام، كالمعنى الذي تكشف عنه زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) المعروفة بـ ((وارث))[1] حيث تجتمع لديه وراثة جميع الأنبياء والمرسلين فيزداد المؤمنون بهذا الانتماء ثباتاً وسروراً بما وفقهم الله تعالى إليه.

واللمسة الرقيقة الأخرى قوله تعالى ﴿لَكُمْ﴾ أي ان هذه الشرائع هي لمصلحتكم ومنفعتكم في الدنيا والآخرة اما الله تعالى فإنه ﴿غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

(١) مفاتيح الجنان: ٥٠٢.

(آل عمران:﴿٩٧﴾)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر:﴿١٥﴾).

٣- وعلى غرار وحدة المصدر وهو الله تبارك وتعالى فانها تؤكد على وحدة الصادر أي مضمون هذه الرسالات بأنه واحد وان تنوعت بلحاظ الاجمال والتفصيل بحسب تكامل البشرية واستعدادها لكن ما تدعوهم اليه دين واحد فلا توجد عدة أديان لذا لم يرد ذكر الدين بالجمع في القرآن الكريم وانما تتعدّد الشرائع والمناهج والطرق الواضحة البيّنة الموصلة إليه قال تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّه مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة:﴿٤٨﴾) فأراد الله تعالى بهذا التنوع في الشرائع ليختبر طاعتكم وامتثالكم وعدم تحيّزكم وتحزبكم لشريعتكم السابقة، والدنيا دار الامتحان والاختبار.

وهذا التنوع في الشرائع مع كون اصل الدين واحد ضرورة لتواكب ما يطرأ على البشرية من تغيرات حتى جاء بالشريعة الكاملة الخاتمة، فكون الشريعة الإسلامية خاصة بالمسلمين وفق الآية الآنفة لا ينافي جامعيتها، والمطلوب منكم الالتزام بالطاعة والتسليم واستباق الخيرات.

وفي ذلك حجة على أهل الكتاب ورفض لمواقفهم العدوانية تجاه الإسلام لأنها لا مبرر لها بعد أن ثبت ان هذه الشرائع كلها يضمّها دين واحد ومن مصدر

واحد وبمحتوى واحد، وعليهم جميعاً أن يدخلوا في هذا الدين الاسلامي لأنه جامع لكل الشرائع السابقة وقيّم عليها ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (التوبة:٣٦).

٤- تلّخص الآية ما يدعو اليه الدين الجامع لتلك الشرائع ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى:١٣) فهو يركز على محورين:إقامة الدين الواحد واتحاد الأمة على أساس هذا الدين وعدم التفرق فيه لان الوحدة الحقيقية لاتتحقق الا في ظل هذا الدين وطاعة الله تبارك وتعالى ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (المؤمنون:٥٢)، فعلى جميع المؤمنين بالله تعالى أن يلتزموا بهاتين الغايتين العظيمتين وان يبذلوا جهودهم في سبيل تحقيقهما.

والتعبير ب (وصيّنا) يشعر بهذا الاهتمام إذ لا يوصى الا بالشيء المهم، لأن الوصية لغة ((التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ)) قال تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية:١٨).

وقد عبّر تعالى عن الدين بالأمر لأن الدين هو الطاعة أي طاعة الأوامر والتشريعات الإلهية.

ولعل التعبير عن شريعة النبي (صلى الله عليه وآله) بـ(أوحينا) وعن شريعة الأنبياء الآخرين بالوصيّة ((ان المراد بما أوحى إليه ما اختصت به شريعته من المعارف والاحكام، وإنما عبَّر عن ذلك بالايحاء دون التوصية، لأن التوصية كما تقدم إنما تتعلق من الأمور بما يهتم به ويعتني بشأنه خاصة وهو أهم العقائد والاعمال، وشريعته (صلى الله عليه وآله) جامعة لكل ما جلَّ ودقّ محتوية على الأهم وغيره بخلاف

شرائع غيره فقد كانت محدودة بما هو الأهم المناسب لحال أممهم والموافق لمبلغ استعدادهم))[1].

فعلينا إذن واجبان عظيمان ورسالتان يجب ان نؤديهما، هما غرض الدين وخلاصة كل الشرائع:

١- إقامة الدين والمنهج الإلهي في الحياة بكل تفاصيلها، عباداتها ومعاملاتها، وإقامة الشيء تعني توفيته حقه علماً وعملاً، فإقامة الدين تتحقق بأن يتحول الدين إلى نظام شاخص في حياتنا تكون له الهيمنة والقيمومة على كل القوانين والتشريعات والأعراف والأنظمة، وكل ما خالف الدين منها فهو عصيان لهذا الأمر الإلهي.

وإن إقامة الدين لابد أن تكون على أساس الشريعة الحاضرة الفعلية لا الشرائع السابقة ((فإن إقامة الدين في كل دور هي إقامة طاعة الله في أمره الحاضر في شرعته الحاضرة، فالتصلّب على الغابرة عصيان للأمر وتضييع للدين))[2].

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ (آل عمران:١٩) لأن الدين أصول وفروع ومنظومة كاملة من العقائد والأخلاق والتشريعات العبادية وضوابط المعاملات

(١) الميزان في تفسير القرآن:٢٨/١٨

(٢) الفرقان في تفسير القرآن:٢١٧/٢٥.

وهذه المنظومة المتكاملة لا توجد الا في الإسلام، ولا تتحقق إقامة الدين الا بإقامتها[١] معاً.

٢- وحدة الأمة وعدم التفرق تحت أي عنوان كان كالطائفة والقومية والوطن والأيدلوجية والانتماء العشائري أو الحزبي أو الاجتماعي أو الفئوي أو أي سبب كان، فان التفرق من علامات الجاهلية، وان أهم علامة لإقامة الدين اجتماعكم ووحدتكم لأنه ينظّم حياتكم بتوازن وعدالة ويسعدكم، فتفرقكم وتنازعكم يعني عدم إقامتكم الدين، وأن أقسى اختلاف يحصل بين الامة هو الاختلافات الدينية قال تعالى ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران:١٠٣)، وتفرقكم يفرح الكفّار ويدعوهم إلى التمسك بضلالهم لأنهم يرونكم متفرقين مثلهم ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم:٣٢).

والتفرق يحصل نتيجة اتباع الاهواء والشهوات والابتعاد عن الدين وتزيين المضلّين والمنحرفين وأهل البدع، وفي الحديث عن الإمام الرضا (عليه السلام) عن آبائه عن النبي (صلى الله عليه وآله) (وما على ديني من استعمل القياس في ديني)[٢] لأن استعمال القياس يعني ادخال الرأي البشري والأهواء في الدين وهو ليس منه.

---

(١) لاحظ رواية السيد عبد العظيم الحسني عندما عرض دينه بين يدي الإمام الهادي (عليه السلام) فأنه أتى على الأصول والفروع فقال له الإمام (عليه السلام) (يا أبا القاسم هذا والله دين الله الذي ارتضاه لعباده فاثبت عليه ثبّتك الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) (مستدرك الوسائل:١٢/٢٨٣).

(٢) وسائل الشيعة: ٢٧/ ٤٥.

والمطلوب في ضوء ما ذكرناه في الغاية الأولى وحدة البشرية جميعاً على الدين العالمي الخاتم الكامل فالتفرق عن هذا الدين الى ديانات أخرى وان كانت توحيدية فضلاً عن غيرها من الديانات والملل غير التوحيدية هو خروج عن سنة الله تعالى وفطرته التي أراد لخلقه السير عليها.

فالشرائع الإلهية وإن اتفقت على أصل التوحيد، الا أن هذا لابد أن يكتمل باجتماعهم على دين التوحيد أيضاً وليس فقط أصل التوحيد، ودين التوحيد هي الشريعة الخاتمة أيضاً لأنها الطريق الواضح البيّن الى الله تبارك وتعالى بعد نزولها، فاللام هنا في الدين عهدية أي هذا الدين الذي شرع لكم، وان ما اختصت به الشرائع السابقة به من احكام ثبت نسخه وارتفاعه.

وقد خاطب القرآن الكريم جميع المنتمين للرسالات السماوية بأن ادعاءهم هذا لا قيمة له اذا لم يقيموا الدين في حياتهم ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (المائدة:٦٨).

وبالتأكيد سوف لا يذعن الأعداء والحسّاد والمنتفعون لهذا الأمر ولا يقفون مكتوفي الأيدي بل سيعملون بكل ما في وسعهم لمنع تحقيق هذين الهدفين وهذا ما كشفت عنه بقية الآية محل البحث ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي عظم على أعداء الدين والمؤمنين وتحرجوا من قبول ما تدعوهم – يا رسول الله – اليه من دين التوحيد ومن اجتماع دعوة الناس جميعاً الى اجتماع على اله واحد لأنهم يريدون آلهة متعددة لكل عشيرة إله ولكل حزب إله ولكل قوم إله وفي الروايات أنه كان حول البيت الحرام (٣٦٠) صنماً يتاجرون بها ويخدعون

السذّج والجهلة وتجلب لهم المصالح والامتيازات ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (ص:٥).

وكبر عليهم ما تدعون اليه من الوحدة والوئام في ظل هذا الدين الواحد لأنهم تعودّوا أن يكونوا أحزاباً متفرقين متصارعين بسبب أنانياتهم وتعصبهم لإنتماءاتهم ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم:٣٢).

وكبر عليهم من قبلُ نزول الوحي عليك واختيارك للنبوة والرسالة مع وجود من هو أكثر مالاً واولاداً منك فهو أجدر بنزول الوحي بحسب زعمهم ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف:٣١).

وكبر عليهم ما تقوله من أنَّ آباءهم واسلافهم كانوا على ضلال وان عاقبتهم سيئة فتعصّبوا لآبائهم، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة:١٧٠).

كما كبر على أهل الكتاب خصوصاً اليهود أن يبعث نبي آخر الزمان من بني إسماعيل وليس من بني إسرائيل ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٨٩).

ولكن الله تعالى يجيبهم جميعاً في نهاية الآية الكريمة بأن هذا اختيار إلهي واجتباء لعباده المخلصين ليس خاضعاً لأهواءكم ومقاساتكم ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ وهو سبحانه من اختار النبي الأكرم محمداً

(صلى الله عليه وآله) ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام:١٢٤) واختار دينه الإسلام ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة:٣) ولكن لا يذعن بهذه الحقيقة الا من رجع الى الله تعالى بصدق وطلب منه الهدى والاستقامة فان الانسان يتمكن بإصلاح نفسه وتهذيب سلوكه ان يكون محلاً للهداية والالطاف الإلهية ﴿وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (الشورى:١٣).

ويمكن أن يكون معناها بناء على وحدة مرجع الضمير في (اليه) في المواضع الثلاثة وهو دين التوحيد ان الله تعالى ((يجمع ويجتلب الى دين التوحيد – وهو ما تدعوهم اليه – من يشاء من عباده ويهدي إليه من يرجع اليه فيكون في معنى قوله ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الحج:٧٨)))[1].

أيها الأحبّة

هذه هي مسؤوليتنا خصوصاً نحن الحوزة العملية والنخب الواعية الرسالية التي نسعى بكل طاقتنا الى ان نتشرف بالتصدي لها وحملها اسوة بالأنبياء العظام والأئمة الكرام (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) فهي وصية الله تعالى ورسالتهم جميعاً: إقامة الدين في جميع مفاصل الحياة، وتوحيد الأمة على ذلك، لأننا من أهل العلم (العلماء ورثة الانبياء)[2] ووراثتهم بحمل رسالتهم والتحرك به فلا تثنينا عن ذلك سعة التحديات وخطورة العوائق وصعوبة المشاكل، وأن لا

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٣٠/١٨.

(٢) مجموعة احاديث في ميزان الحكمة: ٦/ ١٥٠.

يثبط عزائمنا وساوس شياطين الانس والجن، ولا نحرف مسارنا مثل ما فعلت أحبار وكهنة الديانات السابقة عندما مالوا إلى الدنيا فاضطروا لتقديم التنازلات حفاظاً على مصالحهم واستمالة لاتباعهم، فلا يحقّ لنا أن ننزل بالدين إلى مستوى الناس لكسب تأييدهم لزعامات وهمية زائلة بحيث يؤدي الى تضييعه وتمييعه، وإنما يجب علينا أن نرتقي بالناس إلى مستوى الدين، واذا لم يستجيبوا فعلينا أن نضاعف الجهود ونخلص النوايا ونتجرد عن الانانيات وننوِّع آليات العمل من دون أن نتنازل عما وصى به الله تعالى أنبيائه العظام.

القبس/١٨٤

سورة الشورى:﴿٢٣﴾

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾

موضوع القبس: وجوب مودة أهل البيت (عليهم السلام) على الأمة

قال الله تبارك وتعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۞ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (الشورى:﴿٢٢﴾-﴿٢٣﴾).

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ يوم القيامة حينما تنصب موازين العدل وتعرض صحائف الأعمال تشاهد الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بفعل المعاصي خائفين وجلين من أعمالهم السيئة التي ارتكبوها وأضاعوا عمرهم فيها وسيتألمون[1] بها ومنها بعدما كانوا فرحين بها في الدنيا ويتبجحون

(١) لذلك استدل بالآية الكريمة على حضور الأعمال يوم القيامة - وعلى تعبير مؤيدي الفكرة كالسيد الطباطبائي: تجسّم الأعمال- وأنها بنفسها تكون جزاءً لصاحبها إذ لا حاجة إلى تقدير مضاف جزاء أو عقاب أو وبال ما كسبوا لأن الأصل عدم التقدير، وقد يقال بأننا لا نحتاج إلى التقدير لأن الآية ذكرت ﴿مَّا كَسَبُوا﴾ والكسب ليس نفس العمل وإنما ما يترتب عليه من جزاء وآثار ولعله الأنسب لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِم﴾ لا نفس العمل.

بها، لكن هذا الخوف لا ينفعهم ولا يرفع عنهم العذاب لأنه جاء بعد فوات الأوان ولا أثر له فالعذاب واقع بهم لا محالة، ولو خافوا في الدنيا بنحو يردعهم عن فعل المعاصي لانتفعوا منه باكتساب التقوى واجتناب المعاصي.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ وفي مقابل ذلك تخبر الآية الكريمة عن نعيم عظيم وحياة طيبة هانئة سعيدة في أجمل مواقع الجنة تمنح للمؤمنين الذين يعملون الصالحات وتعرض الصورتان مقترنتين لتكون هذه المقارنة دافعاً للالتزام بالحق وسلوك طريق الصلاح، وهو أسلوب تربوي مؤثر من باب (ازجُر المُسِيءَ بثوابِ المُحسِن)[1] قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها لعزفت نفسك عن بدائع ما أُخرج إلى الدنيا من شهواتها ولذاتها وزخارف مناظرها)[2].

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (الشورى:٢٢) فلا حاجة إلى أن يقوموا بأية مقدمات أو أسباب للوصول إلى تحقيق رغباتهم كما في الدنيا وقد لا يتحقق لهم، أما في هذه الجنان فإن مجرد إرادتهم لشيء توجب حضوره عندهم وتحققه لهم ويزيدهم هناءً أنهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (النحل:٥٧) وليس كما في الدنيا حيث كانوا يمتنعون عن بعض ما يشتهون لأنه حرام أو لعجزهم.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ فإن هذا النعيم لا ينال إلا بفضل كبير من الله تعالى فهو الذي هداهم إلى الإيمان والعمل الصالح وحببه إليهم ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ

(١) نهج البلاغة: الحكمة ١٧٤.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٦٥.

الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:٧٢) بلا شك لأنه دائم طيب لا يكدّره شيء ومحفوف برضوان من الله تعالى، حيث لا يقاس به نعيم الدنيا الزائل المنغّص بعوارضها وأسقامها.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (الشورى:٢٣) هذا الإخبار لزّف هذه البشرى إلى الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ووصفهم بأنهم عباده لتشريفهم بهذه الإضافة.

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ هذه الهداية العظيمة التي أفاضها الله تعالى على عباده وأوجبت لهم هذه النعم كانت بواسطة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأداءه للرسالة الإلهية، لم يطلب (صلى الله عليه وآله) عليه أجراً، لأن عمله خالص لله تبارك وتعالى، وكل ما يريده هو نفعهم وفوزهم وفلاحهم وسعادتهم رحمة بهم، فأجره (صلى الله عليه وآله) على الرسالة يعود عليهم ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ (سبأ:٤٧) وما قيامه (صلى الله عليه وآله) بهذا العمل المضني إلا ليذكّر جميع الناس بمسؤولياتهم إزاء النعم العظيمة التي منّ الله تعالى بها عليهم وما فيه كمالهم ورقيّهم ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:٩٠).

وهذا المبدأ عبَّر عنه جميع الأنبياء (صلوات الله تعالى عليهم) بوضوح، وحكاه الله تعالى في سورة الشعراء عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب فقالوا جميعاً بلسان واحد: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء:١٠٩-١٢٧-١٤٥-١٦٤-١٨٠) لأنهم عباد مخلصون لله تعالى، وهكذا كان المعصومون من أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله) ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً﴾ (الإنسان:٩) وكان الأنبياء (عليهم السلام) بعد كل آية فيها

عدم سؤال الأجر يقولون: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الشعراء:١٠٨) أي أنهم لا يريدون من الناس شيئاً إلا أن يصبحوا مؤمنين صالحين مطيعين لله ورسوله، كالأستاذ الذي يجعل أجره على الطالب أن يجدّ ويجتهد في درسه.

لذلك يوبخ الله تعالى الذين لم يتّبعوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولم يطيعوه بأنهم مم يخافون؟ وما هو سبب امتناعهم عن اتباع الرسول (صلى الله عليه وآله)؟ إذا كان لا يريد منهم أي جزاء على هدايتهم إلا ما يعود لهم ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ (الطور:٤٠).

﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ والمودة هي المحبّة والميل إلى الشيء والملائمة معه والاطمئنان إليه، ومن الأسماء الحسنى ﴿الْوَدُودُ﴾ (البروج:١٤) وهي صفة يمكن أن تكون بمعنى اسم الفاعل واسم المفعول لأنه تعالى يحب أولياءه وهم يحبّونه ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة:٥٤).

وقيل في الفرق بين الحب والودّ: (أن الحب يكون فيما يوجبه ميل الطباع والحكمة معاً، والوداد من جهة ميل الطباع فقط، ألا ترى أنك تقول: أحبُّ الصلاة ولا تقول: أودّ الصلاة)[1].

أقول: فكأن اختيار لفظ المودة من الآية أن الفطرة النقية والطبع السليم يقتضي محبة قربى النبي (صلى الله عليه وآله) والميل إليهم لاجتماع صفات الجمال والكمال فيهم.

---

(١) الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري: ١٧٤، ط. مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة.

والمودة لكي تكون صادقة لابد أن تكون عن معرفة، وهي لا تنال إلا بتوفيق إلهي ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ (مريم:٩٦).

والمراد بالقربى: قربى الرسول (صلى الله عليه وآله) ولكن ليسوا كلهم كما فهم الصحابة وإنما مجموعة خاصة من قربى النبي (صلى الله عليه وآله) لقوله تعالى: ﴿فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى:٢٣) الدالة على الظرفية لا أزيد فكأنها بمعنى (من التبعيضية) أي أن المودة فيهم وليس لهم جميعاً، إذ لم يقل: للقربى حتى يمكن إفادتها العموم، كما أن قوله (صلى الله عليه وآله): (الأئمة في قريش)[1] لا تعني أن كل قريش أئمة بل إن الإمامة فيهم لا في غيرهم، بل قيل أن هيئة (فُعلى) تفيد وجود المبدأ فيكون معناها القرابة القريبة، كما أن النبي (صلى الله عليه وآله) لا يتحدث بصفته الشخصية حتى يراد بهم كل أقربائه النسبيين، وإنما بصفته نبياً مرسلاً بدين قيّم خالد، فقرباه هم المؤهلون لحمل الرسالة من بعده، وقد فهم الصحابة هذا المعنى لذا سألوا النبي (صلى الله عليه وآله) عنهم في الرواية الآتية إن شاء الله تعالى.

ولعل اشتراط المودة لأن الحب هو المحرّك لطاعة المحبوب (إن المحب لمن أحبَّ مطيعُ)[2]، وإلا فإن المطلوب ليس هو مجرد الحب، وإنما طاعة من أمر الله تعالى بمودتهم باعتبارهم السبيل إلى الله تبارك وتعالى.

فاختصَّ النبي (صلى الله عليه وآله) من بين الأنبياء بهذا الاستثناء المتصل أو المنقطع، وهو طلب اشترطه على الأمة وهو المودة في القربى.

---

(١) بحار الأنوار – العلامة المجلسي: ٢٥/ ١٠٤/ ح١.

(٢) تحف العقول – ابن شعبة الحراني: ٢٩٤.

وهؤلاء القربى مخصوصون اختارهم الله تعالى لحمل الرسالة ومواصلتها واستمرار هداية الناس إلى الله تبارك وتعالى، فهذا الطلب ليس عاطفياً بهدف إثارة الشفقة نحو القربى لرعايتهم، وبه يُردّ الإشكال على هذا التفسير بأن طلب مودة القربى مما يوجب التهمة، فإنه لم يطلبه لنفسه وإنما أمره الله تعالى أن يقول ذلك ﴿قُلْ﴾، فهو تخطيط إلهي لاستمرار القيادة الربانية بأقرب الناس إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) طهراً وسمواً ومكانة وعملاً ومنهجاً لحفظ الرسالة وديمومتها وإتقان أدائها.

وهذا الأجر يعود عليهم بالنفع ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ (سبأ:٤٧) وليس عوضاً حقيقياً على أداء الرسالة؛ لأن فيه ضماناً لاستمرار هدايتهم وصلاحهم وبه كمال الدين وتمام نعمة الإسلام كما في آية المائدة، لذا لا تتم الرسالة إلا به والتفريق بين النبي (صلى الله عليه وآله) وخلفائه الذين أمر بمودّتهم يؤدي إلى الضياع.

وقد وضحت آية الفرقان ذلك ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (الفرقان:٥٧)، وكلا الآيتين تفيدان الحصر فلا بد أن يكون المراد واحداً وإلا حصل تناقض، فالقربى الذين أمر الله تعالى بمودتهم واتباعهم هم السبيل الموصل إلى الله تعالى.

وقد استفاضت الروايات بل تواترت[١] من طرق الفريقين وهي تدل على أن المراد بالقربى في الآية الكريمة هم أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله) الذين غطّاهم بكسائه وقرأ عليهم آية التطهير ولم يسمح حتى لزوجته الفاضلة العارفة أم سلمة أن تدخل معهم، وهم علي وفاطمة والحسن والحسين (صلوات الله عليهم أجمعين).

منها ما رواه في الدر المنثور عن جمع والمحب الطبري وأحمد في مسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: (لمّا نزلت ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ قالوا: يا رسول الله، مَن قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال (صلى الله عليه وآله): علي وفاطمة وابناهما (صلوات الله عليهم أجمعين))[٢].

وروى المحب الطبري أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (إن الله جعل أجري عليكم المودة في أهل بيتي وإني سائلكم غداً عنهم)[٣].

وفي صحيحي مسلم والبخاري أن ابن عباس سُئل عن القربى في الآية فقال: (قربى آل محمد صلوات الله تعالى عليهم)[٤].

---

(١) أحصى في (غاية المرام: ٣/ ٢٣٠ -٢٤٤) في الباب الخامس سبعة عشر حديثاً من طرق العامة وفي الباب السادس اثنين وعشرين حديثاً من طرق الخاصة، وفي (تفسير الفرقان: ٢٥/ ٢٥٠) قائمة طويلة بمصادر العامة التي روت الحديث.

(٢) فضائل الصحابة لابن حنبل: ٢/ ٨٨٣، ح١١٤١، ذخائر العقبى: ٢٥، وفي تفسير الرازي وابن كثير والدر المنثور عند تفسير الآية ومجمع الزوائد لابن حجر :٧/ ١٠٣ عند تفسير الآية و٩/ ١٦٨ في كتاب المناقب، نور الأبصار للشبلنجي: ١٠١، وشواهد التنزيل للحسكاني وغيرهم.

(٣) ذخائر العقبى: ٢٥.

(٤) صحيح البخاري: ٦/ ٢٣١، صحيح مسلم: ج٥ عند تفسير الآية.

وفي الدر المنثور: أخرج البخاري عن أبي بكر قال: (راقبوا محمداً (صلى الله عليه وآله) في أهل بيته)[١]، وأخرج عن أبي سعيد أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (من أبغضنا أهل البيت فهو منافق)[٢] وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): لا يبغضنا أحد ولا يحسدنا أحد إلا ذيد عن الحوض يوم القيامة بسياط من نار)[٣].

أقول: لوضوح هذا المعنى وحقانيته فقد نظمه الشافعي في أبيات:

يَا رَاكِباً قِفْ بِالْمُحَصَّبِ مِنْ مِنًى ... واهْتِفْ بِقَاعِدِ خَيْفِهَا وَالنَّاهِضِ

سَحَراً إِذَا فَاضَ الْحَجِيجُ إِلَى مِنىً ... فَيْضاً كملتطمِ الْفُرَاتِ الْفَائِضِ

إِنْ كَانَ رَفْضاً حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ ... فَلْيَشْهَدِ الثَّقَلانِ أَنِّي رَافِضِي[٤]

وقال الكميت الأسدي:

وجدنا لكم في آل حاميم[٥] آيةً ... تأوّلها منّا تقيٌّ ومُعربُ[٦].

ومن جملة ما ورد عن طريقهم ما أخرجه محمد بن جرير بسنده في كتاب المناقب: (إن النبي (صلى الله عليه وآله) قال لعلي (عليه السلام): اخرج فناد: ألا من ظلم أجيراً أجرته فعليه لعنة الله، ألا ومن تولّى غير مواليه فعليه لعنة الله، ألا ومن سب أبويه فعليه لعنة

---

(١) الدر المنثور: ٧/ ٣٤٩. وفي البخاري: (ارقبوا محمداً في أهل بيته).

(٢) الدر المنثور: ٧/ ٣٤٩.

(٣) الدر المنثور: ٧/ ٣٤٩.

(٤) الصواعق لابن حجر العسقلاني: ٧٩، حليه الأولياء لابي نعيم: ٩/ ١٥٢.

(٥) هي الآية ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى:٢٣) والحواميم هي السور التي ابتدأت بقوله تعالى: ﴿حم﴾.

(٦) التقي من عمل بالتقية، والمعرب من أظهر مذهبه علانية.

الله، فنادى بذلك فدخل عمر وجماعة على النبي (صلى الله عليه وآله)، وقالوا: هل من تفسير لما نادى؟، قال: نعم إن الله يقول: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فمن ظلمنا فعليه لعنة الله، ويقول: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ومن كنت مولاه فعلي مولاه، فمن والى غيره وغير ذريته فعليه لعنة الله، وأشهدكم أنا وعلي أبوا المؤمنين، فمن سبّ أحدنا فعليه لعنة الله، فلما خرجوا قال عمر: يا أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله) ما أكد النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي بغدير خم ولا غيره أشد من تأكيده في يومنا هذا، قال خبّاب بن الأرتّ: كان ذلك قبل وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) بتسعة عشر يوماً)[1].

أما الإمامية فقد اتفقوا على أن المراد بالقربى الذين تجب مودتهم هم أهل البيت (عليهم السلام) الذين طهرّهم الله تعالى ولهم في ذلك روايات كثيرة، روى البرقي في المحاسن بسنده عن محمد بن مسلم قال: (سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: إن الرجل يحب الرجل ويبغض ولده فأبى الله عز وجل إلا أن يجعل حبنا مفترضاً أخذه من أخذه، وتركه من تركه واجباً فقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾)[2].

---

(١) غاية المرام: ٣٠٦، عن المناقب لأبن جرير: حاشية شواهد التنزيل للحسكاني: ٢/ ١٩٦، ذيل الرقم ٨٢٨.

(٢) المحاسن: ١/ ١٤٤.

ومما ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة (وَبِمُوالاتِكُمْ تَمَّتِ الْكَلِمَةُ، وَعَظُمَتِ النِّعْمَةُ، وَائْتَلَفَتِ الْفُرْقَةُ، وَبِمُوالاتِكُمْ تُقْبَلُ الطّاعَةُ الْمُفْتَرَضَةُ، وَلَكُمُ الْمَوَدَّةُ الْواجِبَةُ، وَالدَّرَجاتُ الرَّفيعَةُ)[1].

أقول: يظهر من هذه الروايات أن أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) فهموا من الآية عدة دلالات:

أ- وجوب مودة القربى حيث جعلت أجراً على الرسالة، فإن ثبوت الأجر يلزم منه وجوب الوفاء به، لذا قال الصحابة: (مَن قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟).

ب- أن المراد ليس جميع أقرباء النبي (صلى الله عليه وآله) وإنما مخصوصون منه يكون لهم من المنزلة العظيمة ما تصلح مودتهم أن تكون أجراً للرسالة، وهم بذلك أفضل الناس بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأكملهم وأحق بولاية الأمر بعده.

ت- إن هذه المودّة من أعظم الواجبات الإلهية لكونها معادِلة للرسالة وقد عبّر حديث الثقلين عن هذه التوأمة والاقتران بحيث لا يصل الناس إلى الله تعالى إلا بالأخذ بهما معاً.

ومما تقدم نعلم ضعف الأقوال الأخرى التي أوردها مفسرو العامة[2] وربما رووا عن ابن عباس معاني غير ما تقدم فنسبوا إليه قوله: (كان لرسول الله (صلى الله عليه وآله) قرابة من جميع قريش فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه، قال: يا قوم: إذا أبيتم أن

(١) مصابيح الجنان: ٤٥٤.

(٢) عرضها وناقشها السيد الطباطبائي (رضوان الله تعالى عليه) في الميزان: ١٨/ ٤٣-٤٨.

تبايعوني فاحفظوا قرابتي منكم ولا يكون غيركم من العرب أولى بحفظي ونصرتي منكم)[1].

وفيه: أن قريشاً كذّبت برسول الله (صلى الله عليه وآله) فكيف يطلب منهم أجراً وإنما يصح ذلك ممن آمن به، والدعوة الإسلامية ليست عصبية جاهلية ولا عشائرية ولا قومية ثم إن هذا المعنى مخالف لما عُرف عن ابن عباس مما نقلناه وقد ردّ مفسرو العامة قبل الخاصة على هذه الأقوال، وذكر الرازي في تفسيره وجوهاً لكون المقصودين بالقربى هم أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله) خاصة، ونقل عن صاحب الكشاف قول النبي (صلى الله عليه وآله): (مَن مات على حب آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تُزَفُّ العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد (صلى الله عليه وآله) فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة)[2].

---

(١) الدر المنثور: ٧/ ٣٤٦.

(٢) الكشاف: ٤/ ٢٢٠-٢٢١، تفسير الرازي: ٢٧/ ١٦٥-١٦٦، تفسير القرطبي: ٨/ ٥٨٤٣، تفسير الثعلبي.

وقد عمل أعداء أهل البيت (عليهم السلام) والأمويون والعباسيون وغيرهم على تضليل الناس وصرفهم عن أهل البيت (عليهم السلام) وإنكار مناقبهم ومنها توسيع المراد إلى كل قربى الرسول (صلى الله عليه وآله) من قريش لإعطاء شرعية وقدسية لملكهم فتصدى الأئمة (عليهم السلام) لتكذيبهم، روى الشيخ الكليني بسنده عن إسماعيل بن عبد الخالق قال: (سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول لأبي جعفر الأحول وأنا أسمع: أتيتَ البصرة؟ فقال: نعم، قال: كيف رأيت مسارعة الناس إلى هذا الأمر ودخولهم فيه؟ قال: والله إنهم لقليل ولقد فعلوا وإن ذلك لقليل، فقال: عليك بالأحداث فإنهم أسرع إلى كل خير، ثم قال: ما يقول أهل البصرة في هذه الآية: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؟ قلت: جعلت فداك إنهم يقولون: إنها لأقارب رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقال: كذبوا إنما نزلت فينا خاصة في أهل البيت في علي وفاطمة والحسن والحسين أصحاب الكساء (عليهم السلام))[1].

وروى البرقي في محاسنه بسنده عن حجاج الخشاب قال: (سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول لأبي جعفر الأحول ما يقول من عندكم في قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؟ فقال: كان الحسن البصري يقول: في القربى من العرب، فقال أبو عبد الله (عليه السلام) لكني أقول لقريش الذين عندنا هاهنا خاصة، فيقولون: هي لنا ولكم عامة، فأقول: خبروني عن النبي (صلى الله عليه وآله) إذا نزلت به شديدة من خصّ بها؟ أليس إيانا خص بها حين أراد أن

(١) الكافي: ٨/ ٩٣/ ح٦٦، قرب الإسناد: ١٢٨/ ح ٤٥٠.

يلاعن أهل نجران أخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام)، ويوم بدر قال لعلي وحمزة وعبيدة بن الحارث، قال: فأبوا يقرون لي، أفلكم الحلو ولنا المرّ؟)[1].

وفي ضوء هذا نفهم تفسير الإمام (عليه السلام) للجزء الأول من الآية ٢٢ ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ (الشورى:٢٢) أنهم من ظلموا آل محمد (صلى الله عليه وآله) حقهم فهم خائفون مما ارتكبوا وعملوا من السيئات لكن ذلك الخوف لا يدفع عنهم العذاب فإن ما يخافونه واقع بهم[2] فإن الظالمين هم من أعرضوا عن دين الله تعالى وتركوا طاعة نبيه (صلى الله عليه وآله) وقد ورد في الحديث الشريف عن الإمام أبي جعفر (عليه السلام): (بني الإسلام على خمس: على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية)[3].

فمن ضيّع الولاية فإنه لم يوفق إلى السبيل الموصل إلى الله تبارك وتعالى لأن أهل البيت (عليهم السلام) هم السبيل، وفي دعاء الندبة (ثُمَّ جَعَلْتَ اَجْرَ مُحَمَّدٍ صَلَواتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَوَدَّتَهُمْ في كِتابِكَ فَقُلْتَ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ وَقُلْتَ ﴿ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْر فَهُوَلَكُمْ﴾ وَقُلْتَ: ﴿ما أَسْاَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْر إلاّ مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إلى رَبِّهِ سَبيلاً﴾، فَكانُوا هُمُ السَّبيلَ إِلَيْكَ وَالْمَسْلَكَ إلى رِضْوانِكَ)[4].

---

(١) تفسير نور الثقلين:٤/ ٥٧١/ ح٦٣، محاسن البرقي: ١/ ١٤٤.

(٢) تفسير القمي: ٢/ ٢٧٤، البرهان: ٨/ ٢٩٩.

(٣) شرح أصول الكافي: ٨/ ٦١.

(٤) مفاتيح الجنان: ٦٠٧.

وسوف يندم من لم يمضِ على منهج أهل البيت (عليهم السلام) حيث ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ۞ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً ۞ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ (الفرقان:٢٧-٢٩) أن السبيل مع الرسول هو علي بن أبي طالب[١] (عليه السلام)، فمن لم يتولاه يعضّ على يديه من الندامة لأنه تخلّف عن دخول الباب إلى مدينة علم رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب)[٢].

﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً﴾ والاقتراف: الاكتساب، فمن يكتسب حسنة بفعل يرضي الله تبارك وتعالى فإن الله تعالى سيجزيه بأحسن منها بأن يجعل ثوابها دائماً طيباً جالباً للسعادة وسالماً من النقائص والمكدّرات ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النور:٣٨)، روي أن الإمام الحسن السبط المجتبى (عليه السلام) خطب الناس حين قُتِل أبوه أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى أن قال: (وإنّا أهل بيت افترض الله مودتهم على كل مسلم حيث يقول: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً﴾ فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت)[٣] وقد روي عن الإمام الباقر

(١) راجع مجموعة الأحاديث في البرهان: ٧/ ٩٥.

(٢) بحار الأنوار: ٤٠/ ٢٠٣.

(٣) البرهان: ٨/ ٣٠٢، عن مجمع البيان: ٩/ ٤٤، مسترك الحاكم: ٣/ ١٧٢، الصواعق المحرقة: ١٧٠، المحب الطبري في ذخائر العقبى: ١٣٨.

(عليه السلام) في تفسيره قال: (الاقتراف: التسليم لنا، والصدق علينا وألّا يكذب علينا)[١]، وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (لا تستصغروا مودتنا فإنها من الباقيات الصالحات)[٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يمحو السيئات ويشكر الفعل الحسن لصاحبه فيثيبه بأحسن منه، ومن مظاهر هذه الأحسنية محو السيئات وتبديلها إلى حسنات حتى لا يبقى ما ينغّص حياته الطيبة الهنيئة ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ (الأعراف:٤٣).

ويعبّر الإمام الرضا (عليه السلام) عن ألمه من عدم وفاء الأمة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) بأجره، روى الشيخ الصدوق بسنده عن الريّان بن الصلت أن الإمام الرضا (عليه السلام) قال في إحدى مناظراته في مجلس المأمون بمرو: (فأنزل الله تعالى هذه الآية على نبيه ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فقام رسول الله (صلى الله عليه وآله) في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها الناس (إن الله عز وجل قد فرض لي عليكم فرضاً فهل أنتم مؤدُّوه؟ فلم يجبه أحد، فقال: يا أيها الناس: إنه ليس بذهب ولا فضة ولا مأكول ولا مشروب، فقالوا: هاتِ إذن، فتلا عليهم هذه الآية، فقالوا: أما هذا فنعم، فما وفى فيها أكثرهم)[٣].

وفي مقابل هؤلاء فقد جاد الزمان بمؤمنين موالين ملئت قلوبهم بحبِّ أهل البيت (عليهم السلام) والاندفاع في مودتهم وطاعتهم والتضحية من أجل ترسيخ وجودهم

---

(١) الكافي: ١/ ٣٢١/ ح ٤.

(٢) بحار الأنوار: ٤٧/ ٣٤٠، نقلاً عن الاختصاص: ٨٦.

(٣) البرهان: ٨/ ٣٠٣، عن عيون أخبار الرضا: ١/ ٢٣٣/ ح ١، وعن قرب الإسناد ٢٨.

ونشر مبادئهم وقدّموا التضحيات الجسيمة وفاءً لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وأداءً لأجره، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (لو أحبني جبل لتهافت)[١] وقال (عليه السلام): (من أحبَّنا أهل البيت فليعد للبلاء جلباباً)[٢] وتوجد أمثلة سامية من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين (عليه السلام) والحسين (عليه السلام) حتى قال فيهم الشاعر:

لبسوا القلوب على الدروع وأقبلوا يتهافتون على ذهاب الأنفس[٣]

وهذا لا يتحقق إلا لدى المحبّين الولهين.

وهكذا إلى زماننا المعاصر حيث بلغ عدد الشهداء والسجناء والمهجرين والمعذّبين الملايين من الرساليين والرساليات لا يسعنا إلا أن نقف لهم إجلالاً فبوركوا من ثابتين على العهد و﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ (الرعد:٢٩).

إن مما نظهر به مودتنا لأهل البيت (عليهم السلام) إقامة مجالس ذكرهم قال الإمام أبو عبد الله (عليه السلام): (إن ذكرنا من ذكر الله)[٤] وإحياء شعائرهم ومن أهمها زيارة أمير المؤمنين (عليه السلام) يوم الغدير عيد الله الأكبر ففي ذلك نصرة لحق أمير المؤمنين (عليه السلام) وخيبة لأعدائه وتثبيتاً على الصراط المستقيم.

---

(١) نهج البلاغة: ٤/ ٢٦.

(٢) غرر الحكم: ٩٠٣٧.

(٣) أعيان الشيعة – السيد محسن الأمين: ٦٠٣/١.

(٤) الكافي: ٢/ ١٨٦.

القبس/١٨٥

سورة الشورى:﴿٣٠﴾

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾

حقيقة قرآنية تكشف عن واحدة من السنن الإلهية الجارية في العباد، فالمصيبة هي النازلة والنائبة التي تحل بالإنسان وسُميت بذلك لأنها تصيب الإنسان المقصود والمستهدف بها وتحقق الغرض المطلوب كما يصيب السهم الهدف بدقة، وسياق الآية ظاهر في كون المراد من ﴿كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ خصوص السيئات والمعاصي وستأتي الإشارة إلى احتمال آخر بإذن الله تعالى، والباء سببية.

فيكون معنى الآية ان المصائب التي تنزل بكم أيها الناس في دينكم أو أنفسكم أو أهليكم أو أموالكم أو امتيازاتكم وسائر ما أنعم الله به عليكم من نعم معنوية ومادية هي بسبب بعض ما صدر منكم من الذنوب وليس كلها، لأن الله تعالى ﴿يَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ ابتداءاً بالفضل أو جزاءاً على عمل صالح، قال تعالى ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ (النساء:﴿٣١﴾).

وكون المصائب بسبب افعالكم لا يلغي كونها من عند الله وبإذن الله لأنه تعالى مسبب الأسباب ومدبّر الأمور فالأسباب طولية، فالمصائب تقع بسبب أفعال العباد المباشرة وغير المباشرة لكن بإذن الله تعالى وبفعل القوانين التي جعلها الله تعالى للموجودات ولو شاء سبحانه لدفع عنهم ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ لكن الله تعالى يتركهم أحياناً أهدافاً للسهام التي اعدّوها هم لأنفسهم لتصيبهم بفعل

القوانين الطبيعية التي جعلها الله تعالى، كمن يسقط من شاهق بفعل الجاذبية الأرضية فتتكسر عظامه فان ما أصيب به نتيجة فعله ولو شاء الله تعالى لعطّل قانون الجاذبية كما عطّل قانون الاحراق للنار التي اوقدت للنبي إبراهيم (عليه السلام) لكن حكمة الله تعالى اقتضت جريان قانون الجاذبية لتستقر الحياة وتنتظم، قال تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (التغابن:١١).

ومن هنا يتضح الفرق بين السيئة التي فيها رفع يد وعدم دفع من الله تعالى وبين الحسنة التي هي بتوفيق وتمكين مباشر من الله ومن عند الله قال تعالى ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ۞ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ (النساء:٧٨-٧٩).

وقد أضاف الله تعالى مزيداً من فضله بأن جعل هذه البلاءات التي تمرّ على الانسان بسبب أفعاله أو أفعال المجتمع كفارة لذنوبه وعلواً في درجاته، لذا دلّت بعض الروايات على ان هذه الآية من أكثر الآيات الكريمة التي تعيد الأمل والرجاء إلى العاصين لما تضمنّته من البشارة بسقوط الكثير من الذنوب بالمصائب والبلاءات أو العفو والمغفرة ابتداءاً بإذن الله تعالى ففي مجمع البيان والدر المنثور عن علي (عليه السلام) قال (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) (خير آية في كتاب الله هذه الآية: يا علي ما من خدش عود ولا نكبة قدم الا بذنب، وما عفا الله عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعود فيه، وما عاقب في الدنيا فهو أعدل من ان يثني على عبده)، وروي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله (إني احدثكم بحديث ينبغي لكل مسلم أن يعيه:ما

عاقب الله عبداً مؤمناً في هذه الدنيا الا كان أحلم وأجود وأمجد من أن يعود في عتابه يوم القيامة)[1].

فالآية فيها تطمين بكرم الله تعالى ورحمته اذ إن ما يحل بهم من مصائب هو بعين الله تعالى وفيه تخفيف للذنوب والاوزار التي تثقل الظهر، والله تعالى شفيق رؤوف بعباده فيختار لهم الحال الذي يناسب صلاحهم، ففي مجمع البيان: روى أنس عن النبي (صلى الله عليه وآله) عن جبرئيل عن الله جل ذكره (إن من عبادي من لا يصلحه الا السقم ولو صححته لأفسده، وإن من عبادي من لا يصلحه الا الصحة ولو اسقمته لأفسده، وإن من عبادي من لا يصلحه الا الغنى ولو أفقرته لأفسده، وذلك أني ادبّر عبادي لعلمي بقلوبهم)[2].

وفيها تحذير أيضاً من اقتراف المعاصي لأنها ستكون سبباً لتعرضهم لمزيد من البلاء في الدنيا فاذا أرادوا دفع هذا البلاء أو تقليله فليتجنبوا أسبابه وهي الذنوب، فهذا التحذير رحمة أخرى بالإنسان وشفقة عليه، روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله (توقوا الذنوب، فما من نكبة ولا نقص رزق الا بذنب حتى الخدش والكبوة والمصيبة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ وأوفوا بالعهد إذا عاهدتم، فما زالت نعمة ولا نضارة عيش الا بذنوب اجترحوها ان الله ليس بظلام للعبيد، ولو أنهم استقبلوا ذلك بالدعاء والإنابة لما نزلت، ولو أنهم إذا نزلت بهم النقم وزالت عنهم النعم فزعوا

(١) نور الثقلين: ٤/ ٥٨٠/ ح٩٤.

(٢) مجمع البيان- الشيخ الطبرسي: ٥٢/٩.

إلى الله عز وجل بصدق من نياتهم ولم ينهوا ولم يسرفوا لأصلح لهم كل فاسد ولرد عليهم كل صالح.)[١] وعن الإمام الصادق (عليه السلام) (إن العبد اذا كثرت ذنوبه، ولم يكن عنده من العمل ما يكفّرها، ابتلاه بالحزن ليكفرها)[٢] وعلى هذا فالآية عامة للمؤمنين والكافرين.

وهنا تثار عدة أسئلة حول مضمون الآية:

الأول: كيف نطّبق الآية على ما يصيب الأنبياء والائمة (عليهم السلام) من البلاءات وهم معصومون من الزلل والذنب؟ أو الأطفال الذين هم دون سن التكليف مثلاً؟ والجواب يمكن أن يكون بوجوه:

١. ان يقال ان المعصومين (عليهم السلام) خارجون من موضوع الآية وهم الناس الذين يكونون عرضة للمعاصي بعد ان علمنا ان المقصود بها المصائب التي تحصل بسبب الذنوب فالمخاطب بها من يجوز صدور المعصية منه، والأئمة (عليهم السلام) معصومون منها فهم خارجون من الخطاب أصلاً أي تخصصاً لا تخصيصاً.

وان بلاءاتهم تكون لرفع مقاماتهم عند الله تبارك وتعالى ففي الكافي بإسناده عن علي بن رئاب[٣] قال (سألت أبا عبدالله (عليه السلام) عن قول الله عزوجل ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أرأيت ما أصاب علياً وأهل بيته (عليهم السلام) من بعده أهو بما كسبت أيديهم وهم أهل بيت طهارة معصومون؟ فقال (عليه السلام):إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يتوب إلى الله ويستغفر في كل يوم وليلة

---

(١) نور الثقلين: ٤/ ٥٨٢/ ح١٠١، عن كتاب الخصال في باب الاربعمائة.

(٢) أصول الكافي: ج٢، كتاب الايمان والكفر، باب تعجيل عقوبة الذنب، ح٢.

(٣) بحار الأنوار- المجلسي: ١٨٠/٧٨.

مائة مرة من غير ذنب، إن الله يخصُّ اولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها) وفي قول النبي (صلى الله عليه وآله) لسبطه الحسين (عليه السلام) (إن لك عند الله مقامات لن تنالها الا بالشهادة)[1].

فبلاءاتهم (سلام الله عليهم) مشمولة بخطاباتها المناسبة فقد ورد عن أميرالمؤمنين (عليه السلام) قوله (إن البلاء للظالم أدب وللمؤمن امتحان وللأنبياء درجة وللأولياء كرامة)[2] وهذا مستفاد من الحوار الذي جرى بين الإمام زين العابدين (عليه السلام) والملعون يزيد، حينما أُدخل أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله) على يزيد فقال للإمام السجاد (عليه السلام) متشفياً شامتاً:يا علي:ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم) فأجاب (عليه السلام) (كلا، ما نزلت هذه فينا، إنما نزل فينا ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد:٢٢ –٢٣) فنحن الذين لا نأسى على ما فاتنا من أمر الدنيا ولا نفرح بما أوتينا)[3]. فيمكن ان يكون البلاء للتزهيد في الدنيا وزيادة التبصرة في حقيقتها.

٢. ان يقال ان الخطاب في الآية ليس موجهاً لأفراد الناس بما هم افراد أي لكل فرد على حدة بل بما هم مجموع فالعموم هنا مجموعي وليس استغراقياً، أي أن ما أصابكم كمجتمع من بلاءات خاصة أو عامة كالمجاعة والزلازل والفتن

(١) ينابيع المودة لذوي القربى، للقندوزي: ج٣/ ص٤٦.

(٢) بحار الانوار: ٨١/ ١٩٨.

(٣) نور الثقلين: ٤/ ٥٨٠، عن تفسير علي بن إبراهيم.

الداخلية والعدوان الخارجي ونحو ذلك هي بسبب ما صدر من بعضكم من معاصي وسكوت أو رضا بعض آخر فأصاب البلاء الجميع بلا استثناء حتى من لم يكن من هذين القسمين ويكون البلاء رحمة للمؤمنين ونقمة على الكافرين، وحينئذٍ يكون ضمير (كم) في (أصابكم) أعم من (كم) في (أيديكم) لان الأول يشير إلى الكل والثاني إلى البعض، وتكون حينئذ الآية بمعنى قوله تعالى ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال:٢٥) وقوله تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم:٤١). وفي الحديث الشريف عن محمد بن عرفة قال (سمعت أبا الحسن الرضا (عليه السلام) يقول:لتأمرن بالمعروف، ولتنهن عن المنكر، أو ليستعملن عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم.)[1].

٣. أن نقول كأطروحة ان ﴿مَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ تشمل الحسنات أيضاً فتكون المصائب التي تقع على الصالحين هي بما كسبت أيديهم ولكن من الحسنات لأنها تثير حسد الأعداء وتوغر صدورهم ويزين لهم الشيطان الانتقام من الصالحين بألوان الظلم والعدوان قال تعالى ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ (النساء:٥٤) فتكون اصابتهم في سبيل الله على يد أعداء الله ويكون للآية حينئذٍ دور في تخفيف الآم ومعاناة الصالحين والعاملين الرساليين بأن ما يصيبهم نتيجة نجاحهم وتألقهم.

---

(١) وسائل الشيعة: ٢١١٣٠.

الثاني: ان المعروف ان الدنيا دار عمل ولا حساب، والآخرة دار حساب ولا عمل فكيف حصل الجزاء في الدنيا؟ والجواب يكون بأكثر من وجه أيضاً:

١. ان هذا المعنى المعروف صحيح في الجملة وعلى القاعدة الا أنه ليس بشكل مطلق ولا يمنع من حصول جزاء في الدنيا تخفيفاً على العبد واشفاقاً عليه حتى لا يتعذب بها في الآخرة كما أسلفنا والأول لا يقارن بالثاني كما في دعاء أمير المؤمنين (عليه السلام) المعروف بدعاء كميل (وَأَنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفِي عَنْ قَلِيلٍ مِنْ بَلاءِ الدُّنْيا وَعُقُوباتِها..)[١] (فَكَيْفَ احْتِمالِي لِبَلاءِ الآخِرَةِ وَجَلِيلِ وُقُوعِ المَكارِهِ فِيها، وَهُوَ بَلاءٌ تَطُولُ مُدَّتُهُ..)، أو تحذيراً للعبد حتى يراقب نفسه أكثر ويجتنب المعاصي.

كما أن الانتقال إلى الآخرة لا يمنع من استمرار العمل ووصول الأجر على العمل ففي الحديث الشريف (اذا مات المؤمن انقطع عمله الا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)[٢] وقال النبي (صلى الله عليه وآله) (من سن سنة حسنة فله اجرها واجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء)[٣].

٢. ان هذه المصائب ليست جزاءاً للأعمال وإنما هي آثار طبيعية لها اقتضتها العلاقات الوثيقة والسنن الكونية الرابطة بين المخلوقات والقوانين اذ تؤكد الآيات الشريفة ان الناس كلما وافقوا النظام الكوني وانسجمت طاعتهم للقوانين التشريعية مع انقيادهم للقوانين الكونية فانهم سينالون بركات كثيرة وان خالفوها أصابتهم

---

(١) مفاتيح الجنان: ٩٦.

(٢) البحار: ج٢/ ص٢٢، جامع الأخبار: ص١٠٥.

(٣) جامع أحاديث الشيعة- السيد البروجردي: ج١٤/ ص٢٧.

الكوارث قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف:٩٦).

ويظهر هذا الارتباط الوثيق من قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّه لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١) فأن حالهم في جميع نواحي الحياة المادية والمعنوية يتغير من الصلاح إلى الفساد وبالعكس بحسب سلوكهم هم في هذا الاتجاه او ذاك.

هذا بغضّ النظر عمّا تقتضيه بعض الاستثناءات أحياناً كالابتلاء لرفع الدرجات أو اغداق النعم للاستدراج ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (الأعراف:٩٥).

الثالث: ان مقتضى الآية حينئذٍ عدم بقاء ذنوب على الناس لأنها بين مكفّرة بالمصائب أو مُعفى عنها فلا يؤاخذون على ذنب في برزخ او قيامة وهو خلاف ما دلّ على وجود العذاب والمؤاخذة في القبر وفي القيامة، قال تعالى ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران:١٨٥) وقال تعالى ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّه النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (النحل:٦١) فكل مظلمة وذنب يؤاخذ بها في البرزخ أو القيامة الا ما غفرت بالتوبة أو تذهب بحسنة أو بشفاعة في الآخرة ونحو ذلك، ويزداد الاشكال في الكافرين باعتبار شمول الآية للمؤمنين

والكافرين.

والجواب:

١. لا مانع من الالتزام بعدم بقاء ذنوب على من محصّهم البلاء وطهرهمّ في الدنيا ولو لخصوص المؤمنين بفضل الله تعالى وكرمه وقد ورد هذا المعنى في بعض الروايات كقول النبي (صلى الله عليه وآله) (لا يزال البلاء في المؤمن والمؤمنة في جسده وماله وولده حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة)[1].

٢. ان الآية لا تفيد هذا المعنى لأنها بصدد بيان الترابط بين الذنوب وآثارها الوضعية في الدنيا بإصابته بأنواع البلاء وليست بصدد بيان المجازاة على الأفعال مع ملاحظة العفو عن كثير بلطف الله تعالى وكرمه حيث جعل اسباباً لتكفير الذنوب والعفو عنها كالصدقة والدعاء والاستغفار وفعل الحسنات ونحو ذلك.

وفي الختام ينبغي الانتباه إلى ان هذه المعنى للآية لا يبرّر الاستسلام للمصاعب والمشاكل وعدم السعي لمعالجتها وإزالتها بإذن الله تعالى على أساس أن الله تعالى أرادها أن تكون كذلك فهذا فهم غير مستقيم، وإنما على المؤمن التوسل بالأسباب لدفع الضرر والاذى والسوء، فاذا لم ينجح في دفعها لاحظ المعنى المذكور في الآية وحينئذٍ تحصل له حالة الندم على فعل المعصية فيستغفر منها ويعقد العزم على عدم العودة إليها.

فتكون الآية وسيلة تربوية ناجحة لعودة الانسان إلى رشده وإعادة الأمل إليه، وتكشف عن مظهر من مظاهر الرحمة الإلهية.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٧/ ٢٣٦/ ح٥٤، وأحاديث أخرى في ميزان الحكمة: ٣/ ٣٨٥.

القبس/١٨٦

سورة الزُخرف:﴿٥٤﴾

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾

موضوع القبس: قابلية الشعوب على الاستعباد

لو قرآنا الآية بمعزل عن السياق لكان ظاهرها ان فرعون أمر قومه ان يخفوا ويسرعوا لنصرته ويبادروا للخروج معه للقضاء على النبي موسى (عليه السلام) واتباعه وهم أطاعوه واستجابوا لدعوته التي اشير اليها في قوله تعالى ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (الشعراء:﴿٥٣﴾) وبهذا المعنى ورد في خطبة السيدة الزهراء (عليها السلام) في مسجد أبيها (صلى الله عليه وآله) (وأطْلَعَ الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً)[1] بعكس التثاقل الذي يعني التباطؤ والتكاسل قال تعالى ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ (التوبة:﴿٣٨﴾).

لكننا لو قرآنا الآية ضمن سياقها فإنها تعني ان فرعون استخف بعقول قومه ووجدهم سلسي القياد طائشين نزقين لا حكمة لهم ولا رشد ولا وعي ولا بصيرة ينعقون مع كل ناعق فمضى في مشروعه الاستكباري والاستعلائي واستعباد الناس وتسييرهم وفق هواه، وهم صدّقوا ظنه فيهم حين أطاعوه ورضوا بحالة العبودية

(١) الاحتجاج: ١/١٣٠.

فهي هنا كما في قوله تعالى ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (الروم:٦٠) أي لا يذهبن بحلمك وعقلك ما يفعله المشركون.

وتعلّل الآية الكريمة هذه الحالة عند قوم فرعون بأنهم كانوا فاسقين خارجين عن حدود العقل والفطرة ومجردين من الخصائص الإنسانية الكريمة، ورضوا لأنفسهم حياة الذل والهوان والعبودية، والفسق لغةً هو الخروج، وفي لغة العرب (فسق الرطب) إذا خرج عن قشره، وفي المصطلح: الفسق هو الخروج عن حدود الشريعة والعقل والفطرة.

وهذا يعني انهم لو لم يكونوا فاسقين خارجين عن صراط الحق طائعين لأهوائهم لما استطاع فرعون ان يستعبدهم ويستخف بهم، فالمظالم والكبائر التي يرتكبها الطغاة ليسوا فقط هم المسؤولين عنها، وإنما تتحمل الشعوب جزءاً من المسؤولية إزاء ما يحلّ بها لأنها مكنّتهم من ذلك بفسقها وانحرافها، واستسلموا لخداع ومكر الزعامات والمتسلطين، فأعانوا عدوهم – من شياطين الانس والجن – على أنفسهم، أما المؤمنون المتبعون للقيادة الحقة فأنه يصعب خداعهم وسوقهم.

فالآية تقدّم لنا حقيقة سبق اليها القرآن الكريم وقررّها قبل ان يتوصل اليها علماء الاجتماع بعد قرون طويلة وهي ان الشعوب المستضعفة والمستعبدة من قبل الطواغيت او القوى الخارجية المحتلة لا تسقط في هذه الانتكاسة إلا لأنها تتوفر فيها قابلية الاستعباد، وعلى تعبير بعضهم قابلية الاستعمار، وعلى تعبير آخر:قابلية الاستحمار لان الشعوب حينئذٍ تُقادُ الى حيث يريد مستعبدوها بلا بصيرة ولا وعي وإدراك لمصيرها البائس الذي تسير اليه بحيث تغفل هذه الشعوب عن أشد

المظالم وأوضح الجرائم بحقها وتصرّ على السير خلف الظالمين المستبدين فيسوقونهم الى الموت ويسلبون أموالهم ويُسخرونهم لتحقيق نزواتهم وهم يصفّقون لهم ويقدسونهم ويطيعونهم طاعة عمياء.

والتأمل في سلوك فرعون مع شعبه الذي حكته الآيات الشريفة السابقة يشير الى الأساليب التي يتبعها الطواغيت والمستكبرون لتدجين الشعوب واستخفافها وهي لا تختلف عن أساليب اليوم إلا من حيث الشكل والأدوات التي تتغير تبعاً للزمان وإلا فالحقيقة واحدة.

قال تعالى ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۞ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۞ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۞ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف:٥١-٥٤).

والأساليب هي:

١- سلب حالة الوعي والادراك والفطنة التي عبّر عنها القرآن الكريم بـ(البصيرة) وتكريس حالة الجهل والتخلف والانقطاع عن أسباب المعرفة الحقيقية والاهتمام بالقشور وقلب موازين التقييم من معنوية حقيقية جوهرية الى مادية سطحية زائفة وهكذا ضمن عملية غسل دماغ تسلب عقولهم ووعيهم ويتحولون الى قطيع منفذ للأوامر، ولذا قال لهم ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ فدعاهم الى النظر الحسّي ولم يدعوهم الى التأمل والتدبر والتفكر لئلا تظهر الحقائق ويُفتضح المخادع، والأمور التي دعاهم فرعون الى إبصارها قريبة محسوسة أما موسى

(عليه السلام) فيدعوهم الى الايمان بامورٍ غيبيةٍ بعيدة عن إدراك الناس الغافلين.

وتحاط عملية غسل الدماغ احياناً بالقدسية والخطوط الحمراء التي لا تقبل النقاش، وهنا يكون دور لعلماء الدين المحبين للدنيا والواجهات المؤثرة في المجتمع (السحرة ومعبرو الاحلام في قوم فرعون) لإضفاء هذه القدسية وشرعنة ما يفعله الطغاة وإدامة سلطتهم وهيمنتهم وإحكام الطوق على الشعوب المستعبدة باسم الدين وشعائره، لكن أي دين؟ لقد وصفهم أمير المؤمنين (عليه السلام) بأنهم (لبسوا الإسلام لبس الفرو مقلوباً)[1].

وهذا ما يدفع الزعامات الحريصة على مواقعها الى استخدام كل أساليب البطش والقسوة المادية والمعنوية بحق المصلحين الواعين الذين ينهضون لإيقاظ الأمة وتبصرتها وترشيد سلوكها، وتحريرها من الاغلال والآصار التي تُحجرّ على عقولهم وتلّوث باطنهم وفطرتهم[2].

٢- استحقار الآخر (فرداً او شعباً) والاستهزاء به لسحق شخصيته وإظهار عجزه وضعفه ليقتنع بأنه مخلوق ليكون تابعاً لغيره فموسى (عليه السلام) عند فرعون (مهين) لأنه من بني إسرائيل المستضعفين المواطنين من الدرجة الثانية الذين لا يحق لهم العمل إلا في المجالات المتدنية كرعي الأغنام وخدمة الأغنياء والمترفين، وكان المظهر الخارجي لموسى (عليه السلام) متواضعاً قال أمير المؤمنين في وصفه (وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ (عليه السلام) عَلَى فِرْعَوْنَ

(١) شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد: ج٧/ ص١٩١.

(٢) راجع قبس قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف:١٥٧)، في تفسير من نور القرآن.

وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ فَشَرَطَا لَهُ إِنْ أَسْلَمَ بَقَاءَ مُلْكِهِ وَدَوَامَ عِزِّهِ فَقَالَ أَلا تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ وَبَقَاءَ الْمُلْكِ وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ فَهَلا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ إِعْظَاماً لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ وَاحْتِقَاراً لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ)[1].

ووصفه فرعون ثانية بأنه (ولا يكاد يبين) مستغلاً ما كان معروفاً عن موسى (عليه السلام) قبل خروجه من مصر بأنه كانت له عقدة في لسانه فلا يكاد يبّين ما يريد قوله بوضوح فخدعهم بهذه الحالة التي كانت قبل بعثه بالنبوة، فلما بعثه الله تعالى بها شكى حاجته ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ (الشعراء:١٣) ﴿وَأَخِى هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَاناً﴾ (القصص:٣٤) ودعا ربّه بإطلاق لسانه ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝ يَفْقَهُوا قَوْلِى﴾ (طه:٢٧- ٢٨) وقد

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢ ويشير الإمام (عليه السلام) الى الحكمة في ذلك، وقال (عليه السلام) (وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذَّهْبَانِ وَمَعَادِنَ الْعِقْيَانِ وَمَغَارِسَ الْجِنَانِ وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ وَوُحُوشَ الْأَرَضِينَ لَفَعَلَ وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلَاءُ وَبَطَلَ الْجَزَاءُ وَاضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ وَلَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلَيْنَ وَلَا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا لَزِمَتِ الْأَسْمَاءُ مَعَانِيَهَا وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ وَضَعَفَةً فِيمَا تَرَى الْأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلَأُ الْقُلُوبَ وَالْعُيُونَ غِنًى وَخَصَاصَةٍ تَمْلَأُ الْأَبْصَارَ وَالْأَسْمَاعَ أَذًى وَلَوْ كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَا تُرَامُ وَعِزَّةٍ لَا تُضَامُ وَمُلْكٍ تُمَدُّ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ وَتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحَالِ لَكَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الِاعْتِبَارِ وَأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الِاسْتِكْبَارِ وَلَآمَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ فَكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الِاتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ وَالتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ وَالْخُشُوعُ لِوَجْهِهِ وَالِاسْتِكَانَةُ لِأَمْرِهِ وَالِاسْتِسْلَامُ لِطَاعَتِهِ أُمُوراً لَهُ خَاصَّةً لَا تَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ وَكُلَّمَا كَانَتِ الْبَلْوَى وَالِاخْتِبَارُ أَعْظَمَ كَانَتِ الْمَثُوبَةُ وَالْجَزَاءُ أَجْزَلَ).

استجاب الله تعالى دعاءه وأطلق لسانه ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ (طه:﴿٣٦﴾).

٣- إقناعهم بحاجتهم لهؤلاء المستكبرين وانهم لا يستطيعون الحياة بدونهم وخلق حالة رعب وقلق وخوف (فوبيا) من البديل ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ كان نهر النيل والانهار والجداول المتفرعة عنه التي روي انها وصلت الى ٣٦٠ فرعاً مصدر حياة المصريين ورخائهم وازدهارهم وفخرهم وعزتهم، فصّور لهم ان هذه الشبكة الإروائية تجري بأمره ووفق تدبيره وهي تحت سلطته وقدرته، وموسى (عليه السلام) لا يملك شيئاً من هذا والذهاب معه يحرمكم من هذه العزة والرخاء.

٤- خلق حالة الانبهار به لدى الطرف الآخر وجعله باهتاً امام هذه الجبروت والعظمة التي هي زائفة في الحقيقة فتأخذ بألباب الناس ومجامع قلوبهم وعقولهم ويكون غاية هم الناس أن ينالوا شيئاً من فتات دنياهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ وحالة الانبهار تولد تبعية وانقياد لما أنبهر به:ولا يفكر المنبهرون حينئذٍ في الخروج عن طاعتهم فضلاً عن التفكير في إزالتهم وإقامة النظام البديل.

فالمستكبرون يوهمون الناس بأن من يتطلّع الى القيادة والأمرة لابد ان يكون كالفراعنة متزيناً بالذهب والفضة ويملك الثروة طائلة، وهذا غاية الاستخفاف بالناس أن يجعل دليل صدق النبوة والسفارة الإلهية وتبليغ رسالة الله

تعالى حيازته للثروة والذهب والاعراض عن الآيات والبينات التي جاءهم بها وهو نفس إشكال قريش في الآية (٣١) من سورة الزخرف ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

وكان سرد هذه الحكاية عن آل فرعون هو موعظة وتحذير لقريش من سلوك هذا المنهج الضال، ولا شك ان عملية الإصلاح في المجتمع المترف اقتصادياً والمستقر يكون أصعب ويواجه عقبات جمة ورفضاً من عامة الناس فضلاً عن المتسلطين.

وكرّر فرعون الاشكال الذي أثارته الأمم المكذّبة على انبيائها بأن الله تعالى لو شاء أن يبعث رسولاً لجعله ملكاً ولو اختاره انساناً فلابد أن تأتي معه الملائكة ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً﴾ (الإسراء:٩٢).

ولم يغب عن فرعون إثارة النعرات والعصبيات الجاهلية بقوله (يا قوم) وهم الاقباط المتسيّدون قوم فرعون لعزل موسى ومن معه من بني اسرائيل.

وهنا يأتي قوله تعالى ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ وفيه إشارة الى ان فرعون كان يعرف انه مخادع وأن أدلته لا قيمة لها لكنه استخف بعقول قومه واستصغر شأنهم واستعمل وسائل الخداع والمكر مع الاغراء والترهيب فوجدهم طائعين ومسلّمين له.

هذا السلوك الفرعوني هو ديدن الطواغيت والمستكبرين والطامحين الى الزعامة والتسلط على رقاب الناس في كل زمان ومكان وأدواتها في تطور مستمر، لاحظ سلوك الحكومات الغربية تجاه شعوبنا الإسلامية من أجل السيطرة عليها وسلب خيراتها والتحكم في شؤونها مما يسمى بالاستعمار، فهم يسحقون شخصية

هذه الشعوب ويشعرونها دائماً بالدونية وجعلهم مستهلكين غير قادرين على بناء حضارة متينة قادرة على البقاء والتقدم وإن كانوا من حيث المظاهر المادية في أرقى صورها - كدول الخليج مثلاً - فهم دائماً مرتهنون لأولئك المتحكمين.

كما استطاعوا أن يبهروا شعوب المنطقة بإبراز مظاهر التقدم العلمي والتكنولوجي وهذا الانبهار أدى الى الانسياق وراء كل ما يصدرّونه الينا من تقاليد وأفكار وسلوكيات كشرب الخمر والانحلال الخلقي تحت شتى العناوين وإشاعة الفاحشة باسم الفن او الرياضة او الحرية، والبحث عن اللهو والعبث واللعب وهكذا في سائر أنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، حتى سوقوا أكثر الجرائم انحطاطاً كزواج المثليين بقوانين رسمية تحت عنوان الحرية الشخصية وامثالها والاعتداء على الإسلام ورسوله الكريم محمد (صلى الله عليه وآله) بذريعة حرية التعبير عن الرأي وأمثالها من الامور التي جعلوها مقدسة لا يجوز المساس بها ما دامت تصب في مصالحهم بينما يعاقبون بشدة من يتحدث بمظالمهم ويفضح ادعاءاتهم - كمعاداة السامية - ولا يشفع له حرية التعبير عن الرأي.

واستغلوا أنس الناس الغافلين بالماديات المحسوسة وسرعة التصديق بها لينكروا الغيبيات وما وراء المادة، والناس لا تفرّق بين ما يدرك بالحواس المادية وما يدرك بالعقل والفطرة الإنسانية السليمة. ولجعل الشعوب في غفلة دائمة وإشغال فكرهم اعتمدوا سياسة الالهاء تارة بالسباقات الرياضية التي ما ان تنتهي واحدة حتى تبدأ الأخرى، وبالحرية الجنسية وبوسائل التواصل الاجتماعي وتقنيات وسائل الاعلام

والمواقع الالكترونية وشبكة الانترنت التي تقدّم باستمرار الجديد والمثير والجذّاب فينشغل الناس بهذه ولا يفكرون في مناقشة أوضاعهم الاجتماعية وإصلاحها ولا يبقى عندهم وقت للتأمل والتدبر قال تعالى ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (الأنبياء:٢-٣).

خذ مثلاً تصويت أغلب البريطانيين قبل أيام[1] لصالح انسحابهم من الاتحاد الأوربي مع انه قرار ليس لصالحهم لكن الدوائر الاستكبارية التي تريد تمزيق الاتحاد الأوربي نجحت في خداع هذه الاغلبية بالأكاذيب والمخاوف المفتعلة والغريب ان البريطانيين بعد أن صوتوا للخروج ذهبوا بالملايين الى المواقع الإلكترونية ليسألوا عن ماهية الاتحاد الأوربي والفوائد التي تجنيها بريطانيا من بقاءها فيه، فكيف صوتوا وهم لا يعرفون شيئاً عن أصل الموضوع.

وفي الختام نشير الى ان علاج هذه الحالة –أي قابلية الاستعباد– التي تؤسس للانحطاط يبدأ باجتثاثها من عقل الانسان وقلبه ونفسه وقد اختصره أمير المؤمنين (عليه السلام) بقوله (لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً)[2] أياً كان هذا الغير:أهواء النفس الأمّارة بالسوء او الطواغيت والزعامات المصطنعة، أو شياطين الجن والانس.

---

(١) تاريخ القاء القبس ٢٧/ رمضان/١٤٣٧هـ- الموافق ٢٠١٦/٧/٣م.

(٢) غرر الحكم: ح١٠٣٧١.

القبس/١٨٧

سورة الأحقاف:﴿١٣﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾

موضوع القبس: الاستقامة

لنستفد من القرآن الكريم:

البعض يقرأ القرآن بلسانه طلباً للثواب الذي أفادته الروايات الكثيرة، والبعض يقرأ القرآن بعقله ليستخرج منه نظرية علمية أو يستدل به على مطلب ما، كاستدلال الأصولي بآية النفر[1] على حجية خبر الواحد، أو استدلال النحوي على بعض القواعد الإعرابية، والبعض يقرأ القرآن ليتدبر في آياته، ويثير مكنوناته ليأخذ منه علاجاً لأمراضه المعنوية، وبرنامجاً لسيره التكاملي لنيل رضا الله تعالى.

فالذي يريد أن يكون من المفلحين الفائزين بما عند الله تبارك وتعالى يجد وصفة العلاج المتضمنة لعدة فقرات في قوله تعالى في أول سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ.. ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۞ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا

(١) يعني بها سماحة الشيخ (دام ظله) قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة:﴿١٢٢﴾) والاستدلال بها مذكور في كتب أصول الفقه.

خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون:١-١١). وهكذا الآيات التي تصف عباد الرحمن أو المتقين وغيرهم.

مفردة الاستقامة:

واليوم نقف عند آية مباركة تتحدث عن امتيازات جليلة ومنن عظيمة وهي قوله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ (فصلت:٣٠-٣١-٣٢) ووردت بتفصيل أقل في موضع آخر ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأحقاف:١٣) فنحن أما مفردة قرآنية هي (الاستقامة) تتحقق بها آثار عظيمة نطقت بها آية سورة فصلت.

تتنزل عليهم الملائكة فتطمّئنهم أن لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وقد قيل في الفرق بين الخوف والحزن أن الأول من الأمور القادمة والثاني من الأسى على ما مضى، فلا يخافون من القادم في القبر أو أهوال يوم القيامة أو مما يخوفونهم به في الدنيا بسبب رفضهم الانصياع لما سوى الله تعالى من طواغيت أو تقاليد اجتماعية وغيرها، ولا يحزنون على ما فاتهم في الدنيا من أمورها الزائلة، لأنهم سيجدون أن الله تعالى قد عوّضهم بكرمه بما هو خير وأبقى.

وقيل إن ((الخوف إنما يكون من مكروه متوقع كالعذاب الذي يخافونه والحرمان من الجنة الذي يخشونه، والحزن إنما يكون من مكروه واقع وشر لازم

كالسيئات التي يحزنون من اكتسابها، والخيرات التي يحزنون لفوتها عنهم، فتطيّب الملائكة أنفسهم أنهم في أمن من أن يخافوا شيئاً أو يحزنوا لشيء فالذنوب مغفورة لهم والعذاب مصروف عنهم))[1].

ثمرات الاستقامة:

وتبشّرهم الملائكة بالجنة التي وُعدوا بها على لسان القرآن الكريم والناطقين به (صلوات الله عليهم أجمعين) بما تتضمن من نِعم وما لا عين رأت ولا أذن سمعت خالدين فيها.

وتتولى أمورهم الملائكة بإذن الله تعالى مدبر الأمور وليسوا هم البشر الضعيف الجاهل الضال العاجز عن أن يتولى أموره، وإذا تولّتها الملائكة فإنها لا تأتي إلا بالخير وترعاهم وتداريهم أكثر مما تداوي الأم الشفيقة ولدها،وتجنّبهم كل سوء، في كل المواطن التي يحتاج فيها إلى المعونة حيث لا ناصر إلا الله تعالى في صعوبات الدنيا وعند سكرات الموت وعندما يترك وحيداً في قبره وفي أهوال القيامة وعتباتها، وتعوّضهم عما سيفقدونه من إخوان وأصدقاء وأصحاب بسبب استقامتهم على الحق وسقوط الآخرين وابتعادهم عن الاستقامة، كما نُسِب إلى أبي ذر (رضي الله عنه): (ما ترك الحق لي صديقاً)[2].

لهم في الجنة ما تشتهي أنفسهم بل أوسع من ذلك فلهم كل ما يتمنون من النعم المعنوية والحسّية من دون أن يطلبها، عن الإمام الباقر (عليه السلام) من حديث عن

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، تفسير الآية ٣٠ من سورة فصلت.

(٢) بحار الأنوار: ١٨٠/٣١.

نعم الله تعالى في الجنة قال (عليه السلام) فيه:(فإذا دعا وليُّ الله بغذائه أُتي بما تشتهي نفسه عند طلبه الغذاء من غير أن يسمي شهوته)[1] وهكذا ما يدّعي.

وأعظم النعم التي ذكرتها الآية الكريمة لهم أنهم يَحُلُّون ضيوفاً عند الله الغفور الرحيم معززين مكرمين مرَحَّباً بهم وتكون النُزُل التي تقّدم للضيوف كما يليق بأي ضيف كريم عند الرب العظيم.

هذه المواهب الجليلة لا تُعطى للإنسان لمجرد أن يؤمن بالله تعالى بلسانه من دون استقامة على التوحيد ورفض الخضوع والانقياد لكل الآلهة المصطنعة من دونه، وأولها النفس الأمّارة بالسوء، وهذا أمر طبيعي، إذ لا يبقى للتوحيد معنى إذا لم يستقم عليه، ويلتزم بمتطلباته.

والإيمان الحقيقي يدعو إلى الاستقامة وهي من ثمراته كما يدعو إلى العمل الصالح، قال أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد أن تلا الآية الشريفة المتقدمة: (وقد قلتم ﴿رَبُّنَا اللهُ﴾ فاستقيموا على كتابه، وعلى منهاج أمره، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته، ثم لا تمرقوا منها، ولا تبتدعوا فيها، ولا تخالفوا عنها، فإن أهل المروق منقطع بهم عن الله يوم القيامة)[2].

معنى الاستقامة:

وفي ضوء كلمة أمير المؤمنين (عليه السلام) يظهر أن الاستقامة تتضمن عدة معانٍ:

(أولها) الثبات وعدم الميلان والانحراف تحت ضغط الشهوة أو الخوف أو

---

(١) الكافي: ٩٩/٨.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة (١٧٦).

الحرص على منصب أو المجاملة أو التقليد ونحوها فيخرج عن حد الاستقامة، في حديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعد أن تلا هذه الآية قال (صلى الله عليه وآله):(قد قالها الناس – أي كلمة الإيمان – ثم كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فهو ممن استقام عليها)[1]، فعلامة الاستقامة عدم الزيغ والانحراف باتجاه المعصية أو التقصير في الطاعة، يقول الإمام الصادق (عليه السلام) في معنى قوله تعالى: ﴿اهدِنَا الصِرَاطَ المُستَقِيمَ﴾ يعني أرشدنا إلى لزوم الطريق المؤدي إلى محبّتك، والمبلّغ إلى جنتك، والمانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب، أو أن نأخذ بآرائنا فنهلك)[2].

(ثانيها) المداومة على الطاعة وعمل الخير والاستمرارية فيه، إذ لا

يصل الإنسان إلى الهدف بمجرد وضع قدمه على الطريق الصحيح بل لا بد من الحركة الصحيحة باستمرار على الطريق الصحيح، عن علي (عليه السلام) في معنى قوله تعالى﴿اهدِنَا الصِرَاطَ المُستَقِيمَ﴾: (يعني أدِم لنا توفيقك الذي أطعناك به في ماضي أيامنا، حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا)[3].

(ثالثها) الاعتدال فلا إفراط ولا تفريط، لأن كلاً منهما ابتعاد عن الاستقامة، قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (هود:١١٢) والطغيان هو الخروج عن حد الاعتدال.

(رابعها) الوضوح في الإيصال إلى الهدف فلا شبهات ولا شكوك ولا

---

(١) مجمع البيان في ذيل تفسير آية (٣٠) من سورة فصلت.

(٢) معاني الأخبار: ص٣٣.

(٣) معاني الأخبار: ص٣٣.

غموض ولا التفاف ولا حيرة أو تردد، كما أن من صفات استقامة الطريق ذلك ليتحقق المطلوب منه بشكل كامل ولا يضل السائر عليه.

(خامسها) الإخلاص، فالاستقامة لا تكون إلا إذا كانت لله تبارك وتعالى وعلى الصراط الذي أمر باتباعه، وليس لنيل غاية معينة من شهرة أو مال أو منصب أو جاه، قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ لا كما تشتهي ولا أي نحو آخر.

صعوبة الاستقامة:

إن الوصول إلى النجاح أو القمة أيسر من الثبات عليها والمحافظة على التمسك بها، وهذا معروف لدى المتنافسين في كل المجالات وهو أمر شاق لا ينال إلا بلطف من الله تبارك وتعالى، لذا يظهر من الآية الشريفة أن الخطوة الأولى من العبد بأن يستقيم وحينئذٍ يستحق مزيداً من اللطف الإلهي فتنزل عليه الملائكة لتتولى أمره وتقوده إلى الخير، وتثبته على الاستقامة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً﴾ (النساء:٦٦).

ويكون الأمر أشق حينما يكلَّف الإنسان بأن يأخذ بيد من معه في طريق الاستقامة، قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (هود:١١٢)، روى في الدر المنثور بسنده عن الحسن (عليه السلام) قال: (لما نزلت هذه الآية: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ﴾ قال (صلى الله عليه وآله): شمِّروا شمِّروا، فما رؤي ضاحكاً) وفي مجمع البيان في قوله تعالى ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ ((قال ابن عباس: ما نزل على رسول الله (صلى الله عليه وآله) آية كانت أشدَّ عليه ولا أشقّ من هذه الآية، ولذلك قال لأصحابه - حيث قالوا له: أسرعَ إليك الشيب يا

رسول الله-: (شيّبتني هود والواقعة))[1].

وأرجع البعض سبب ذلك إلى تكليفه بمن معه، لأن آية أخرى أمرت بالاستقامة وليس فيها هذا الذيل فلم يذكرها رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وهو قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ﴾ (الشورى:١٥).

فالمسؤوليات شاقة وعديدة، إذ عليه الاستقامة في كل لحظة وفي كل قول وفعل، وهو أمر شاق، وأن يكون كل ذلك خالصاً لله تعالى وهو أشق، ثم عليه أن يقوّم الآخرين على هذا الطريق على اختلاف طباعهم وتباين مستوياتهم وتنوع اتجاهاتهم، وتتسع هذه المسؤولية وتزداد المشقة بسعة من كلّف بقيادتهم، حتى تكون بمستوى ولاية أمر المسلمين، وبمستوى المواجهة التي نشهدها اليوم حيث برز الشرك والكفر والفسوق والظلم والاستبداد بكامل عدته وعدده.

لنحقق الاستقامة:

هذه الاستقامة على الصراط الذي ارتضاه الله تعالى وسار عليه الصالحون من عباده، علّمنا الله تبارك وتعالى أن نسأله إياها ونطلبها منه يومياً عشر مرات على الأقل في صلاتنا، لأنه متضمن لكل خصال الخير قال تعالى: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾ (الفاتحة:٦)، ويعرفنا الله تبارك وتعالى بهذا الصراط ويدلنا على معالمه فيصفه بأنه: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾ (الفاتحة:٧) ومَن هؤلاء

---

(١) سورة الواقعة ليس فيها أمر بالاستقامة ومما قيل في وجه الاشتراك مع سورة هود أنها متشابهة في ذكر أهوال يوم الفصل وأحوال القيامة الأمر الذي يخشاه رسول الله (صلى الله عليه وآله) على أمته لما علمه من عدم استقامة الكثير منهم على الصراط من بعده رغم أنهم أقروا بالإيمان بالله لساناً.

الذين أنعم الله عليهم؟، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّه وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَـعَ الَّذِيـنَ أَنْعَمَ اللُّه عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً﴾ (النساء:٦٩).

فالاستقامة تتحقق بطاعة الله تبارك وتعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله) ومَن أمر بطاعته بعده وهم الأئمة المعصومون (عليهم السلام) ثم نوّابهم بالحق، فاتباع القيادة الدينية الحقة ضمان للبقاء على الاستقامة على الصراط المستقيم، وفي مجمع البيان عن الرضا (عليه السلام) (أنه سُئل:ما الاستقامة؟ قال:هي والله ما أنتم عليه) وفي تفسير القمي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قال: (ثم استقاموا على ولاية علي أمير المؤمنين)، وفي الكافي بسنده عن محمد بن مسلم قال: (سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ فقال أبو عبد الله (عليه السلام): استقاموا على الأئمة واحداً بعد واحد ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾. وفي معاني الأخبار في تفسير قوله تعالى ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾ (الفاتحة:٦) عن الصادق (عليه السلام) (وهي الطريق إلى معرفة الله، وهما صراطان: صراط في الدنيا، وصراط في الآخرة، فأما الصراط الذي في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة من عرفه بالدنيا واقتدى بهداه مَّر على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردّى في نار جهنم[1].

إن الإنسان إذا استقام على طاعة الله ورسوله (صلى الله عليه وآله) والأئمة الطاهرين (عليهم السلام)

(١) معاني الأخبار: ص٢/ ح١، تفسير الصافي: ١٢٦/١.

من بعده يتنعم في الدنيا فضلاً عن امتيازات الآخرة التي ذكرناها، قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً﴾ (الجن:١٦) في الكافي بسنده عن الباقر (عليه السلام) (في قوله تعالى ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً﴾ قال: يعني لو استقاموا على ولاية علي بن أبي طالب أمير المؤمنين والأوصياء من وُلدِه (عليهم السلام) وقبلوا طاعتهم في أمرهم ونهيهم لأسقيناهم ماءً غدقاً، يقول: لأشربنا قلوبهم الإيمان، والطريقة هي الإيمان بولاية علي والأوصياء.

كيف نحقق الاستقامة؟

أيها الأحبة:

إن تحقق الاستقامة والثبات عليها التي نطلبها يومياً في صلاتنا –مما يعني أنها شيء يجب السعي لتحصيله- تتطلب أموراً:

١- العزم والإرادة الصادقة والشجاعة في اتخاذ القرارات والمواقف وإنجاز الأعمال المطلوبة.

٢- الوعي والمعرفة والمطالعة الواسعة لروايات المعصومين (عليهم السلام) وآثار السلف الصالح لأن أي عمل لا بد أن تسبقه معرفة، وبعد العمل يكتسب معرفة جديدة.

٣- الالتفات إلى موجبات الانحراف عن صراط الاستقامة مقدمة لاجتنابها وهي اتباع الشهوات والركون إلى الدنيا بزخارفها الباطلة أو الخوف من فقدان شيء أو القلق من فوات أمور، ومن موجبات الانحراف أيضاً أمور تبدو خارجة عن إرادة الإنسان، لكن مقدماتها بيده فيستطيع تجنبها بإزالة مقدماتها كالجهل

والنسيان والغفلة والسهو فقد يشذّ الإنسان عن الصراط المستقيم لا عن عمدٍ بل جهلاً وغفلة، وبالنتيجة فقد فاته خير كثير.

ولذلك فإن الإنسان يدعو يومياً عشر مرات على الأقل في صلواته بعد طلب الهداية للصراط المستقيم أن يعصمه الله ويحميه من كلا النوعين من موجبات الانحراف عن الاستقامة، ابتداءً واستدامة لأنه معرض في أي لحظة للزلل والانحراف والإغواء إلا أن يمدَّه الله تعالى بلطفه ونوره.

مفردات عملية لتحقيق الاستقامة:

ولتحصيل الاستقامة مفردات عملية وبرامج ذكرتها الآيات الكريمة والروايات الشريفة، ولو التفتنا فإن الآيات التالية لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ تتضمن مفردات أساسية لهذا البرنامج وهي عدم الركون إلى الظالمين والمحافظة على الصلاة في أوقاتها والصبر، قال تبارك وتعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ۞ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ۞ وَاصْبِرْ فإن اللّه لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (هود: ١١٣-١١٥).

موعظة وتذكير:

وأُورد هنا للموعظة والتذكير روايتين تتضمنان وصفتين مهمتين لتطهير القلب وتهذيب النفس لمن أراد الكمال على طريق تحقيق الاستقامة.

(الأولى): رواية صحيحة رواها الثقات في كتبهم جميعاً كالكليني

والصدوق والشيخ الطوسي (قدس الله أسرارهم والبرقي في المحاسن عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام): يا علي أوصيك في نفسك بخصال فاحفظها، ثم قال: اللهم أعنه، أما الأولى: فالصدق لا يخرجن من فيك كذبة أبداً، والثانية: الورع لا تجترين على خيانة أبداً، والثالثة: الخوف من الله كأنك تراه، والرابعة: كثرة البكاء من خشية الله عز وجل يبنى لك بكل دمعة بيت في الجنة، والخامسة: بذل مالك ودمك دون دينك، والسادسة: الأخذ بسنتي في صلاتي وصيامي وصدقتي، أما الصلاة فالخمسون ركعة، وأما الصوم فثلاثة أيام في كل شهر خميس في أوله، وأربعاء في وسطه، وخميس في آخره، وأما الصدقة فجهدك حتى يقال: أسرفت ولم تسرف، وعليك بصلاة الليل وعليك بصلاة الليل وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الزوال، وعليك بقراءة القرآن على كل حال، وعليك برفع يديك في الصلاة، وتقليبهما، عليك بالسواك عند كل وضوء وصلاة، عليك بمحاسن الأخلاق فاركبها، عليك بمساوي الأخلاق فاجتنبها، فإن لم تفعل فلا تلومنّ إلا نفسك)[1].

(الثانية) وصية الإمام الصادق (عليه السلام) لعنوان البصري وكان شيخاً كبيراً حضر عند مالك بن أنس ثم هداه الله إلى الإمام الصادق (عليه السلام) وجاء في الرواية (ثم قال (عليه السلام): ما مسألتك؟ فقلت: سألت الله أن يعطف قلبك علي ويرزقني من علمك، وأرجو أن الله تعالى أجابني في الشريف ما سألته، فقال: يا أبا عبد الله (وهي كُنية عنوان البصري أيضاً) ليس العلم بالتعلم، إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه، فإن أردت العلم فاطلب أولاً في نفسك حقيقة

(١) وسائل الشيعة: كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، باب ٤، ح٢.

العبودية، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك. قلت: يا شريف فقال: قل يا أبا عبد الله، قلت:يا أبا عبد الله ما حقيقة العبودية؟ قال: ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكاً، لأن العبيد لا يكون لهم ملك يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله به، ولا يدبّر العبد لنفسه تدبيراً، وجملة اشتغاله فيما أمره تعالى به ونهاه عنه، فإذا لم يرَ العبد لنفسه فيما خوّله الله تعالى ملكاً هان عليه الإنفاق فيما أمره الله تعالى أن ينفق فيه، وإذا فوض العبد تدبير نفسه على مدبره هان عليه مصائب الدنيا، وإذا اشتغل العبد بما أمره الله تعالى ونهاه لا يتفرغ منهما إلى المراء والمباهاة مع الناس، فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاثة هان عليه الدنيا، وإبليس، والخلق، ولا يطلب الدنيا تكاثراً وتفاخراً، ولا يطلب ما عند الناس عزاً وعلوّاً، ولا يدع أيامه باطلاً، فهذا أول درجة التقى، قال الله تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. قلت: يا أبا عبد الله أوصني، قال: أوصيك بتسعة أشياء فإنها وصيتي لمريدي الطريق إلى الله تعالى، والله أسأل أن يوفقك لاستعماله، ثلاثة منها في رياضة النفس، وثلاثة منها في الحلم، وثلاثة منها في العلم، فاحفظها وإياك والتهاون بها، قال عنوان: ففرغت قلبي له. فقال: أما اللواتي في الرياضة: فإياك أن تأكل ما لا تشتهيه[1] فإنه يورث الحماقة والبله، ولا تأكل إلا عند الجوع، وإذا أكلت فكل حلالاً وسمّ الله، واذكر حديث الرسول (صلى الله عليه وآله): ما ملأ آدمي وعاءً شرّاً من بطنه فإن كان ولا بد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه.

وأما اللواتي في الحلم: فمن قال لك: إن قلت واحدة سمعت عشراً فقل: إن

(١) أي لا تأكل شيئاً قبل أن تجوع فتشتهي.

قلت عشراً لم تسمع واحدة، ومن شتمك فقل له: إن كنت صادقاً فيما تقول فأسأل الله أن يغفر لي، وإن كنت كاذباً فيما تقول فالله أسأل أن يغفر لك، ومن وعدك بالخنى[1] فعده بالنصيحة والرعاء.

وأما اللواتي في العلم: فاسأل العلماء ما جهلت، وإياك أن تسألهم تعنتاً وتجربة وإياك أن تعمل برأيك شيئاً، وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلاً، و اهرب من الفتيا هربك من الأسد، ولا تجعل رقبتك للناس جسراً.

قم عني يا أبا عبد الله فقد نصحت لك ولا تفسد علي وِردي، فإني امرؤٌ ضنين بنفسي)[2].

(١) الخنى: الفحش في الكلام.

(٢) بحار الأنوار: ٢٢٤/١.

القبس/١٨٨

سورة الأحقاف:﴿٣٥﴾

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[١]

موضوع القبس: لا تعاجل الذنب بالعقوبة

من كلمات الإمام الحسن السبط الزكي المجتبى (صلوات الله عليه) في بيان أحد الأداب العامة لتنظيم العلاقة الإيجابية مع الآخرين خصوصاً للمربين وأولياء الأمور كالأب في البيت او معلم المدرسة أو مدير الدائرة أو رئيس العمال ونحو ذلك، قال (عليه السلام) (لا تعاجل الذنب بالعقوبة وأجعل بينهما للاعتذار طريقاً)[٢].

والمعنى واضح فالإمام (عليه السلام) ينهى عن المبادرة الى معاقبة من يخطأ أو يذنب أو يقصّر فهذا التريث والإمهال وغض النظر المؤقت يُعطي المذنب فرصة للتأمل والتفكير والمراجعة وسيدفعه ذلك إلى الاعتذار والاعتراف بالتقصير وتدارك التقصير وهذه نتيجة طيبة لجميع الأطراف، أما المبادرة الى المحاسبة والمعاقبة بغض النظر عن كون العقوبة بمستوى الذنب أو أقل أو أكثر فأنها تؤدي الى التشنج والتعصب وتأخذه العزة بالإثم.

وهذا الادب يندرج ضمن التأسي بالصفات الإلهية فأن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة بأن لا يُعاجل العباد العقوبة حتى الكفار والمتجبرين والمتمردين قال

(١) أُلقيت يوم الاثنين ١٣/ صفر/ ١٤٣٨هـ- الموافق ٢٠١٦/١١/١٤م، تزامناً مع ذكرى استشهاد الإمام الحسن (عليه السلام).

(٢) المجالس السنية: ٣٤٨/٥، موسوعة المصطفى والعترة: ١٢٦/٥-١٢٨.

تعالى ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ (الأحقاف:٣٥) وقال تعالى ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّه لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ (يونس:١١) وقال تعالى ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ (الطارق:١٧) فإن ثابوا الى رشدهم وعادوا الى الطريق كان فيه خير الدنيا والاخرة للجميع ولا نفقد الامل بهداية أي أحد وهذا ما عبّر عنه بعض الربانيين لما قال لهم بعض اليائسين والمتقاعسين ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّه مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ كان جوابهم الأمل والاندفاع ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف:١٦٤) حتى في مثل فرعون الذي كان يقول ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات:٢٤) و﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ (غافر:٢٩) فأن الله تعالى أبقى الامل في نفس موسى وهارون (عليهما السلام) قال تعالى ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه:٤٣-٤٤).

وإن استمروا بالعصيان والاستكبار كان أبلغ بالحجة عليهم وأقطع لعذرهم قال تعالى ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (آل عمران:١٧٨).

ويتأكد هذا الادب كلما ازدادت أواصر القرب والعلاقة ويبلغ ذروته مع الموالين لأهل البيت (عليهم السلام) فترى الإمام الرضا (عليه السلام) يُعلل تريثه في اتخاذ الإجراءات ضد قيادات من أصحابه أنشقّوا عنه وخانوه في الأموال العظيمة التي أودعها عندهم بأنه (عليه السلام) يأمل منهم ان يتقدموا خطوة ليحظوا باللطف الالهي قال (عليه السلام): (ولولا ما قال أبو جعفر (عليه السلام) حين يقول:لا تعجلوا على شيعتنا إن

تزلّ قدم تثبت أخرى، وقال:من لك بأخيك كله:لكان مني من القول في ابن أبي حمزة وابن السراج وأصحاب ابن ابي حمزة)[١].

وهذه الميزة لشيعة أمير المؤمنين الموالين وردت في حديث سابق عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (ما ثبتّ الله حب علي في قلب مؤمن فزلَّت به قدمٌ إلا ثبت الله قدماً يوم القيامة على الصراط)[٢].

وقد جسّد الأئمة (سلام الله عليهم أجمعين) هذا الادب في حياتهم بصوره المتنوعة، فقد انتظر أمير المؤمنين (عليه السلام) ما يقارب السنة قبل ان يتوجه لمقاتلة الباغين معاوية وأصحابه وأكثر إرسال المواعظ اليهم لعلهم يعودون الى الهدى والرشد حتى بدأ المرجفون والمنافقون يشيعون أن علياً (عليه السلام) شاك في أمر أهل الشام ولا يجد مسوغاً لقتالهم فصعد الإمام (عليه السلام) على المنبر وبيّن لهم انه لم يشكّ طرفة عين في ظلال معاوية واصحابه وكونهم بغاة يستحقون القتل والقتال وانما تأخّر إمهالاً لهم لعلهم يثوبوا الى رشدهم ويفيئوا الى أمر الله وليستضيئوا بنور أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (عليه السلام): (أما قولكم: أكلُّ ذلك كراهية الموت، فوالله ما أبالي، دخلتُ الى الموت أو خرج الموت إليَّ، وأما قولكم شكاً في أهل الشام! فوالله ما دفعتُ الحرب يوماً إلا وأنا أطمع ان تلحق بي طائفة فتهتدي بي وتعشو الى ضوئي، وذلك أحبُّ إليَّ من أقتلها على ضلالها، وإن كانت تبوء بآثامها)[٣] ومن رسالة له (عليه السلام) بعثها الى معاوية قال: (وليس أبطأني عنك إلا ترقباً لما أنت

---

(١) بحار الانوار: ٢٦٧/٤٩-٢٦٨ عن قرب الاسناد: ٣٤٨-٣٥٢/ ح ١٢٦٠.

(٢) كنز العمال: ١١/ ٦٢١/ ح ٣٣٠٢٢.

(٣) نهج البلاغة الخطبة ٥٤.

له مكذب وأنا له مصدّق)[1] وقال (عليه السلام): (اني قلبت أمري وأمرهم ظهرا لبطن، فما وجدت إلا قتالهم أو الكفر بما جاء محمد(صلى الله عليه وآله))[2].

كما كان (عليه السلام) يمنع افراد جيشه من ان يدعو أحدهم للمبارزة، وكانوا لا يبدؤون اعداءهم بقتال ففي يوم عاشوراء حينما حاول بعض أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) أن يرمي شمراً أو بعض الأعداء أن يرميه بسهم فمنعه لهذا الغرض النبيل حتى رمى عمر بن سعد بسهم نحو معسكر الحسين (عليه السلام) وتبعه جيشه لهذا نادى الإمام (عليه السلام) أصحابه قائلاً قوموا الى الموت الذي لابد منه فهذه رُسل القوم اليكم[3].

وقد أثمر هذا الادب عن توبة قائد كبير في جيش بني أمية وهو الحر الرياحي ولو استعجل الإمام (عليه السلام) مواجهته في الطريق لما حظي بهذه السعادة الابدية.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ٥٠/٤.

(٢) علل الشرائع: ٢٢٠ باب ١٦٠، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص٣٥.

(٣) أنظر: اللهوف في قتلى الطفوف- ابن طاووس: ٦٠.

القبس/١٨٩

سورة محمد:﴿٧﴾

﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾

من السنن الإلهية:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد:﴿٧﴾) تبيّن الآية إحدى القواعد والسنن الالهية، وهي ثنائية متلازمة عبّر القران الكريم المعبّر عنها بجملة شرطية، الشرط فيها ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ والجزاء ﴿يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وهي متلازمة تكرّرت في القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج﴿٤٠﴾).

معنى نصرة الله تعالى:

ولا بدّ أن نفهم أولاً معنى نصرة الله لأن الله تعالى غنيّ عن العالمين ولا يحتاج الى معونة ونصرة احد بل الكل محتاج اليه، وفي نهج البلاغة قول امير المؤمنين(عليه السلام) (فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)[1] فنصرة الله

(١) نهج البلاغة:١٨٣ / الوصية بالتقوى.

بنصرةِ رسوله(صلى الله عليه وآله) وأوليائه وحججه الذين يدعون الى طاعته ويقيمون الدين ويعملون لتطبيق منهج الله تبارك وتعالى في الأرض وتتحقق نصرة الله بنصرة دينه وتحكيم شريعته واحكامه في واقع الحياة، قال تعالى ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ الله﴾ (الصف:١٤) فنصرة الله تعالى تعني نصرة السائرين الى الله تعالى والهادين الى الله تعالى والعاملين لإعلاء كلمة الله تعالى، فهي نصرة لهؤلاء قال تعالى ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (الحشر:٨) وإنما نسبها الى الله تعالى لأكثر من نكتة:

١- لإعطائها أهمية بنسبتها الى الله تعالى ولو نُسِبَتْ النصرة الى رسوله(صلى الله عليه وآله) أو أوليائه فقط لكانت أقل زخماً لذا قرن الله تعالى نصرة رسوله(صلى الله عليه وآله) بنصرته تبارك وتعالى ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (الحشر:٨).

٢- للتنبيه الى شرط القبول وإعطاء الجزاء بأن تكون النصرة وسائر الأعمال خالصة لله تعالى اي ان الجزاء يتحقق حينما تكون نصرة اولياء الله تعالى نصرة لله، هذا الذي يقال في الاصول ان تعليق الحكم على الوصف مشعر بالعلية، فقد ينصر الشخص رسول الله(صلى الله عليه وآله) أو الإمام ويخرج معه لكنه لهدف آخر غير خالص كالرياء أو الشهرة أو تحصيل منفعة دنيوية أو تعصباً لمدينته أو قبيلته ونحو ذلك فهذه النصرة لا قيمة لها عند الله تعالى.

في صحاح العامة عن أبي موسى قال (سُئل رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حميةً ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال:(من قاتل

لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله))[١].

موارد من الالتفاتات حول الآية:

ونلفت النظر الى جملة امور قد لا يلتفت اليها الكثيرون ممن يتداولون هذه الآية ويجعلونها عنواناً لبياناتهم وخطاباتهم:

١- إن نصرة الله تعالى مفتوحة على كل المجالات وإن كان أرقاها والذي كانت الآيات بصدده هو القتال في سبيل الله لكن نصرة الله تعالى تتحقق بما لا يحصى من الطرق فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نصرة لله تعالى وغضب له أذا عُصي، وكذا دعوة الناس الى الله تعالى وهدايتهم وإصلاحهم، وتتحقق أيضاً بأي مشروع فيه رضا الله تعالى وصلاح العباد، وبأي حوار تردّ به الإشكالات الموجهة الى الدين أو فيها انتقاص من قادته العظام، وحينما نؤيد مسعى لتطبيق قوانين الله تعالى وأحكامه في حياة الناس كمشروع القانون الجعفري فهذه نصرة لله تعالى، وتتحقق أيضاً بأي خدمة تقدمها للناس المحتاجين لأنك بذلك تدفع عنهم الاعتراض على قضاء الله وقدره فهو نصرة لله تعالى ودفاع عنه كما ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) لما سُئل عن لبسه القميص المرقّع البالي وتوزيعه المساعدات بنفسه على بيوت الفقراء والايتام قال: لكيلا يتبيّغ بالفقير فقره)[٢] أي لكيلا يغلبه الفقر ويقهره فيؤدي الى الاعتراض على الله تبارك وتعالى.

وهكذا تتعدد أشكال نصرة الله تعالى ويتحقق معها الجزاء وهو أن ينصركم الله ويؤيدكم في سائر شؤونكم ويزيد من توفيقكم ويهيئ لكم الاسباب

---

(١) اخرجه الشيخان وابو داوود والترمذي والنسائي.

(٢) نهج البلاغة ٢: ٢٠٤.

والمقدمات للتقدم ومزيد من الانتصارات، وكلما ازددت نصرة لله تعالى، زاد الله من نصرته لك وتسديدك.

٢- إن الكثيرين يستشهدون بالآية الى قوله تعالى ﴿يَنصُرۡكُمۡ﴾ ويعتقدون ان هذا كافٍ وان هذا هو موضع الحاجة ولا يلتفتون الى ما هو أهم من النصر وهو الثبات عليه الذي ذكرته فإن النصر قد يتحقق لكنه لا يدوم لعدم توفير إمكانية المحافظة عليه، أو لأنهم بعد أن انتصروا تغيرّت نواياهم وانحرفت فلم يعودوا مستحقين للنصر، وتزول عنهم نعمة الانتصار ويكون بلا قيمة، كالجيش الذي يهجم على العدو ويأخذ مواقعه لكنه لا يستطيع الامساك بالأرض فيتراجع عنها ويعود العدو اليها وربما يستغل العدو هذا التراجع ويستفيد من زخم العودة ليتقدم أكثر في عمق هذا الطرف الذي انتصر اولاً، وكمثال من التاريخ نذكر ما حصل للمسلمين في معركة أُحُد فانهم انتصروا[1] في بداية المعركة لكنهم لما عصوا اوامر رسول الله(صلى الله عليه وآله) واتبعوا اهوائهم والتفتوا الى جمع الغنائم لم يدم ذلك النصر وانقلب الى هزيمة وخسروا شهداء كثيرين، لذا كان التوجيه الرباني بعد ان فتح الله تبارك وتعالى مكة للنبي(صلى الله عليه وآله) وللمسلمين ونصرهم على قريش بحسب سورة النصر ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (النصر:١- ٣) فعليك ان تسبح الله وتنزهه عن اي وهم وظن بانك صاحب القدرة في تحقيق النصر وتستغفره من كل ما يفقدك هذا النصر ويزيل اسبابه، وهكذا التاريخ حافل

(١) أنظر: الكامل في التاريخ- ابن الأثير: ١٤٨/٢

بالمنقلبين على الاعقاب.

فقيمة الانتصار في الثبات عليه وإدامته بإدامة الأسباب الموجبة له، ولا شك أن هذا التثبيت هو من مصاديق الجزاء ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ وأحد مفرداته فيكون من قبيل ذكر الخاص بعد العام كما يقال وانما ذكر تثبيت الاقدام مع انه داخل في عنوان ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ لأكثر من نكتة:

أ- إلفات النظر اليه والاهتمام به.

ب- ولتمييزه عن ثبات آخر يسبق النصر لا بد أن يحققه العبد الناصر لربه بشجاعة وإصرار ليتحقق الانتصار على العدو كقول طالوت لما بارز جالوت الطاغية ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٥٠) فتلاحظ ان ثبات الاقدام كان مقدمة للنصر، فيوجد ثبات يسبق النصر وتثبيت يلحقه.

٣- إن كل هذه الألوان من النصرة بما فيها القتال المؤدي الى الموت إنما هي على مستوى (الجهاد الأصغر)، والأسمى من ذلك تطبيق هذه المعادلة على (الجهاد الأكبر) أي على صعيد مجاهدة النفس ومنعها من اتباع الاهواء والشهوات وتطبيعها على طاعة الله تبارك وتعالى والورع والتقوى وتتجرد عما سوى الله تبارك وتعالى حتى تكون احبّ الى الشخص من نفسه ومن كل ما سوى الله تبارك وتعالى، وفي الحديث الشريف (أعدى أعداءك نفسك التي بين جنبيك)[1] فهي تهشّ الى المعصية ويزيّنها الشيطان فمقاومتها نصرة لله تبارك وتعالى على

(١) عدة الداعي: ص٣١٤.

ادعائه الشيطان وأوليائه والنفس الأمارة بالسوء، وحينئذ ينصرك الله تعالى ويزيدك قوة وعزيمة ويرقّيك في درجات التكامل، من دعاء الصباح لأمير المؤمنين(عليه السلام) (وَإِنْ خَذَلَنِي نَصْرُكَ عِنْدَ مُحارَبَةِ النَّفْس وَالشَّيْطانِ، فَقَدْ وَكَلَنِي خِذْلانُكَ إِلى حَيْثُ النَّصَبِ وَالحِرْمانِ)[1]، فاذا اعانك الله تعالى ونصرك على نفسك ونجحت في الامتحان وحققت تقدماً في هذه الاشهر المباركة او المشاهد المشرّفة او بحضورك مجالس الصالحين وفي المساجد وصلوات الجمعة والجماعة وغيرها فثبت عليه وادمه ولا تضيّعه بسبب شهوة او غضب او تزيين من شياطين الانس والجن، فان السقوط في الهاوية حينئذٍ يكون مريعاً والعياذ بالله تعالى.

ايها الاخوة:

أنتم بفضل الله تبارك وتعالى بإقامتكم لهذه الشعيرة المباركة:السير على الأقدام من حرم أمير المؤمنين(عليه السلام) الى حرم الإمام الحسين(عليه السلام) لزيارة الإمام الحسين(عليه السلام) في النصف من رجب ولإحياء وفاة عقيلة الهاشميين السيدة زينب بنت أمير المؤمنين(عليه السلام) وفاطمة الزهراء(عليها السلام) بنت رسول الله(صلى الله عليه وآله): وبإدامتكم لها منذ بضع سنوات: تنصرون الله تبارك وتعالى بعدة أشكال تتضح من خلال ما ذكرناه سابقاً فأسأل الله تعالى أن ينصركم ويثبت أقدامكم.

---

(١) مفاتيح الجنان: ٩٤.

القبس/١٩٠

سورة محمد:﴿١١﴾

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾

المولى بمعنى الولي الذي له ولاية ما خاصة كولاية السيد على العبد او عامة كولاية الله تعالى على خلقه في التصرف والتدبير وله سبحانه ولاية التشريع وهداية العباد إلى ما يصلح شؤونهم، والظاهر انها هنا تشير الى ولاية النصر والتأييد.

والآية تبين واحدة من ثمرات الايمان بالله تعالى وأحد الفروق بين المؤمنين وغيرهم وهو ان للمؤمنين مولى ورباً. يرعاهم ويدبر شؤونهم ويهديهم وينصرهم ويسدّدهم ويرشدهم ويشفق عليهم ويرحمهم بالرحمة والرعاية الخاصة (أما الولاية العامة فشاملة لجميع المخلوقات) قال تعالى ﴿وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ (يونس:﴿٣٠﴾).

أما غير المؤمنين بالله تعالى سواء كانوا من المنكرين للخالق والملحدين والمشركين الذين يعبدون آلهة أخرى من دون الله تعالى - وهو عنوان يشمل في بعض مراتبه الذين هم مسلمون بحسب العنوان الا أنهم عملياً لا يعبدون الله تعالى وإنما يطيعون شهواتهم ونزواتهم وغرائزهم وما تدعوه إليه انانيتهم ويقدّسون رموزاً ويطيعونها من دون عرض أفعالهم على ما يريده الله تعالى ويرضاه - فهؤلاء قد يكون لهم مولى وناصر ومعين من سلطة أو عشيرة أو مال أو جاه أو حزب أو قوى خارجية يسمونها بالعظمى أو غيرها كقول المشركين للمسلمين يوم أحد (لنا

العزّى ولا عزى لكم) فاجابهم المسلمون (الله مولانا ولا مولى لكم)[1] الا أن الآية الكريمة تعتبر هؤلاء الموالي أوهاماً لا قيمة لها وتنفي وجودهم على نحو الحقيقة (وان الكافرين لَا مَوْلَى لَهُمْ) فكأنهم لاشيء وهم كذلك، قال تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ (العنكبوت:٤١) واذا أثبتت آيات أخرى ولاية لهؤلاء فأنما هي ولاية الاغواء والاضلال والافساد ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:٢٧) ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾ (الأعراف:٢٠٢) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٢٥٧).

فمن لم يكن مولاه ومعبوده ومطاعه الله تعالى فان الهه هواه والشيطان شاء ام ابى ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الفرقان:٤٣) وان اعطى عناوين محبّبه لها كأن يسمّون اتباع الاهواء الشخصية غير المنضبطة بالحرية وهي في الحقيقة عبودية للهوى. ويذكر القرآن الكريم الفرق بين المنهجين في الطاعة والاتباع كقوله تعالى ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٨).

ولتقريب هذا الفرق بين الولايتين تصوّر وجود أطفال لهم أب يربّيهم ويرشدهم ويصرف عليهم ويرعاهم ويدافع عنهم ويوفّر لهم أسباب الحياة الكريمة وأطفالاً آخرين أيتاماً ليس لهم من يعيلهم فهم في ضياع واحتياج

(١) أنظر: تاريخ الطبري: ٢٠٢/٢،- صحيح البخاري: ٣٠/٥.

وحرمان قد سقطوا في حبال عصابة شريرة مفسدة فاستخدمتهم لأغراضها الشيطانية، مع ان حاجتنا إلى رعاية الله تعالى لا تقارن بحاجة الأطفال إلى أبيهم أو أمهم.

وتبين الآية التالية محل البحث النتيجة التي سيؤول إليها أمر الفريقين ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ (محمد:١٢).

ومظاهر هذه الولاية الإلهية في حياة الانسان لا تعد ولا تحصى، نجد في دعاء الافتتاح بياناً لجوانب منها (فَكَمْ يا إِلهِي مِنْ كُرْبَةٍ قَدْ فَرَّجْتَها، وَهُمُومٍ قَدْ كَشَفْتَها، وَعَثْرَةٍ قَدْ أَقَلْتَها، وَرَحْمَةٍ قَدْ نَشَرْتَها، وَحَلْقَةِ بَلاءٍ قَدْ فَكَكْتَها)[1].

ومن مظاهر هذه الولاية الإلهية للناس انه تعالى أنزل لهم شريعة سمحاء تتكفل بسعادتهم في الدنيا وفلاحهم في الآخرة، وهذه الولاية يتنعمون فيها وبها حتى وهم في أشد الظروف قسوة ولعلهم يجدون في أنفسهم شيئاً لأن الله تعالى لم يستجب لدعائهم (فَإِنْ أَبْطاء عَنِّي عَتِبْتُ بِجَهْلِي عَلَيْكَ، وَلَعَلَّ الَّذِي أَبْطَاءَ عَنِّي هُوَ خَيْرٌ لِي لِعِلْمِكَ بِعاقِبَةِ الأُمُورِ) فأنه تبارك وتعالى لم ولن يتخلى عنهم ولا يخلفهم وعده ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ (الشرح:٥) ولكن التأخير لمصلحتهم أما في الدنيا أو في الآخرة، بينما يتخبط غير المؤمنين بقوانين وأنظمة تجلب لهم الشقاء والتعاسة.

---

(١) فقرات من دعاء الافتتاح الذي يقرأ في ليالي شهر رمضان المبارك.

وهذه الولاية الإلهية مستمرة في الحياة الدنيا وفي الآخرة ما بعد الموت، قال تعالى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ (إبراهيم:٢٧) وقال تعالى ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر:٥١) وقال تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (يونس:٦٣-٦٤).

واذكر لكم مثالا على ولاية الله الشفيقة بعباده بعد الموت (قيل: أوحى الله تعالى إلى موسى (عليه السلام): لطفي بالعصاة من أهل القبور، كلما بليت أبدانهم غفرت لهم، وكلما صارت عظامهم نخرة محوت عنهم ذنوبهم جوداً مني وكرماً. يا موسى، إني لم أنسهم أحياء مرزوقين، فكيف أنساهم وهم موتى مقبورين، ما من عاصي عصاني حتى إذا كان في كرب الموت لم أنظر إلى جهله وتقصيره، ولكن أنظر إلى ضعفه ومسكنته، وإذا نظرت إلى حاله ألهمته وحدانيتي أريد له بها النجاة، الله لطيف بعباده، خلقي خلقتهم، وعبادي رزقتهم وجعلت ذنوبهم مستورة مغفورة، وجعلت لهم محمداً (صلى الله عليه وآله) شفيعاً، وأن الله تعالى لا ينظر إلى شيء إلا رحمه، ولو نظر إلى أهل النار لرحمهم، ولكن قضى الله لا ينظر إليهم)[1].

وفي المناجاة الشعبانية لأمير المؤمنين (عليه السلام) (إِلَهِي لَمْ يَزَلْ بِرُّكَ عَلَيَّ أَيّامَ حَيَاتِي فَلاَ تَقْطَعْ بِرَّكَ عَنّي فِي مَمَاتِي) أما البعيدون عن الله تعالى على اختلاف اشكالهم فأنهم حرموا أنفسهم من هذه الولاية الإلهية الخاصة ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ

(١) الزهر الفائح- ابن الجزري: ١١٥.

وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (النحل:١١٨) ومع ذلك فان الله تعالى لم يتخلى عنهم ولم يمنعهم من رحمته الواسعة (يا من يعطيّ من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة) وبدلاً من ان يشعرهم هذا بالخجل والحياء من رب العالمين ويدعوهم إلى العودة إليه سريعاً فأنهم يتمادون في غيّهم وعصيانهم وابتعادهم عنه تبارك وتعالى (فَلَمْ أَرَ مَوْلىً كَرِيماً أَصْبَرَ عَلى عبْدٍ لَئِيمٍ مِنْكَ عَلَيَّ يارَبِّ، إِنَّكَ تَدْعُوني فَأُوَلِّي عَنْكَ، وَتَتَحَبَّبُ إِلَيَّ فَأَتَبَغَّضُ إِلَيْكَ، وَتَتَوَدَّدُ إِلَيَّ فَلا أَقْبَلُ مِنْكَ، كَأَنَ لِيَ التَّطَوُّلَ عَلَيْكَ، فَلَمْ يَمْنَعْكَ ذلِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ لِي وَالاِحْسانِ إِلَيَّ، وَالتَّفَضُّلِ عَلَيَّ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ، فَأَرْحَمْ عَبْدَكَ الجاهِلَ، وَجُدْ عَلَيْهِ بِفَضْلِ إِحْسانِكَ إِنَّكَ جَوادٌ كَرِيمٌ)[1] فليعتز المؤمنون بهذه النعمة الإلهية العظيمة وليقولوا كما قال الإمام الحسين (عليه السلام) في دعاءه يوم عرفة مفتخرا بربّه العظيم (ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك) وليجدّوا ويجتهدوا في دعوة غيرهم إليها ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى:١١) ولتكن دعوتهم برفق ولين وحجة وبرهان ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل:١٢٥).

(١) فقرات من دعاء الافتتاح الذي يقرأ في ليالي شهر رمضان المبارك.

القبس/١٩١

سورة محمد:﴿١٩﴾

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾

موضوع القبس: نبذ الآلهة من دون الله تعالى[١]

ما المراد من رمي الجمرات؟

من مناسك الحج رمي الجمرات الثلاث في منى بالحصى، وقد ورد في الروايات عن أصلها[٢] بأن خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) لما أخذ ولده إسماعيل لذبحه امتثالاً لأمر الله تبارك وتعالى اعترضه إبليس في الموضع الأول ليردّه ويخذلّه ويحرّك عواطفه حتى يتراجع عن تنفيذ ما أمر الله تعالى فرماه إبراهيم (عليه السلام) بالحصى فانهزم اللعين، ثم تمثّل له مرة أخرى في الموضع الثاني والثالث وكان رد إبراهيم (عليه السلام) الحازم هو هو فتحوّل إلى منسك يؤديه الموحدّون لرمي الشياطين.

وقد يثار هنا إشكال حاصله إن رمي الجمرات في الإسلام تعبير عن نبذ أصنام الجاهلية ورفض عبادتها، وقد كان هذا العمل مبرراً وله وجه في صدر الإسلام حيث كانوا حديثي عهد بالجاهلية فأراد لهم الشارع المقدس قلع عبادة

---

(١) أقام سماحة الشيخ (دام ظله) صلاة الجمعة الثانية في مقر إقامته في مكة المكرمة يوم ٦/ ذو الحجة/١٤٣١هـ- المصادف ٢٠١٠/١١/١٢م، وما في المتن هو الخطبة الثانية منها.

(٢) أنظر: علل الشرائع- الشيخ الصدوق: ٤٣٢/٢.

الأصنام بالكلية من داخل نفوسهم وترسيخ رفضها، أما اليوم حيث لم تعد توجد أصنام تُعبد من دون الله تعالى فلا يبقى معنى لأداء هذا المنسك. وأجوبة هذا الإشكال عديدة نريد أن نجعل واحداً منها محور خطبتنا.

الاصنام التي تعبد من دون الله تعالى:

وهو أن الأصنام والآلهة التي تُعبد من دون الله تعالى عديدة ومتنوعة وباقية ما بقي البشر إلا أن يملأ الله تبارك وتعالى الأرض قسطاً وعدلاً ويبسط كلمة التوحيد على إرجاء الأرض، ولئن زال أحد أشكالها وهي الأصنام والأوثان التي تُصنع من الحجر والخشب وربما التمر ثم تعبد من دون الله وتقدس وتقدم لها النذور والقرابين، فإن أشكالاً أخرى من الأصنام تعبد وتقدس وهي أشد وطئاً على الإنسان وأكثر إذلالاً للبشرية وتكلف الناس أضعاف ما كانت تكلفهم تلك الأصنام، وأولها هوى النفس وشهواتها وأطماعها وغرائزها التي يطيعها الإنسان ويسعى لتنفيذ إرادتها ويخضع لسلطتها وإن كان في ذلك معصية الله تبارك وتعالى، فأصبح الهوى إلهاً يعبد من دون الله تعالى لأن معنى العبادة هي الطاعة والانقياد والاستسلام بحيث ورد عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (من أصغى إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق يؤدي عن الله عز وجل فقد عبد الله وإن كان الناطق يؤدي عن الشيطان فقد عبد الشيطان)[1]، وقد سمى الله تبارك وتعالى الهوى إلهاً في قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ...﴾ (الجاثية:٢٣)، كم من تاجر تعرض له معاملة مشبوهة ينهى عنها الشرع المقدس

(١) الكافي: ج٦/ ص٤٣٤.

لكن ربحها يسيل لعابه ويثير طمعه فيرتكبها؟ وكم من امرأة تعلم أن السفور حرام وإن إبداء مفاتنها أمام الرجل الأجنبي معصية فتفعله إرضاءً لغرائزها؟ وكم من شاب يعلم أن الصلاة واجبة عليه وأنها عمود الدين وهوية المسلم لكنه يتركها كسلاً وحباً للراحة والدعة؟ أليس كل هؤلاء وأمثالهم قد نصبوا من أهوائهم وأنفسهم الأمّارة بالسوء أصناماً وآلهة يعبدونها ويطيعونها من دون الله تبارك وتعالى؟

التشريعات البشرية:

وثاني الآلهة التشريعات التي تُسنُّها عقول الناس القاصرة وبحسب ما يقدرونها من مصالح بنظرهم الضيّق ويتعبدون بها ويلتزمون بها ويعاقبون على مخالفتها من دون الرجوع إلى شريعة الله تبارك وتعالى تحت عناوين مختلفة كالديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان وحاكمية الشعب والقوانين والدساتير الوضعية وغيرها، وهذا الوضع قائم حتى في الدول التي تصف نفسها بأنها إسلامية، وقد ذكر الله تبارك وتعالى هذه الآلهة وهذه الأرباب في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:٣١) وورد في تفسيرها عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم، ولو دعوهم ما أجابوهم، ولكن أحلوا لهم حراماً، وحرموا عليهم حلالا فعبدوهم من حيث لا يشعرون)[1] فانطبق عليهم اتخاذهم أرباباً من دون الله تعالى

(١) الكافي: ج٦/ ص٤٣٤.

لأنهم شرّعوا لهم من أنفسهم قوانينَ تحكمهم من دون الرجوع إلى الشريعة الإلهية.

وهذه الرواية تنطبق على كثير مما يجري في مجتمعاتنا كبعض القوانين التي يسنّها البرلمان، والسنينة العشائرية التي يضعها ناس جاهلون بأحكام الشريعة وتفاصيلها فتأتي مليئة بالمظالم والفساد والانحراف.

آلهة الأعراف والتقاليد غير الصحيحة:

ومن الآلهة الأخرى الأعراف والتقاليد الاجتماعية التي يضعها الناس ثم يعطونها قداسة وأهمية بحيث لا يستطيع الفرد الخروج عنها خشية العار والفضيحة والضغط الاجتماعي ونحوها.

فبعض السادة التزموا بعدم تزوج بناتهم العلويات إلا من سادة ولو أدى ذلك إلى عنوستهن وحرمانهن من هذا الحق المقدس رغم إقدام الشباب الأكفاء على خطبتهن، أو إلزامهن التزويج من أبن العم فلو نهى عليها ابن عمها فلا يحق لأي أحدٍ خطبتها ولو أعرض عنها ابن العم ولم يتزوجها.

أو المغالاة في المهور الذي حرم الكثير من الشباب عن التفكير في الزواج لعدم قدرته على هذه التكاليف الباهظة، وكل هذه الأعراف والتقاليد مخالفة للشريعة ولوصايا النبي (صلى الله عليه وآله) الذي روي عنه: (إن جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوّجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفسادٌ كبير)[1] وقوله (صلى الله عليه وآله): (النكاح سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني)[2] ومثلهم بعض النساء اللواتي

(١) عوالي اللئالي: ج٣/ ص٣٤٠.

(٢) كنز العمال: ج١٦/ ص٢٧٢.

يلزمن أزواجهن بتوفير احتياجات باهظة كلبس بدلة جديدة في كل مناسبة أو تغيير أثاث بيت في كل سنة أو موسم مما يكلف الزوج كثيراً وقد يضطر إلى الإغماض عن مصدر الأموال الواردة إليه ليلبي رغبة امرأته، فهؤلاء يعبدون هذه الأعراف والتقاليد ويقدّسونها من دون الله تعالى.

الحكام والطواغيت:

ومن تلك الآلهة الحكام والطواغيت الذين يريدون من شعوبهم الاستسلام لهم وتنفيذ أطماعهم ونزواتهم والتضحية من أجل إدامة حكمهم وتقديم الشعب كله قرابين لهم، وهكذا سائر النظم الاقتصادية والسياسية والقوانين الوضعية المتبعة في المحاكم والكيانات المتنفذة كالمصارف وغيرها مما صنعه البشر من دون الرجوع إلى حكم الله تعالى ﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (يونس:٥٩).

كونوا موحدين:

هذه نماذج من الآلهة التي تُعبد وتطاع من دون الله تعالى ومن الأصنام التي لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ولكنها تُقدَّس وتُتخذ أرباباً للبشر الذين يصنعونها بأيديهم ويعلمون أنها زائفة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج:٧٣)، يَسخر الناس اليوم من عقول أسلافهم في الجاهلية ويسخفونهم حيث اتخذوا آلهة من أصنام يصنعونها بأيديهم وهاهم اليوم يفعلون فعلتهم وينقادون لأصنام وآلهة من صنعهم

وإن كان من نوعٍ آخر.

هذه الحقيقة التي يدمغ اللهُ تبارك وتعالى بها الناس في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (يوسف:١٠٦).

موعظة الشيخ جعفر الشوشتري:

نُقل عن الواعظ الشهير الشيخ جعفر الشوشتري (توفي عام ١٣٠٣ هجرية) صاحب كتاب الخصائص الحُسينية وقد كان له منبر وعظ في الصحن الحيدري الشريف يحضره المجتهدون والعلماء والفضلاء وعامة الناس، نُقل عنه أنه قال يوماً: أيها الناس أن مئة وأربع وعشرين ألف نبي بعثهم الله تعالى كلهم يقولون للناس:(كونوا موحدين وأنا أقول كونوا مشركين) فتعجب الناس من كلامه ولم يفهموا مرامه فأمهلهم حتى قال لهم:(إنكم أصبحتم كلكم للدنيا وأنا أدعوكم إلى أن تجعلوا لله نصيباً من حياتكم فأشركوه في أعمالكم).

خسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا:

وستجدون في دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة: (إلهي عميت عينٌ لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً)[1] وهذه هي الخسارة الحقيقية أن لا يخلص الإنسان عمله لله تبارك وتعالى ويوحّد هدفه في هذه الحياة ليجعله رضا الله تبارك وتعالى، ولا يُثبت على الصراط المستقيم ويتيه يمنة ويسرة بين هذه الآلهة والأرباب المصطنعة.

إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بُعث ليحرّر الإنسان من هذه التبعية المقيتة التي

(١) مفاتيح الجنان: ص٣٣١.

تُكبّله بقيود وأغلال وآصار تعيقه عن التكامل ونيل رضوان الله تبارك وتعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِىَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:١٥٧)، فلا يحق للإنسان الحر أن يعيد إلى عنقه تلك الأغلال ويحيط نفسه بتلك القيود.

وهذه بعض معاني رمي الجمرات أن نرفض كل الآلهة التي تُعبد وتُطاع والأرباب التي تتخذ من دون الله تبارك وتعالى.

القبس/١٩٢

سورة محمد:﴿٣٨﴾

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾

موضوع القبس: سنة الاستبدال

من السنن الإلهية:

تبيّن الآية سنة إلهية وقانوناً ثابتاً وفي نفس الوقت توجّه تحذيراً لكل الناس، مفاده أن المشروع الإلهي الذي حملته رسالة الاسلام العظيمة ماضٍ وسائر في طريق تحقيق الأهداف المرسومة له، وإنَّ تقاعسَ واعراض البعض - مهما كثر عددهم- لا يعرقل هذه المسيرة الإلهية وإنما تُعرض الرسالة عليهم وتطلب النصرة منهم لطفاً بهم من الله تعالى وامتناناً عليهم ليحصلوا على شرف المشاركة وثواب العاملين في الدنيا والآخرة، فإذا أعرضوا عن هذا التكليف ولم يتحملوه فإنهم هم الخاسرون وسيوفق الله تعالى أقواماً غيرهم لينهضوا بهذه المسؤولية ويحصلوا على نتائجها المباركة.

والخطابات القرآنية عامة شاملة لكل الأجيال ولكل الأزمان فلا يتصور أحد أن هذه الآية خاصة بالقوم الذين كانوا حول النبي (صلى الله عليه وآله) وإنه تهديد لهم فقط، وإنما هي سنة إلهية عامة ثابتة ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ (فاطر:﴿٤٣﴾) وقد أشارت عدة آيات قرآنية إلى هذه السنة الإلهية ،قال تعالى ﴿إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ

شَيْئاً وَاللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التوبة:٣٩) ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الواقعة:٦٠-٦١)، ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ ۞ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (المعارج:٤١).

لماذا التقاعس والارتماء في الايديولوجيات الفاسدة؟

وقد تركت الآية كلمة ﴿تَتَوَلَّوْاْ﴾ بلا ذكر لمتعلقها، وإن التولي يكون عن ماذا؟ لتكون مطلقة وتكون السُنة جارية في كل تولي واعراض سواء تعلق بأصول الدين أو فروعه أي مطلق طاعة الله تعالى.

إذ من الناس من يعرض ويتولى عن أصل الإيمان والدين ويتجرد منه ويتحول إلى لا ديني ويتبنى أفكاراً وأيديولوجيات مناهضة للدين ومشككة فيه بأي عنوان كان كالملحد أو الكافر ونحو ذلك، وهذا المورد من التولي والاعراض ذكرته آية أخرى قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّه بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾ (المائدة:٥٤).

ومنهم من يؤمن نظرياً بالإسلام لكنه لا يقوم بالتزاماته وقد ذكرت الآيات المتقدمة على الآية محل البحث من سورة الحديد صوراً من الخذلان الذي يصيب الانسان كعدم الانفاق في سبيل الله تعالى وكالقعود عن الجهاد في آية سورة التوبة المتقدمة، أو أي فرصة من فرص الطاعة التي يهيئها الله تعالى للإنسان كمساعدة محتاج أو قضاء حاجة مؤمن فإنه إن فوّتها ولم يستثمرها فإن الله تعالى سيقيِّض من يقوم بها وهو شاكر لله تعالى على توفيقه.

الإعراض عن خاعة النبي (صلى الله عليه وآله):

ولا شك أنّ من أكثر الموارد التي تظهر فيها هذه السنة الإلهية هي طاعة من أمر الله تعالى بطاعته وهو النبي (صلى الله عليه وآله) ومن بعده الأئمة المعصومون (عليهم السلام) ثم العلماء العاملون المخلصون النوّاب عن الإمام (عليه السلام) في غيبته، فإنّ من يتقاعس عن طاعتهم والالتزام بتوجيهاتهم فضلاً عمّن يشكّك فيهم ويفتري عليهم ويسقّطهم فإن التوفيق يُسلبُ منه ويُمنَح إلى آخرين مطيعين مخلصين ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد:٣٨) بل يكونون ثابتي الإيمان ذوي همم عالية وإصرار على العمل.

وهذا الابتلاء مرّت به الامم ففشل اكثرهم وتولّوا واعرضوا فاصيبوا بأسوء النتائج، ماذا كان دعاء أمير المؤمنين (عليه السلام) حينما خذله أصحابه وتقاعسوا وتفرقوا، (قال (عليه السلام) في سحرة اليوم الذي ضُرب فيه:ملكتني عيني وأنا جالس، فسنح لي رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقلت: يا رسول الله، ماذا لقيتُ من امتك من الأَوَد - أي الاعوجاج- واللَدد- أي الخصام-؟ فقال: ادع عليهم، فقلتُ: أبدلني الله بهم خيراً منهم وأبدلهم بي شراً لهم مني)[1].

نموذج معاصر من الإعراض عن خاعة الله تعالى:

خذ مثلاً السيد الشهيد الصدر الثاني (قدس سره) فإن كثيراً من العناوين الكبيرة وغيرهم داخل الحوزة وخارجها خذلوه وعارضوه وشككوا فيه وفي حركته فحرموا من هذا اللطف الإلهي، وهيّأ الله تعالى للسيد الشهيد شباباً مليئين بالإيمان

(١) نهج البلاغة: ١٣٥، الخطبة: ٧٠.

والحيوية والتفاني أخذوا المواقع المخصّصة لأولئك الذين حرموا أنفسهم من هذا الفضل العظيم، واستمرت هذه الحركة المباركة حتى بعد استشهاده ومرور (١٦) سنة على رحيله، لكن صدى حركته اليوم وآثارها المباركة أوسع مما كانت في حياته الشريفة.

نموذج تاريخي في وجدان الطف:

وإذا أردنا أن نعرّج على كربلاء ونأخذ الشواهد منها، فهناك شخصان نقرّب جريان سنة الاستبدال عليهما بحسب الظاهر.

أحدهما:عبيد الله بن الحر الجعفي أحد الفرسان المعروفين بالفتك وهو معدود من شيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) وله نسخة يرويها عنه (عليه السلام) – بحسب رجال النجاشي–، التقاه الحسين (عليه السلام) في طريقه إلى كربلاء ودعاه إلى نصرته فامتنع عبيد الله عن الإجابة وقدّم للحسين فرسه المسماة بالمحلّقة وقال ((هذه فرسي المحلّقة فاركبها فوالله ما طلبت عليها شيئاً إلاّ أدركته ولا طلبني أحد إلا فتّته حتى تلتحق بمأمنك وأنا ضمين بعيالاتك أؤديهم إليك))، فقال الحسين (عليه السلام): (لا حاجة لنا فيك ولا في فرسك، ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (الكهف:٥١)) فنصحه الحسين (عليه السلام) بأن يغيّب وجهه ولا يشهد واعيته وقال (عليه السلام) (فوالله لا يسمع اليوم واعيتنا أحد ثم لا يعيننا إلاّ كبّه الله على منخريه في النار)[1].

(١) راجع تفصيل ترجمته ومصادرها في أدب الطف للمرحوم الخطيب السيد جواد شبر: ٩٤/١-١٠٠.

ثانيهما: الحر الرياحي الذي كان قائداً كبيراً في جيش الأمويين وهو الذي قاد الكتيبة التي اعترضت الإمام الحسين (عليه السلام) في طريقه ومنعته من العودة إلى أهله وديـاره ورافقته حتى نزل كربلاء لكنه في لحظة من لحظات التوفيق والألطاف الإلهية وقف وتأمل في مصيره وعاقبته وخيّر نفسه بين الدنيا المزخرفة التي كان يتمتع بها في ركاب بني أمية لكن عاقبتها النار، وبين القتال والشهادة بين يدي أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) وختامها مسك والفوز والجنة ورضوان الله فقال كلمته التي نقلت عبر الأثير إلى كل الأجيال (لا أختار على الجنة شيئاً أبداً) [1].

محل الشاهد ان هذا المقعد في قافلة شهداء الخلود لما تولى عنه عبيد الله وأعرض عنه ملأه غيره وهو الحر الرياحي وفاز به ومضت القافلة في طريقها، وبقي عبيد الله نادماً متحسراً على تفويت هذه الفرصة فالتحق بالمختار لأخذ الثأر ثم اختلف معه والتحق بمصعب ثم اختلف معه وقاتله. ومن شعره المعبّر عن عظيم حسرته:

فيا لَكِ حسرةً ما دمتُ حياً ... تَردُّد بين حلقي والتراقي
حسين حين يطلبْ بذل نصري ... على أهل الضلالة والنفاق
غداة يقول لي بالقصر قولاً ... أتتركنا وتزمع بالفراق
ولو أني أواسيه بنفسي ... لنلت كرامة يوم التلاق
مع ابن المصطفى نفسي فداه ... تولى ثم ودّع بانطلاق
فلو فلق التلهف قلبَ حي ... لهمَّ اليوم قلبي بانفلاق

(١) تاريخ الطبري: ٣٢٥/٤، - مقتل الحسين (عليه السلام) - أبو مخنف الأزدي: ١٢١.

فقد فاز الاولى نصروا حسيناً وخاب الآخرون إلى النفاق[1]

الهزيمة الداخلية هي التي انتجت الاستبدال:

ولابد أن نلتفت إلى أن هذا الاستبدال من الله تعالى ما كان ليحصل في الخارج إن لم يسبقه استبدال في داخل النفس من قبل الشخص نفسه فاستحق ذلك التبديل ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ (التوبة:٣٨) ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ (البقرة:٦١).

وهذا كله تطبيق لسنة الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّه لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١) سواء بإتجاه الخير أو الشر، ولذا كان من الادعية الواردة عن اهل البيت (عليهم السلام) (وتجعلني ممن تنتصر به لدينك ولا تستبدل بي غيري)[2].

فعلينا أن نكون حذرين يقظين ونبادر إلى أي فرصة للطاعة ولا نفوّتها أو نؤخرها أو نعتقد أنه لا أحد يستطيع أن يأخذها منّا ويملأ مكاننا فيها، فإن الله تعالى غني عن خلقه ويستبدل بالمقصرين والعاصين من يحبّهم الله تعالى ويحبونه ثم لا يكونوا أمثالكم.

---

(١) أدب الطف أو شعراء الحسين (عليه السلام) للمرحوم السيد جواد شبر: ٩٦/١.

(٢) مفاتيح الجنان :٣٢٧ ادعية ليالي شهر رمضان.

القبس/١٩٣

سورة الفتح:﴿١﴾

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾

موضوع القبس: الفتح السلمي

وردت في فضل قراءة سورة الفتح أحاديث عديدة، كالذي رواه أبي بن كعب عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (من قرأها فكأنما شهد مع محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فتح مكة)، وفي رواية أخرى (فكأنما كان مع من بايع محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) تحت الشجرة)[١]، وروى الشيخ الصدوق بسنده عن عبد الله بن بكير عن أبيه قال: قال أبو عبد الله: (حصنوا أموالكم ونساءكم وما ملكت إيمانكم من التلف بقراءة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ فإنه إذا كان ممن يدمن قراءتها ناداه منادٍ يوم القيامة حتى يسمع الخلائق: أنت من عبادي المخلصين ألحقوه بالصالحين من عبادي، فأسكنوه جنات النعيم، وأسقوه الرحيق المختوم بمزاج الكافور)[٢] وفي صحيح البخاري عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس)[٣]، وفي كتاب طب الأئمة (عليهم السلام) بإسناده عن جابر الجعفي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (كنت عند علي بن الحسين (عليهما السلام) إذ أتاه رجل من بني أمية من شيعتنا فقال له: يا

(١) مجمع البيان: ٩٨/٩. البرهان في تفسير القرآن: ٩/ ٦١.

(٢) ثواب الأعمال: ١١٥.

(٣) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، سورة الفتح، باب إنا فتحنا لك فتحا مبينا، ص٤٤٥.

ابن رسول الله ما قدرت أن أمشي إليك من وجع رجلي، قال (عليه السلام): أين أنت من عوذة الحسين بن علي (عليهما السلام)؟ قال: يا ابن رسول الله وما ذاك؟ قال: ثم ذكر الآيات السبع الأولى من السورة، قال: ففعلت ما أمرني به، فما حسست بعد ذلك بشيء منها بعون الله تعالى)[1].

وقد نزلت السورة في صلح الحديبية والاتفاق الذي جرى بين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ومشركي قريش وبيعة الرضوان تحت الشجرة ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ (الفتح:١٨) في السنة السادسة للهجرة على ما تشهد به آيات السورة، والروايات الواردة في سبب نزولها، فما ورد في بعض الروايات من أنها نزلت في فتح مكة كقول الإمام الرضا (عليه السلام): (فلما فتح الله على نبيه مكة قال يا محمد ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾)[2] ورواية عائشة في الدر المنثور عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾: قال فتح مكة)[3] يُحمل على ما ورد فيها من الوعد بفتح مكة ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح:١٨)، أو لأن صلح الحديبية مهّد لفتح مكة بعد سنتين، وقبله فتح خيبر وإنهاء الوجود اليهودي الخبيث في جزيرة العرب، أو لأن فتح مكة قد بدأ تحقيقه فعلاً من يوم الحديبية باقتحام عقيدة الإسلام مكة وإذعان قريش بعجزهم عن مواجهة الإسلام، أو قل

(١) تفسير نور الثقلين: ٣/ ٣٣/ ح١١.

(٢) تفسير نور الثقلين: ٣/ ٣٢/ ح٨.

(٣) الدر المنثور: ٥١٠/٧ ط.دار الفكر.

إن فتح مكة سياسياً وعقائدياً واجتماعياً قد تحقق في صلح الحديبية وإن تأخّر عسكرياً إلى السنة الثامنة للهجرة.

والآية قابلة للانطباق على الفتوحات المادية والمعنوية إلى يوم القيامة ومنها ما يحصل اليوم من تفوق الإسلام على سائر الأديان والأيديولوجيات والأنظمة والقوانين بالبراهين والحجج والقوانين المحكمة والمبادئ السامية، وانتشاره السريع في الدول الغربية المادية وإقبال الناس أفواجاً وجماعات على اعتناقه، فهذه كلها فتوحات مستمرة بفضل الله تعالى، إلى أن يحصل الفتح الأعظم بظهور قائم آل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين) (وأعِنا على ذلك بفتح منك تعجلّه)[1].

وخلاصة الواقعة[2]: إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خرج من المدينة في ذي القعدة من السنة السادسة معتمراً لا يُريد حرباً وساق معه الهدي سبعين بدنة وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له وليس غازياً، وخرج معه ألف وأربعمائة على أكثر الأقوال وتخلّف عنه كثيرٌ من الأعراب ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ (الفتح:١١) وهم كاذبون في دعواهم، وإنما تخلّفوا خوفاً من بطش قريش، لأنهم اعتقدوا جازمين أن هذه السفرة عملية انتحارية إذ كيف يجازف النبي (صلى الله عليه وآله) ويخرج بهذا العدد من المعتمرين المسالمين ويقدِّم نفسه وأصحابه لقمه سائغه لقريش المتجبرة ذات

---

(١) من دعاء الافتتاح الذي يتلى في ليالي شهر رمضان المبارك.

(٢) عن تفسير علي بن إبراهيم: ٢/ ٣٠٩، الكافي: ٨/ ٣٢٢، مجمع البيان: ٩/ ١٠٥، البرهان في تفسير القرآن: ٩/ ٦١-٦٤، سيرة ابن هشام: ٣/١٩٦-٢٠٤.

العدة والعدد التي حشدت لقتاله قبل عام واحد عشرة آلاف مقاتل حاصروا المدينة في واقعة الأحزاب ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً﴾ (الفتح:١٢).

ولما علمت قريش بتوجهه (صلى الله عليه وآله) دفعت بجيش مدجج بالسلاح لمواجهته وتقدمتهم كتيبة من الفرسان على رأسها خالد بن الوليد، ولكن النبي (صلى الله عليه وآله) سلك طريقاً غير المتعارف فوصل حدود مكة من أسفلها وليس من شمالها كما هو المفروض للقادم من المدينة وتجنّب ملاقاتهم، ففوجئت قريش بالنبي (صلى الله عليه وآله) والمسلمين ينزلون في الحديبية على مشارف مكة على حد الحرم الآمن ولا يستطيعون قتاله، وأسقط ما في أيديهم وعلاهم الذل والهوان، وحينما وصل النبي (صلى الله عليه وآله) الحديبية أسفل مكة بركت ناقته (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال الناس: خلأت الناقة – أي حرنت عن المشي– فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها) ثم أمر الناس بالنزول، وأرسل (صلى الله عليه وآله وسلم) من يطمئن قريشاً بأنه جاء زائراً ولم يأتِ لقتال، لكنهم أصرّوا على عدم دخوله وقالوا: ((وإن كان جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلنّها علينا عنوةً أبداً، ولا تحدث بذلك عنّا العرب)) وتبادلوا الرسائل، حتى تدخّل عروة بن مسعود الثقفي[1] والتقى بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ورأى الأخلاق العظيمة لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وتفاني أصحابه بين يديه، فعاد إلى

(١) الذي روي أنه المقصود في الآية الكريمة ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف:٣١).

قريش وقال لهم: ((يا معشر قريش: إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلّمونه لشيء أبداً، فروا رأيكم)).

فأرسلت قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقالوا له: ((ائت محمداً فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدّث العرب عنّا أنه دخلها علينا عنوة أبداً)) فوافق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على الصلح، وكتبا بذلك كتاباً رفض سهيل افتتاحه بالبسملة والاكتفاء بما تعارفوا عليه في الجاهلية وهو قول (باسمك اللهم)، كما رفض أن يذكر إلى جنب أسم محمد وصفه بأنه رسول الله ووافق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وجاء فيه: (هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكفّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة -أي صدور منطوية على ما فيها- وأنه لا إسلال ولا إغلال- أي لا سرقة خفية ولا خيانة- وأنه من أحبَّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وإنك ترجع عنّا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب، السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها)) وكان كاتب الصحيفة علي بن أبي طالب[1] (عليه السلام).

---

(١) في تفسير القمي: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا علي إنك أبيت أن تمحو اسمي من النبوة، فوالذي بعثني بالحق نبياً، لتجيبنّ أبناءهم إلى مثلها وأنت مضيض مضطهد. فلما كان يوم صفين ورضوا

وقد اعترض عمر بن الخطاب على قبول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بشروط الصلح وقال له: ((علامَ تعطي الدنية في ديننا)) وكأنه يريد أن يدفع الصحابة نحو قتال قريش بإثارة العصبية فيهم[1]، ووافقه على ذلك جماعة رغبة في القضاء على المسلمين لأنهم قلّة ومسالمون وفي قبضة قريش وقال تعالى فيهم ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ (الفتح:١٢) ولعلهم المقصودون بقوله تعالى ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الفتح:٢٦) والمراد بالكفر هنا كفران النعمة وحق الطاعة وليس المشركين الذين ما فارقوا الجاهلية حتى يُعيَّروا بها أو تحتاج الحمية الجاهلية إلى جعل جديد فقال له النبي(صلى الله عليه وآله وسلم): (أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني).

وأخرج البيهقي عن عروة قال: (أقبل رسول الله (صلى الله عليه وآله) من الحديبية راجعا فقال رجلٌ – لم يسمِّه– من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله): والله ما هذا بفتح لقد

بالحكمين، كتب: هذا ما اصطلح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، فقال عمرو بن العاص: لو علمنا أنك أمير المؤمنين ما حاربناك، ولكن اكتب: هذا ما اصطلح عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): صدق الله وصدق رسوله، أخبرني رسول الله (صلى الله عليه وآله) بذلك، ثم كتب الكتاب) (البرهان: ٩/ ٦٤).

(١) ولا أدري من أين أتته الشجاعة في مواجهة قريش وهو القائل بكل جبن ووقاحة قبل معركة بدر حينما استشار النبي (صلى الله عليه وآله) أصحابه في قتال قريش بعد ان أفلتت القافلة ((إنها قريش وخيلاؤها ما آمنت منذ كفرت، ولا ذلت منذ عزت، ولم نخرج على أهبة الحرب))، بحار الأنوار: ١٩/ ٢١٧.

صُدِدنا عن البيت وصُدَّ هَديُنا وعكف رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالحديبية ورد رجلين[1] من المسلمين خرجا فبلغ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قول رجال من أصحابه - ممن هم على شاكلة ذلك الرجل-: إن هذا ليس بفتح فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): بئس الكلام، هذا أعظم الفتح، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألونكم القضية ويرغبون إليكم في الإياب، وقد كرهوا منكم ما كرهوا، وقد أظفركم الله عليهم وردّكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا أعظم الفتح، أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا؟ قال المسلمون: صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا، فأنزل الله سورة الفتح)[2].

---

(١) وهما أبو جندل ابن سهيل بن عمرو وكان معتقلاً في مكة ومكبلاً بالحديد فأفلت وقدم على رسول الله (صلى الله عليه وآله) مستجيراً وأبوه سهيل لا زال عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) يكتب الوثيقة ويوقعها نيابة عن قريش، والآخر هو أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفي لجأ إلى النبي (صلى الله عليه وآله) بعد وصوله المدينة، فردّهما رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى قريش التزاماً ببنود الاتفاقية، ولما كبر هذا الشرط على المسلمين قال (صلى الله عليه وآله): من جاءهم منا فأبعده الله ومن جاءنا منهم رددناه إليهم، فلو علم الله الإسلام في قلبه جعل له مخرجاً، (مجمع البيان: ٩/ ١٠٦). وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يطمئنهم بأن الله سيجعل لهم مخرجاً وهذا ما حصل فقد قام هؤلاء بحرب عصابات ضد قريش من كمين اتخذوه مما اضطر قريش إلى إلغاء هذا الشرط وأن يقبلهم رسول الله (صلى الله عليه وآله).

(٢) الدر المنثور: ١٣/ ٤٥٩.

أقول: الرجل الذي لم يسمِّه هو عمر بن الخطاب بقرينة ما أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وآخرين عن عمر أنه سأل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن شيء ثلاث مرات فلم يجبه حتى ذهب ثم دعاه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال له: (لقد انزلت عليَّ الليلة سورة أحبّ إليَّ من الدنيا وما فيها) وقرأ سورة الفتح.

لقد تحقق بصلح الحديبية فتح ظاهر بيِّن للنبي (صلى الله عليه وآله) والمسلمين لمسوا بركاته عاجلاً، ولعظمة هذا الفتح فقد نسبه الله تعالى إليه مباشرة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً﴾ (الفتح:١)، وفي هذه النسبة ﴿إِنَّا﴾ موعظة للمؤمنين بأن الله تعالى حاضر في كل شيء ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد:٤)، فعلى المؤمنين أن يلتفتوا إلى رعاية الله تعالى المباشرة لهم، وأن يتيقنوا أنه ما مِن نصر بل كل توفيق يحصل إلا بلطفه وتأييده تبارك وتعالى.

وكان من مظاهر هذا الفتح:

١- توقف الحرب مع قريش وحصول المسلمين على الأمن من ويلات الحروب المتكررة التي أشار النبي (صلى الله عليه وآله) إلى بعضها في كلمته الآنفة، قال تعالى: ﴿أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (التوبة:١٢٦)، وعاد النبي (صلى الله عليه وآله) والمسلمون سالمين منتصرين إلى المدينة ومعهم عهد بدخول مكة آمنين العام المقبل بعد أن كانوا يظنون أن قريشاً ستبيدهم في الصحراء، كما في الآية (١٢) المتقدمة.

٢- توفر الأجواء المناسبة لانتشار الدعاة والمبلغين والانفتاح على قبائل العرب وإقناعهم بالإسلام، بعد أن رفعت الغشاوة عن أعينهم، وكُسِر الحصار الإعلامي على رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالتشويه والافتراء والتسقيط، وعرفوا سموا أخلاق رسول الله (صلى الله عليه وآله) وإنه جاء بالعدالة والكرامة والسلام والأخلاق الحميدة وقد نجحت الخطة، حتى خرج مع النبي (صلى الله عليه وآله) إلى مكة بعد سنتين لفتحها عشرة آلاف مقاتل بينما لم يزيدوا في الحديبية عن ألف وأربعمائة، وهذا يعني أن عدد المسلمين تضاعف خلال سنتين عدة أضعاف عددهم خلال تسعة عشر عاماً من عمر الرسالة، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (فما انقضت تلك المدة حتى كاد الإسلام يستولي على أهل مكة)[1].

٣- انتزاع اعتراف قريش بالوجود الإسلامي كأمر واقع فأذعنوا له وجاؤوا طالبين الصلح وهم أكثر عدة وعدداً ومعهم حلفاؤهم من قبائل العرب، وبذلك انقلبت موازين الحرب لصالح رسول الله (صلى الله عليه وآله).

٤- التمهيد للفتح الأعظم وهو فتح مكة بعد سنتين، بسبب خرق قريش لبنود الصلح بعد أن أدركت أنه ليس لمصلحتها وأنه أدى إلى عزل قريش وتفككها حيث اقتنع عدد كبير من رموزهم بالإسلام والتحقوا بالنبي (صلى الله عليه وآله) في المدينة كخالد بن الوليد قائد الفرسان.

٥- تفرّغ النبي (صلى الله عليه وآله) لتقوية جبهته الداخلية عقائدياً وأمنياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً، ومعالجة الأخطار الكامنة فيها الآتية من المنافقين في المدينة ومن اليهود في خيبر خارج المدينة، حيث استأصل وجودهم في السنة التالية

(١) بحار الأنوار: ٢٠/ ٣٦٣.

ودعم اقتصاده الفتي الضعيف بما غنم من أموالهم في الحروب المتعددة معهم وتوجّه إلى خارج الجزيرة لقتال الروم في مؤتة، ووجه رسائل إلى ملوك الفرس والروم والحبشة يدعوهم إلى الإسلام.

ومن الدروس المستفادة من هذا الفتح أن من الممكن تحقيق النصر والفتح سلماً وبدون قتال من خلال معاهدات الصلح، وأنَّ الشعوب يمكنها أن تحقق النصر على العدو الظالم المستبد وتقنع الدنيا بقضيتها العادلة بمسيرات سلمية تحرج العدو وتسلب منه كل الذرائع لاستعمال العنف ضدهم فيذعن لمطالبهم، والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة ذكرتُها في بيان عن جدوى المسيرة المليونية في زيارة الأربعين والنتائج المباركة المترتبة عليها[1].

وبذلك لا نستبعد ما ورد في الدعاء للإمام المهدي الموعود (عجل الله تعالى فرجه الشريف) (حتى تسكنه أرضك طوعا) وهو ما تناولته مفصلاً في حديث سابق[2].

(١) موسوعة خطاب المرحلة: ٢٨٠/٤ و٣٥٣.

(٢) موسوعة خطاب المرحلة: ١٨٧/١٣.

القبس/١٩٤

سورة الفتح:﴿٢﴾

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾

موضوع القبس: الله تعالى يتكفل بمعالجة تبعات العمل الرسالي

جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى في الآية الأولى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (الفتح:١) والظاهر أن اللام للغرض، أي أن الله تعالى أنجز لنبيه (صلى الله عليه وآله) هذا الفتح لتحقيق عدة بركات، قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ۞ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ (الفتح:٢-٣)، ومحل البحث الفقرة الأولى.

وعلى المعنى المعروف من الذنب وهو معصية الله تعالى وأن المغفرة رفع استحقاق المؤاخذة والعقاب، فإن الآية لا يمكن فهمها على ظاهرها، لأنها تنسب صدور الذنوب من النبي (صلى الله عليه وآله)، ونحن نعتقد أنه (صلى الله عليه وآله) معصوم منها على جميع المستويات الصغيرة والكبيرة قبل النبوة وبعدها بحسب الأدلة العقلية والنقلية، وقد أدّبه ربه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأنعام:١٥) فكيف يرتكب ما يخاف منه؟، كما أنه على هذا المعنى لا يبدو الارتباط بين الفتح وغفران الذنوب الذي يقتضيه التعليل واضحاً، مع ما يمكن أن يقال بأن التعهد بمغفرة ما تأخّر من الذنوب أي المستقبلية التي لم تقع بعد فيه إغراء بالمعصية، فهذه إشكالات ثلاث تأتي على هذا المعنى من الذنب.

وبناءً على المعنى المعروف للذنب فقد ذكر مفسّرو العامة وجوهاً لتفسير الآية لا تنسجم مع عقيدتنا الحقة في سعة عصمته (صلى الله عليه وآله) التي لا يوافقنا عليها العامة، قال الطبرسي (رضوان الله عليه) ناقلاً عنهم: ((فمنها: أنهم قالوا: معناه: ما تقدم من معاصيك قبل النبوة وما تأخر عنها. ومنها: قولهم: ما تقدّم قبل الفتح وما تأخّر عنه.

ومنها: قولهم: ما وقع وما لم يقع، وعلى الوعد بأنه يغفر له إذا وقع))[1].

أقول: لا يمكن قبول مثل هذه الوجوه المخالفة للعقيدة الحقة، مضافاً إلى أنها غير واضحة التفرع عن الفتح المبين كما يظهر من لام الغرض، قال السيد الطباطبائي (قدس سره): ((اللام في قوله ﴿لِيَغْفِرَ﴾ للتعليل على ما هو ظاهر اللفظ، فظاهره أن الغرض من هذا الفتح المبين هو مغفرة ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ومن المعلوم أن لا رابط بين الفتح وبين مغفرة الذنب ولا معنى معقول لتعليله بالمغفرة))[2].

لذا فيجب تفسير الآية بما لا يتنافى مع عقيدتنا في عصمة الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين)، قال الطبرسي: ((ولأصحابنا فيه وجهان من التأويل أحدهما: إن المراد ليغفر لك الله ما تقدم من ذنب أمتك، وما تأخر بشفاعتك، وأراد بذكر التقدم والتأخر ما تقدم زمانه، وما تأخر، كما يقول القائل لغيره: صفحت عن السالف والآنف من ذنوبك.

---

(١) مجمع البيان: ٩٩/٩.

(٢) الميزان: ١٨/ ٢٥٧. ط. الأعلمي – بيروت.

وحسنت إضافة ذنوب أمته إليه للاتصال والسبب بينه وبين أمته. ويؤيد هذا الجواب ما رواه المفضل بن عمر عن الصادق (عليه السلام) قال: سأله رجل عن هذه الآية فقال: والله ما كان له ذنب، ولكن الله سبحانه ضمن له أن يغفر ذنوب شيعة علي (عليه السلام) ما تقدم من ذنبهم وما تأخر[1]. وروى عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) عن قول الله سبحانه ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال: (ما كان له ذنب، ولا هم بذنب، ولكن الله حمّله ذنوب شيعته، ثم غفرها له)))[2].

أقول: إن كان يقصد ثبوت أصل الشفاعة للنبي وآله (صلوات الله عليهم أجمعين) فهذا ثابت بالكتاب والسنة وهو صحيح في نفسه فقد أكرم الله تعالى نبيه بالشفاعة، وقد روي أنها المقام المحمود الذي وعده الله تعالى، لكن التعليل والتفريع على الفتح غير واضح، مضافاً إلى أنه معنى لا يصح على إطلاقه لمخالفته لصريح القرآن ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ (الأنبياء:٢٨)، ولا نقبل بسريان عقيدة النصارى إلينا بأن المسيح صُلب ليفتدي أتباعه إلى يوم القيامة، فإن فيه إغراء الأمة بالمعاصي.

وأما رواية عمر بن يزيد فإنها لا تصلح شاهداً على ما ذكر من المعنى، وإنما تعني أن الأفعال السيئة لأمته التي تلحقه تبعتها والمسؤولية الأخلاقية عنها باعتباره

---

(١) مجمع البيان: ٩/ ١٨٤، ط. الأعلمي – بيروت. هكذا رواها الطبرسي مرسلة في مجمع البيان، والموجود في (البرهان: ٩/ ٦٧) عن تأويل الآيات رواية عن مجاهيل ولا تنتهي إلى المعصوم إذ فيها محمد بن سعيد المروزي – وهو غير مذكور في معجم الرجال– قال: (قلت لرجل.. إلى آخره).

(٢) علل الشرائع: ١٧٣، ح١.

القائد الأعلى لهم، قد غفرها الله تعالى له وهذه التبعات وابتلاء النبي (صلى الله عليه وآله) بأمته مستمرة حتى بعد وفاته، وهذا أحد الوجوه التي يمكن حمل استغفار المعصومين (عليهم السلام) من الذنوب عليها.

ثم قال (قدس سره): ((والثاني: ما ذكره المرتضى، (قدس الله روحه)، أن الذنب مصدر والمصدر يجوز إضافته إلى الفاعل والمفعول معاً، فيكون هنا مضافاً إلى المفعول، والمراد ما تقدم من ذنبهم إليك في منعهم إياك عن مكة، وصدّهم لك عن المسجد الحرام، ويكون معنى المغفرة على هذا التأويل الإزالة، والنسخ لأحكام أعدائه من المشركين عليه أي: يزيل الله تعالى ذلك عنك، ويستر عليك تلك الوصمة، بما فتح لك من مكة، فستدخلها فيما بعد. ولذلك جعله جزاءً على جهاده، وغرضاً في الفتح، ووجهاً له قال: ولو أنه أراد مغفرة ذنوبه، لم يكن لقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ﴾ معنى معقول، لأن المغفرة للذنوب لا تعلق لها بالفتح، فلا يكون غرضاً فيه.

وأما قوله: ﴿مَا تَقَدَّمَ ... وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فلا يمتنع أن يريد به ما تقدم زمانه من فعلهم القبيح بك وبقومك)).

أقول: هذا وجه حسن ومنسجم مع ما سنختاره إن شاء الله تعالى لأن إضافة المصدر إلى مفعوله سائغ كقولك: (جئت طالباً وعظك) فإنه قابل للحمل على وعظه للمقابل ووعظ المقابل له فيكون اللفظ مجملاً وحمالاً لوجوه لكنه غير مخلٍّ لأن المراد يعرف من القرائن، نعم قد يشكل على هذا الوجه بأن الذنب هنا اسم مصدر وليس مصدر.

قال (قدس سره): ((وقيل أيضاً في ذلك وجوه أخر:

منها: أن معناه: لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك - أي أن الوعد افتراضي، وفيه: أنه خلاف الظاهر من الامتنان بمغفرة ذنوب فعلية-.

ومنها: أن المراد بالذنب هناك ترك المندوب، وحَسُنَ ذلك، لأن من المعلوم أنه ممن لا يخالف الأوامر الواجبة، فجاز أن يسمى ذنباً منه، ما لو وقع من غيره لم يسم ذنباً، لعلو قدره ورفعة شأنه)).

وفيه: عدم وضوح الارتباط بينه وبين الفتح ليكون غرضاً له.

ثم قال (قدس سره) ((ومنها: أن القول خرج مخرج التعظيم، وحسن الخطاب كما قيل في قوله: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ﴾ وهذا ضعيف، لأن العادة جرت في مثل هذا أن يكون على لفظ الدعاء))[1].

أقول: يمكن أن يكون الذنب مشيراً إلى ما تقتضيه الطبيعة البشرية المتضمنة للجسد من القصور في أداء وظائف العبودية لله تعالى لابتلائها بالحاجات الحياتية كالنوم والأكل وشؤون العائلة، وتكون المغفرة - التي تعني الستر ومحو الآثار - بمعنى تكميل هذا النقص الذاتي الذي تقتضيه الطبيعة البشرية ليكون في أكمل الصفات التي تناسب حمل الرسالة الإلهية، وقد يشكل عليه بأنه غير واضح الارتباط بالفتح بحسب إفادة اللام للتعليل، ويجاب بالمعنى الواسع للفتح الذي ذكرناه في تفسير الآية الأولى، وبانسجام هذا المعنى مع النعم المذكورة في بقية الآية.

ويمكن أن نذهب في اتجاه آخر لمعالجة الإشكال ونقول: إن أصل الإشكال قد يكون لا موضوع له، لأن معنى الذنب أوسع من معصية الله تعالى

(١) مجمع البيان: ٩/ ٩٩-١٠٠. ط. مؤسسة التأريخ العربي- بيروت.

وإنما هي مما استعمل فيها لفظ الذنب لأنها من مصاديقه ولا يقتصر معناه عليها، فإنه لغةً ((كل فعل يستوخم عقباه اعتباراً بذَنَبَ الشيء، ولهذا يسمى الذنب تبعة اعتباراً لما يحصل من عاقبته))[1].

أقول: فيمكن أن يطلق على ترك الأمور الراجحة عقلائياً أو شرعياً وإن لم تكن من المعاصي، كما يطلق الذنب على التبعة وفق نظر المجتمع أو القوانين الوضعية، كقول النبي الكريم موسى ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (الشعراء:١٤) ولم يصدر منه ذنب بالمعنى المعروف وهو مخالفة التكليف الشرعي؛ لأنه انتصر لمظلوم ولكنه كان يُعدَّ مذنباً بحسب قانون الظلمة.

ومن مصاديق هذه الفكرة ما روي من وجه يناسب جعل المغفرة غرضاً مترتباً على الفتح ومرتبطاً به من دون أن يلزم منه مخالفة التكاليف الشرعية، وهو ما لحقه من تبعات سيئة عند المشركين والكفار من قومه وغيرهم بسبب دعوته المباركة وخروجه عن تقاليد قومه وتمرّده عليهم فهم يعدّونه مذنباً، بل أن بعض أصحابه كان يعدُّ النبي (صلى الله عليه وآله) مذنباً بتوقيع عقد الصلح مع مشركي قريش واعتقدوا إن فيه حيفاً على المسلمين وجابهوه بقولهم: ((لماذا نعطي الدنية في ديننا))[2] وكانوا يدفعون باتجاه القتال، فمنَّ الله تعالى عليه بمغفرة هذه الذنوب أيضاً، وأزالها من نفوسهم بظهور بركات الفتح.

---

(١) مفردات الراغب، مادة الذنب.

(٢) أنظر: صحيح البخاري: ٣/ ١٨٢،- تفسير القرطبي: ١٦/ ٢٧٧،- صحيح ابن حبان: ١١/ ٢٢٤.

ففي العيون بسنده إلى علي بن محمد بن الجهم قال: (حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى (عليه السلام) فقال له المأمون: يا ابن رسول الله، أليس من قولك: الأنبياء معصومون؟ قال: بلى.. إلى أن قال: فأخبرني قول الله عز وجل: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾؟

قال الرضا (عليه السلام): لم يكن أحد عند مشركي أهل مكة أعظم ذنباً من رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأنهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين صنماً، فلما جاءهم (صلى الله عليه وآله) بالدعوة إلى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم وعظم وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۞ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۞ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ (ص:٥-٧) فلما فتح الله عز وجل على نبيه (صلى الله عليه وآله) مكة قال له يا محمد: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ - مكة- فَتْحًا مُبِينًا ۞ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ عند مشركي أهل مكة بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدم وما تأخر؛ لأن مشركي مكة أسلم بعضهم وخرج بعضهم عن مكة، ومن بقى منهم لم يقدر على إنكار التوحيد عليه إذا دعا الناس إليه، فصار ذنبه عندهم ذلك مغفوراً بظهوره عليهم. فقال المأمون: لله درك أبا الحسن)[1].

أقول: هذا الوجه يظهر بوضوح المناسبة بين الفتح ومغفرة الذنب وهو مبني على المعنى الواسع للذنب الذي أشرنا إليه، فإن المستكبرين وأصحاب الامتيازات يعتبرون خروج النبي (صلى الله عليه وآله) على نظامهم الاجتماعي، وسعيه الدؤوب لتحرير

(١) عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ١/ ١٧٤- ١٨٠، باب ١٥، ح١، ط. الأعلمي- بيروت.

الناس من استعبادهم وما تسبّب من قتل سادتهم وإذلالهم، من أعظم الذنوب لذلك فقد شنّوا عليه الحروب بكل أشكالها العسكرية والاقتصادية والإعلامية والاجتماعية، ومارسوا أقذر أساليب التشويه والتسقيط والافتراء لإبعاد الناس عنه، فلما فتح الله تعالى لنبيه في الحديبية وما تلاه من فتح مكة تلاشت كل تلك الحروب، وظهر زيف الادعاءات، وقلت قيمة تلك المؤاخذات بانقلاب الموازين واتضاح المصلحة، وانكشفت حقيقة الإسلام ونبيّه العظيم لكل المغفَّلين المضلَّلين ومحا الله تعالى عنه آثار كل تلك الذنوب التي نُسبت إليه (صلى الله عليه وآله) وفق القوانين الظالمة للمشركين، فهذا هو المعنى الأقرب للآية الكريمة[1].

والظاهر أن هذه المغفرة على نحو الوعد وليس الحتم والإلزام، أي على نحو شرط الفعل وليس شرط النتيجة لحاجتها إلى الاستغفار المستمر، وإلا لا يبقى موضوع لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (محمد:١٩) وبذلك يندفع إشكال الإغراء بالمعصية.

والمراد بما تأخّر: التبعات الاجتماعية اللاحقة التي تحصل بسبب استمرار الرسالة المباركة في الدعوة إلى الله تعالى، ونبذ عبادة الطواغيت وسائر ما يُتبَّع ويطاع من دون الله تعالى، واتساع الدعوة المباركة وإصرارها على إصلاح الواقع الفاسد فتحصل تلقائياً تبعات جديدة.

---

(١) وهو معنى جارٍ في غير المسلمين كما نراه اليوم حين نقرأ لبعض الغربيين مؤاخذاتهم لما نُقل لهم من أفعال نبي الإسلام ومعاركه (صلى الله عليه وآله) ثم حين يتعمقون أكثر ويصححون موازين التفكير عندهم ويدققون في النقولات المزيفة يصحح الله تعالى نظرتهم لنبي الإسلام كما صححه لمشركي مكة ومسلمي يوم الحديبية.

وفي الآية الكريمة أكثر من درس وموعظة:

١- أننا إذا عملنا لله تعالى مخلصين فإن الله تبارك وتعالى يتكفل بالدفاع عنّا وإحباط كل محاولات الأعداء للنيل منّا بالتشويه والتسقيط والافتراء وإزالة آثارها وتغيير قناعات المضلّلين.

٢- إن على القيادات الرسالية أن تنتبه إلى ما تسبّبه حركتهم الرسالية من تبعات اجتماعية لدى القريب والبعيد وتسعى إلى علاجها؛ لأن بقاءها يعيق تقدم المشروع الرسالي وانتشاره.

وينبغي الالتفات إلى أن الأجوبة المتقدمة كانت بلحاظ ما ورد من الإشكال على هذه الآية الكريمة، ويكون الإشكال أوسع وأوضح ويحتاج إلى أجوبة أخرى في موارد إقرار المعصومين (عليهم السلام) واعترافهم الوارد في الأدعية والمناجاة وقد قدمنا في محاضرة سابقة[1] عشرة أجوبة لفهم مثل هذه الكلمات.

---

(١) أنظر: الملحق التالي.

ملحق: معنى استغفار المعصومين (عليهم السلام) من الذنوب

إثارة لإشكال:

ويكون الإشكال اوسع وأوضح في موارد الإقرار والاعتراف الوارد في الأدعية والمناجاة عن الأئمة (سلام الله عليهم).

مثلاً ما ورد في دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة: (ثم إني يا إلهي المعترف بذنوبي فاغفرها لي، أنا الذي أخطأت أنا الذي هممت، أنا الذي جهلت..) إلى أن يقول (عليه السلام): (إلهي أمرتني فعصيتك ونهيتني فارتكبت نهيك).

ومثل هذا الاعتراف بالذنب بين يدي الله تبارك وتعالى تكرر كثيراً في أدعيتهم ومناجاتهم (سلام الله عليهم) كقول الإمام السجاد (عليه السلام) في دعاء أبي حمزة: (أنا يا رب الذي لم أستحيك في الخلاء ولم أراقبك في الملأ أنا صاحب الدواهي العظمى أنا الذي على سيده اجترا، أنا الذي عصيت جبار السما، أنا الذي أعطيت على معاصي الجليل الرُشى، أنا الذي حين بُشرت بها خرجت إليها أسعى، أنا الذي أمهلتني فما ارعويت وسترت عليَّ فما استحييت وعملت بالمعاصي فتعديت)[1].

جواب الإشكال:

ويقال في الجواب أحياناً أنهم إنما يتحدثون بلسان الناس الآخرين لأنهم (عليهم السلام) في مقام التعليم للناس فيلقنونهم ما يقولون عندما يقفون بين يدي الله تبارك وتعالى، كما علّم الله تعالى عباده في سورة الحمد ما يقولون عندما يقفون بين

(١) مفاتيح الجنان: ٢٤٠.

يدي الله تبارك وتعالى في الصلاة وغيرها.

وهذا الجواب قد يناسب صدور بعض تلك الأدعية لكنه لا يفسّرها كلها، لأن الإمام (عليه السلام) يعبر فيها فعلاً عن وجدانه وعن مشاعره تجاه الخالق العظيم.

ويروى هذا الجواب عن ابن طاووس، فقد قال الأربلي في كشف الغمة:(كنت أرى الدعاء الذي كان يقوله أبو الحسن موسى (عليه السلام) في سجدة الشكر وهو (ربِّ عصيتك بلساني ولو شئت وعزّتك لأخرستني، وعصيتك ببصري ولو شئتَ وعزتك لأكمهتني.. وعصيتك بجميع جوارحي التي أنعمتَ بها عليّ لم يكن هذا جزاك مني) فكنت أفكر في معناه وأقول كيف يتنزل على ما تعتقده الشيعة من القول بالعصمة وما اتضح لي ما يدفع التردد الذي يوجبه).

فاجتمع بالسيد علي بن طاووس (قدس الله روحه) وسأله عن ذلك فقال:(إن الوزير مؤيد الدين العلقمي (رحمه الله) سألني عنه فقلت كان يقول هذا ليعلم الناس، ثم إني فكرت بعد ذلك فقلت هذا كان يقوله في سجدته في الليل وليس عنده من يعلّمه).

(ومات السيد ابن طاووس (رحمه الله) فهداني الله إلى معناه ووفقني على فحواه فكان الوقوف عليه والعلم به وكشف حجابه بعد السنين المتطاولة والأحوال المحرمة والأدوار المكررة من كرامات الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) ومعجزاته ولتصح نسبه العصمة إليه (عليه السلام) وتصدق على آبائه وأبنائه البررة الكرام وتزول الشبهة التي عرضت من ظاهر هذا الكلام.

وتقريره أن الأنبياء والأئمة (عليهم السلام) تكون أوقاتهم مشغولة بالله تعالى وقلوبهم مملوءة به وخواطرهم متعلقة بالملأ الأعلى وهم أبداً في المراقبة كما قال (عليه السلام)

اعبد الله كأنك تراه فإن لم تره فإنه يراك.

فهم أبداً متوجهون إليه ومقبلون بكلهم عليه فمتى انحطوا عن تلك الرتبة العالية والمنزلة الرفيعة إلى الاشتغال بالمأكل والمشرب والتفرغ إلى النكاح وغيره من المباحات عدوه ذنباً واعتقدوه خطيئة واستغفروا منه.

ألا ترى أن بعض عبيد أبناء الدنيا لو قعد وأكل وشرب ونكح وهو يعلم أنه بمرأى من سيده ومسمع لكان ملوماً عند الناس ومقصراً فيما يجب عليه من خدمة سيده ومالكه فما ظنك بسيد السادات وملك الأملاك. وإلى هذا أشار (عليه السلام) أنه ليران على قلبي وأني لأستغفر بالنهار سبعين مرة ولفظه السبعين إنما هي لعد الاستغفار لا إلى الرين وقوله حسنات الأبرار سيئات المقربين)[1].

ثم قال: (ونزيده إيضاحاً من لفظه ليكون أبلغ من التأويل ويظهر من قوله (عليه السلام): (وعصيتك بفرجي ولو شئت وعزتك لأعقمتني) أعقمتني والعقيم الذي لا يولد له والذي يولد من السفاح لا يكون ولداً فقد بان بهذا أنه كان يعد اشتغاله في وقت ما بما هو ضرورة للأبدان معصية يستغفر الله منها وعلى هذا فقس البواقي وكلما يرد عليك من أمثالها).

وجوه أخرى لجواب الإشكال:

وقد ذكر العلامة المجلسي (قدس سره) هذا الوجه ووجوهاً أخرى لفهم صدور هذه الأقوال منهم (عليهم السلام)، قال (قدس سره): ((فأما ما يوهم خلاف ذلك –أي عصمتهم (عليهم السلام)– من الأخبار والأدعية وهي مؤولة بوجوه:

---

(١) كشف الغمة في معرفة الأئمة: ٣/٤٧-٤٨.

١- أن ترك المستحب وفعل المكروه قد يسمى ذنباً وعصياناً بل ارتكاب بعض المباحات أيضا بالنسبة إلى رفعة شأنهم وجلالتهم ربما عبروا عنه بالذنب لانحطاط ذلك عن سائر أحوالهم كما مرت الإشارة إليه في كلام الأردبلي (رحمه الله).

٢- إنهم بعد انصرافهم عن بعض الطاعات التي أُمروا بها من معاشرة الخلق وتكميلهم وهدايتهم ورجوعهم عنها إلى مقام القرب والوصال ومناجاة ذي لجلال ربما وجدوا أنفسهم لانحطاط تلك الأحوال عن هذه المرتبة العظمى مقصرين، فيتضرعون لذلك وإن كان بأمره تعالى، كما أن أحداً من ملوك الدنيا إذا بعث واحداً من مقربي حضرته إلى خدمة من خدماته التي يحرم بها من مجلس الحضور والوصال فهو بعد رجوعه يبكي ويتضرع وينسب نفسه إلى الجرم والتقصير لحرمانه عن هذا المقام الخطير.

٣- إن كمالاتهم وعلومهم وفضائلهم لما كانت من فضله تعالى، ولولا ذلك لأمكن أن يصدر منهم أنواع المعاصي، فإذا نظروا إلى أنفسهم وإلى تلك الحال أقروا بفضل ربهم وعجز نفسهم بهذه العبارات الموهمة لصدور السيئات فمفادها أني أذنبت لولا توفيقك، وأخطأت لولا هدايتك)).

أقول: هذا المعنى ذكره الأئمة (عليهم السلام) في أدعيتهم كما في دعاء الصباح عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (إلهي إن لم تبتدئني الرحمة منك بحسن التوفيق، فمن السالك بي إليك في واضح الطريق؟ وإن أسلمتني أناتك لقائد الأمل والمنى فمن المقيل عثراتي من كبوات الهوى؟ وإن خذلني نصرك عند محاربة النفس والشيطان فقد وكلني خذلانك إلى حيث النصب والحرمان).

٤- (إنهم لما كانوا في مقام الترقي في الكمالات والصعود على مدارج

الترقيات في كل آن من الآنات في معرفة الرب تعالى وما يتبعها من السعادات فإذا نظروا إلى معرفتهم السابقة وعملهم معها اعترفوا بالتقصير وتابوا منه، ويمكن أن ينزل عليه قول النبي(صلى الله عليه وآله):(وإني لاستغفر الله في كل يوم سبعين مرة)).

أقول: هذا معنى مجرَّب في حياتنا فالعالم أو الباحث الذي ينضجّ علمه ويتعمق ويتسع تدريجياً عندما يراجع ما كتبه وما قدّمه قبل سنين فإنه يخجل منه ويعترف بالتقصير إزاءه وربما يطلب إتلافه وتغييبه مع أنه كان يمثل قدراته في ذلك الوقت وكان مقتنعاً به، إلا أنه لما ترقّى صار يراه موجباً للخجل والاعتذار.

أما كونهم (صلوات الله عليهم أجمعين) في ارتقاء وزيادة حتى بعد وفاتهم فهذا ما نطقت به الروايات لذا ورد الحث على الدعاء لهم بطلب الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود والصلاة عليهم، وورد في ذلك قول الإمام الصادق (عليه السلام): (لولا أنّا نزداد لأنفدنا)[1].

٥- إنهم (عليهم السلام) لما كانوا في غاية المعرفة لمعبودهم فكل ما أتوا به من الأعمال بغاية جهدهم ثم نظروا إلى قصورها عن أن يليق بجناب ربهم عدوا طاعاتهم من المعاصي واستغفروا منها كما يستغفر المذنب العاصي.

ومن ذاق من كأس المحبة جرعة شائقة لا يأبى عن قبول تلك الوجوه الرائقة، والعارف المحب الكامل إذا نظر إلى غير محبوبه أو توجه إلى غير مطلوبه يرى نفسه من أعظم الخاطئين، رزقنا الله الوصول إلى درجات المحبين))[2].

---

(١) أصول الكافي: ج١، كتاب الحجة، باب: لو أن الأئمة يزدادون لنفد ما عندهم.

(٢) بحار الأنوار: ٢١٠/٢٥.

وهذا المعنى عرفي أيضاً فإن من حلّ به ضيف عالي الشأن وقدّم له غاية جهده إلا أنه يواصل اعتذاره عن التقصير، لأنه يرى أن ما قدّمه وإن كان كل ما يستطيع تقديمه إلا أنه بلحاظ مقام ذلك الضيف يرى كل ما قدّمه موجباً للخجل والاعتذار.

وجوه أخرى لفهم معنى استغفارهم (عليهم السلام) من الذنوب:

ونضيف وجوهاً أخرى إلى ما ذكره (تدبّر) مع المحافظة على الترتيب:

٦- إنهم (عليهم السلام) يستغفرون من الذنوب التي تحسب عليهم بما اجترح أتباعهم، وهذا معنى أخلاقي جرت عليه السيرة العقلائية، فإن المرجع يتحمل أوزار أتباعه إذا أساؤوا، والأب يعتبر نفسه مسؤولاً عما جناه ابنه، والمدير لمؤسسةٍ ما يعتبر نفسه مسؤولاً عن تقصير أحد موظفيه، أو خيانتهم، فيقدم الاعتذار ويتحمّل التبعة وقد يستقيل من موقعه.

فالمعصومون (عليهم السلام) يستغفرون الله تعالى من التبعات التي لحقتهم بسبب سوء تصرفات أتباعهم بل هم آباء لهذه الأمة بنص الحديث النبوي الشريف:(يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة)[1]، فما يصدر من الأمة يحسب عليهم.

ووردت في بعض الروايات كما في تفسير القمي بسنده عن عمر بن يزيد قال: (قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) قول الله عز وجل في كتابه ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال (عليه السلام): ما كان له ذنب ولا همَّ بذنب ولكن الله

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ١١/٣٦.

حمّله ذنوب شيعته ثم غفرها له)[1].

لذا وردت الوصايا عن المعصومين (عليهم السلام) لشيعتهم: (كونوا لنا زيناً، ولا تكونوا علينا شيناً)[2].

٧- إنهم (عليهم السلام) يعتبرون أنفسهم مذنبين ومقصّرين ما دام يوجد فرد في هذه الدنيا لم يتكامل ولم يحقق العبودية الكاملة في حياته، لأن هذا يعني أنهم (عليهم السلام) لم يحققوا هدفهم ولم تنجح وظيفتهم بشكل كامل وهي بسط التوحيد الخالص في الأرض، فكيف إذا كانت أكثر البشرية ضالة ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف:١٠٣).

وهذا النقص في تحقيق الغرض وإن كان بسبب خارج عنهم وهو سوء اختيار المتلقي من الناس وعدم استجابتهم لداعي الحق، أي في قابلية القابل وليس في فاعلية الفاعل كما يعبّرون، إلا أنهم (عليهم السلام) على أي حال يشعرون بالذنب والتقصير وحرقة القلب لعدم اكتمال أهداف رسالتهم، ويطلبون من الله تعالى العفو والصفح.

ولذا وردت تطمينات من الله تبارك وتعالى لنبيه وعفو عن مسؤولية هذه النتائج المؤسفة، وتطييب لقلبه (صلى الله عليه وآله)، قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[3] نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ (الكهف:٦) وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ

(١) تفسير القمي: ٢٩٠/٢، وأوردها عنه العلامة المجلسي في البحار: ٨٩/١٧ ح١٩.

(٢) الأمالي- الشيخ الصدوق: ٤٨٤.

(٣) باخع: أي قاتل.

بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٣).

٨- في ضوء الحديث المروي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):لم يُعبد الله عز وجل بشيء أفضل من العقل، ولا يكون المؤمن عاقلاً حتى يجتمع فيه عشر خصال) إلى أن قال (صلى الله عليه وآله): (والعاشرة وما العاشرة: لا يرى أحداً إلا قال:هو خير مني وأتقى، إنما الناس رجلان فرجلٌ هو خير منه وأتقى، وآخر هو شر منه وأدنى، فإذا رأى من هو خير منه وأتقى تواضع له ليلحق به، وإذا لقي الذي هو شرٌّ منه وأدنى قال:عسى خير هذا باطن وشره ظاهر، وعسى أن يختم له بخير، فإذا فعل ذلك فقد علا مجده، وساد أهل زمانه)[1].

أقول: عقول المعصومين (عليهم السلام) هي أكمل العقول فهذا التواضع وهذا الشعور بأنه أقل الخلق أمام الله تعالى في أعلى درجاته عندهم (عليهم السلام)، لأنهم لا ينظرون إلى أنفسهم ولا يتّكلون على أعمالهم مهما عظمت وخلصت ولا يأمنون مكر الله تعالى وهم يتلون خطاب الله لجدهم المصطفى (صلى الله عليه وآله) سيد الخلق: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر:٦٥) ويقول (صلى الله عليه وآله): (لو عصيت لهويت)[2].

والحكاية المروية عن كليم الله موسى بن عمران (عليه السلام): (إن الله سبحانه أوحى إلى موسى (عليه السلام): إذا جئت للمناجاة فاصحب معك من تكون خيراً منه، فجعل موسى لا يعترض (يعرض) أحداً إلا وهو لا يجسر (يجتري) أن يقول: إني خير منه، فنزل عن الناس وشرع في أصناف الحيوانات حتى مر بكلب أجرب

(١) الخصال للشيخ الصدوق (رضوان الله عليه): ٤٣٣/٢ أبواب العشرة، ح١٧.

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ٤٦٧/٢٢.

فقال:أصحب هذا فجعل في عنقه حبلا ثم جرّ به فلما كان في بعض الطريق شمر الكلب من الحبل وأرسله، فلما جاء إلى مناجاة الرب سبحانه قال: يا موسى أين ما أمرتك به؟ قال: يا رب لم أجده فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لو أتيتني بأحد لمحوتك من ديوان النبوة)[1].

٩- إن استغفار المعصومين (عليهم السلام) إنما هو من وجود مقتضيات الذنب والمعصية فيهم فعندهم شهوة جنسية وقوة غضبية وحاجة للطعام ونحو ذلك وإن كانت عندهم الملكة القدسية الرادعة عن توظيفها إلا في طاعة الله تبارك وتعالى، فتعتبر الشهوة الجنسية شراً بمعنى من المعاني، وكذا الغضب لأنها مناشئ الذنوب، ففي الخصال بسنده عن هشام بن الحكم في تفسير عصمة الإمام قال: ((إن جميع الذنوب لها أربعة أوجه لا خامس لها: الحرص والحسد والغضب والشهوة فهذه منتفية عنه))[2].

فالأئمة يستغفرون من وجود هذه المقتضيات للذنوب عندهم وإن كانوا بلطف الله تبارك وتعالى لا يستعملونها إلا في ما يرضي الله تبارك وتعالى كما في معاني الأخبار بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (المعصوم وهو الممتنع بالله من جميع محارم الله وقد قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران:١٠١))[3].

١٠- إن الله تعالى يقول: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾

(١) عدة الداعي لابن فهد الحلي: ٢٠٤.

(٢) الخصال: ٢١٥/١ أبواب الأربعة، ح٣٦.

(٣) معاني الأخبار: ١٣٢ باب ٦٤، ح٢.

(إبراهيم:﴿٣٤﴾) فإذا كان الإنسان عاجزاً عن معرفة نعم الله وعدّها فكيف يتسنى له شكرها فهو عن أداء الشكر أعجز وفي ذلك ورد في دعاء للإمام السجاد (عليه السلام): (ونعماؤك كثيرة قصُر فهمي عن إدراكها فضلاً عن استقصائها، فكيف لي بتحصيل الشكر وشكري إياك يفتقر إلى شكر، فكلما قلت لك الحمد وجبَ عليَّ لذلك أن أقول لك الحمد)[1].

فإذا ضممنا إلى ذلك مقدمة أخرى مأخوذة من وصية الإمام الكاظم (عليه السلام) المشهورة لهشام بن الحكم وفيها (يا هشام إن كل نعمة عجزت عن شكرها بمنزلة سيئة تؤاخذ بها)[2] ينتج وجه جديد لفهم الذنوب وهو العجز عن أداء شكر النعم، ويكون الشعور بالذنب أكبر كلما كانت النعم أكثر، ولذا يشعر الأئمة المعصومون (عليهم السلام) أنهم أكثر الخلق ذنوباً كقوله (عليه السلام): (وما في الورى شخص جنا كجنايتي) لأنهم حُبوا بأعظم النعم فقد أعطاهم الله تعالى منزلة يغبطهم عليها الأولون والآخرون وخلق الكون لأجلهم.

ما الذي استفدناه من هذه الإثارات:

أيها الأحبة: حينما نذكر هذه الوجوه التي هي صحيحة وقد يناسب بعضها بعض الموارد وبعضها موارد غيرها، فإنما نريد تحصيل عدة أمور:

١- دفع هذا الإشكال والدفاع عن عقيدتنا في عصمة النبي وأهل البيت (صلوات الله عليهم) التي هي ثابتة بأدلة قطعية تفوق الحصر والاستقصاء، وفهم

(١) مفاتيح الجنان: ١٩٨ مناجاة الشاكرين.

(٢) تحف العقول: ٣٨٣-٤٠٢.

الآية الكريمة وفق هذه العقيدة.

٢- أن نتعرف على طبيعة العلاقة مع الله تبارك وتعالى من خلال التأسّي بما كان يقوم به المعصومون (عليهم السلام).

أن نستشعر المسؤولية تجاه أفعالنا بل أفعال كل من يمكن أن تُحسب تصرفاته علينا، وتزداد سعة التبعة بسعة دائرة المسؤولية، فلا بد أن نكون مراقبين متابعين محاسبين حازمين والله المستعان.

القبس/١٩٥

سورة الفتح:﴿٢٥﴾

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ....لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (الفتح:﴿٢٥﴾).

السياقات التاريخية للآية الكريمة:

الآية من سورة الفتح التي سجّلت الفتح المبين الذي منّ الله تعالى به على نبيه الكريم (صلى الله عليه وآله) وعلى المسلمين بصلح الحديبية الذي انقلبت فيه موازين القوى ومعادلة الصراع بين المؤمنين والمشركين حيث كسر الله تعالى شوكة المشركين بقيادة قريش وشتت شملهم واصبحوا يُغزون في عقر دارهم وكانوا قبل عام من ذلك يحشدون عشرة الاف من الاحزاب ويحاصرون المدينة وأهلها، فصاروا يطلبون من النبي (صلى الله عليه وآله) الصُّلح والرجوع عن مكة ذلك العام، مما مهد الطريق لانتشار الاسلام في جزيرة العرب وفتح مكة، وكل ذلك تحقق بدون قتال، قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ (الفتح:﴿٢٤﴾)، ودع عنك ذكر بعض اصحاب النبي(صلى الله عليه وآله) الذين لم يفهموا هذا الفتح المبين فاعترضوا

على رسول الله(صلى الله عليه وآله) وشككوا في مصداقيته كما ورد في كتب العامة[1].

معنى الآية الكريمة:

وجواب (لولا) في الآية محل البحث غير مذكور ولكنه يعرف من هذه الآية السابقة عليها، أي لولا وجود هؤلاء لما كفّ الله تعالى أيديكم وأيديهم عن القتال الذي كان سينتهي حتماً بانتصار المسلمين كما في الآية السابقة عليهما ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾ (الفتح:٢٢).

فيكون معنى الآية انه لولا وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات ما زالوا يقيمون بين المشركين يخفون اسلامهم تقية واستضعافاً او لمصالح معينة لكونهم عيوناً للنبي (صلى الله عليه وآله) على المشركين وانتم لا تعرفونهم، لأوقع الله تعالى القتال بينكم وبين قريش وقد اقتحمتم عليهم ديارهم والنصرُ لكم، لكن الله تعالى كفّ أيديكم وأيديهم عن القتال، حمايةً لكم ولأولئك المؤمنين، لأنكم بسبب جهلكم بهم فيخشى عليكم من إصابتهم بقتل أو جرح فتصيبكم بسبب ذلك (معرّة) أي ضرر وعار في الدنيا أو الآخرة، لأن المشركين سيعيرّون المسلمين ويقولون أن هؤلاء مجرمون قساة لم يرحموا حتى جماعتهم المؤمنين، وسيقولون أيضاً أن النبي (صلى الله عليه وآله) لم يراعي حرمة بيت الله الآمن فقاتل على أرض الحرم.

ولو تزَّيل هؤلاء المؤمنون أي انفصلوا وتباينوا عن مجتمع المشركين لوقع العقاب على الكافرين خاصة ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من دون محذور، كما ان

(١) أنظر: جامع البيان- إبن جرير الطبري: ١٣٨/٢٦/ح٢٤٤٦١، - تفسير القمي: ٣١٥/٢.

الفريقين متزايلون يوم القيامة فيحل العذاب بالكافرين.

والغرض الاخر الذي لوحظ في تجنب القتال وكفّ الايدي عنه هو قوله تعالى ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (الفتح:٢٥) اي لإعطاء مزيد من الوقت والفرصة حتى يخرج المؤمنون من وسط قريش ويأووا الى كهف رسول الله (صلى الله عليه وآله) الرحيم، او حتى يهتدي من يشاء الله من هؤلاء المشركين والمعاندين، وهؤلاء لا تعرفون عنهم شيئا اكيدا، فلو تزيل هؤلاء اي تحقق الغرض بهداية من يُريد الله تعالى هدايته وانفصالهم عن المشركين لعذبنا الذين كفروا فالكفّ عن القتال يحقق مصلحتين:

١- دفع الخطر عن المؤمنين غير المعروفين ودفع المعّرة عن المسلمين.

٢- اعطاء الفرصة لهداية المزيد من الاعداء للإيمان.

من معاني الرحمة في الآية:

وهذه الرحمة لا تختص بالقوم الموجودين في ذلك الزمان، بل يشمل من سيأتون لاحقا كما ورد عن أهل البيت (عليهم السلام) في عدة روايات[1]، وفي إحداها قال الراوي للإمام الصادق (عليه السلام): ما بال أمير المؤمنين (عليه السلام) لم يقاتل فلاناً وفلانا؟ قال (عليه السلام) (لأيةٍ في كتاب الله عز وجل ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ (الفتح:٢٥) قال: قلت: وما يعني بتزايلهم؟ قال (عليه السلام) (ودائع مؤمنون في أصلاب قوم كافرين، وكذلك القائم (عليه السلام) لن يظهر أبدا حتى تخرج ودائع الله عز وجل، فإذا خرجت ظهر على من ظهر من أعداء الله عز

(١) ذكرها في تفسير البرهان: ٧١/٩.

وجل فقتلهم)[1].

سنة الله في عباده:

وهذه سنة الهية ثبّتها القرآن الكريم في قصة النبي نوح (عليه السلام)، لذلك فإنه (عليه السلام) لم يستنزل العذاب على قومه إلا بعد أن حصل عنده اليأس من ولادة شخص مؤمن، قال تعالى ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ۞ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّارا﴾ (نوح:٢٦-٢٧) ولكن العذاب لم ينزل إلا عندما أخبره الله تعالى بهذه الحقيقة وعندئذٍ أيقن النبي نوح (عليه السلام) بنزول العذاب، قال تعالى ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۞ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (هود:٣٦-٣٧).

دروس من الآية:

والآن بعد أن فهمنا أكثر من وجه لتفسير الآية نستطيع استنباط عدة دروس من الآية:

١- ان الغرض الذي يجب أن يكون ماثلاً دائماً أمام كل القادة والعاملين في السلم وفي الحرب وفي كل عمل هو إدخال الناس في الرحمة الإلهية ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ لأن الغرض من الخلق رحمتهم ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود:١١٩) فالرحمة المُشار اليها في الآية يمكن أن

(١) عن كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق: ٦٤١.

يكون المقصود بتحصيلها المؤمنين المستضعفين المتخفين بإيمانهم، أو المؤمنين الموجودين في أصلاب المشركين ولو بعد عدة أجيال، أو لنفس المشركين بأن يُوفقوا للإيمان، وقوله تعالى ﴿مَن يَشَاءُ﴾ ليس اعتباطياً وإنما مبني على أهلية الشخص وقابليته وحسن اختياره، لأن الله تعالى حكيم والحكيم يضع الاشياء في مواضعها.

فليست الحرب في الاسلام لتوسيع النفوذ وبسط السلطة وجني المزيد من المكاسب والمغانم وإنما لشمول الناس بالنفحات الالهية فإذا تحقق ذلك بالسلم والكفّ عن القتال فقد تحقق الغرض ولا معنى للحرب، فليفهم المعترضون على تشريع الاسلام للقتال.

٢- إن الآية تعطينا تفسيراً لصبر أمير المؤمنين (عليه السلام) على الظلم الذي لحق به وبالصديقة الزهراء (عليها السلام) بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله) وعجز الكثيرون عن فهم موقفه (عليه السلام) لذا بادروا الى إنكار أصل الموضوع مع تسليم المصادر بوقوعه، لكن أمير المؤمنين(عليه السلام) كان يعلم بما علّمه الله تعالى من أن في أصلاب هؤلاء من يكونون موالين عاجلاً أو آجلاً ولو قتلهم فأنه سيقطع نسلهم ويحرم اولئك من الكمال.

٣- وتعرّفنا أيضاً على سرّ من أسرار طول غيبة الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وهو استفراغ الوسّع في إخراج المؤمنين من أصلاب الكافرين والمنافقين وتوفر فرصة الهداية لكل البشر كما ان النبي نوح (عليه السلام) لبث طويلاً في قومه ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً﴾ (العنكبوت:١٤) للوصول الى هذه النتيجة فلا نستغرب من طول غيبة الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) - وان ضاقت صدور المؤمنين بذلك- لإنه مُدّخر لإقامة دولة

العدل الالهي، واذا كان النبي المعصوم المزوّد بالعلم اللدنّي يعجز عن معرفة هذا الوقت فيظن انهم لا يلدون الا فاجراً كفار فكيف يعرفه الجهلة، وفي هذا جواب للمشككين والمتسائلين.

٤- ان الله تعالى يدفع بالمؤمنين عن غيرهم ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ.... لَعَذَّبْنَا﴾ وفي رواية عن الإمام الصادق (عليه السلام): (إن الله يدفع بمن يصلي من شيعتنا عمن لا يصلي من شيعتنا، ولو اجتمعوا على ترك الصلاة لهلكوا. وإن الله ليدفع بمن يزكي من شيعتنا عمن لا يزكي من شيعتنا، ولو اجتمعوا على ترك الزكاة لهلكوا. وإن الله ليدفع بمن يحج من شيعتنا عمن لا يحج، ولو اجتمعوا على ترك الحج لهلكوا وهو قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ﴾[1].

وقد قلت في الخطاب الفاطمي في نيسان من العام الماضي ان تخاذل الكثيرين عن نصرة القانون الجعفري ومعارضة البعض الآخر حتى أجهضوه كانت سبباً في التقدير الإلهي لنزول بلاء عام لولا نصرة البعض للقانون وحماسهم للدفاع عن إقراره وتثقيف الأمة على المطالبة به، وبعد شهرين من ذلك نزلت بلاءات لم نكن نعهدها من سقوط عدة محافظات بيد داعش وتهجير الملايين وتدمير المدن وأخذ النساء سبايا ووقوع مذابح بالآلاف جملة واحدة وكادت تسقط بعض المدن المقدسة لولا أن الله تعالى رفع جزءاً من البلاء ببركة تلك النصرة، فأقرأوا جيداً السنن الإلهية وتأثيرها في الحياة لئلا تتكرر الاخطاء والخطايا الكارثية.

---

(١) البرهان: ٢/ ١٤٥، نقلاً عن تفسير العياشي: ١/ ٤٤٦/ ح١٣٥.

ولا زالت الفرصة موجودة لانهم قرّروا في حينها تشكيل لجنة علمائية للنظر في القانون وآلية اقراره وقد مرّت مدة كافية لإنجاز هذا الامر والله المستعان.

٥- إن الكف عن القتال كان رعاية لجمع من المؤمنين أن يصيبهم ضرر جهلاً بغير علم ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ﴾ وهذا يكشف حكمة المرجعية الرشيدة في توقفها عن الاذن بالتشكيلات الشعبية المسلحة إلا في ساحات المواجهة والدفاع عن الدين والنفس والعرض والمال، واشترطت أن يكون العمل العسكري منضبطا ومحدودا بإشراف قيادات مهنية وكفوءة ومخلصة ونزيهة وأن ينالَ المتطوعون تثقيفاً كاملاً حول واجباتهم الدينية والوطنية وتدريباً جيداً وتسليحاً يناسب المعارك التي يدخلونها، أما اطلاق الدعوة للناس عامة من دون وضع التدابير والخطط لتحقيق هذه الشروط وتنظيم العمل والسيطرة عليه، فأنه تقع هذه المحاذير التي ذكرتها الآية الشريفة، حيث تتناول وسائل الاعلام هذه الايام وقبلها اخباراً عن وقوع انتهاكات وجرائم بحق الابرياء من قبل المندسين والجهلة والمتعصبين والنزقين الذين لم يتعرفوا على أداب وأخلاق العمل العسكري وأهدافه وقوانينه الشرعية والمهنية، فالجهد الشعبي غير المنظم يلزم منه الوقوع في هذه الكوارث، فكيف وهم لا يعلمون ولا يميزون المسلمين الابرياء (لم تعلموهم)(بغير علم).

٦- عدم اليأس من صلاح الناس وهدايتهم مهما رتعوا في الكفر والشرك فمن الممكن شمولهم بالرحمة الالهية فقد دخل المشركون بعد ذلك في الاسلام طوعاً أو طمعاً أو لأي سبب آخر، وعلى العاملين أن يستمروا في محاولاتهم فأن كل شيء ممكن عند الله تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم

بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية:﴿٢١﴾-﴿٢٢﴾) وان الاسلام قادر على استيعاب حتى اعتى الناس واكثرهم همجية ووحشية كالمغول الذين اكتسحوا العالم الاسلامي وأوغلوا فيه قتلاً وتدميراً، وما اسرع ما دخلوا في الاسلام واصبحوا جزءاً من المجتمع المسلم وآمن كثير منهم بولاية أهل البيت (عليهم السلام).

وقد وجهّت في عدد من لقاءاتي مع المسؤولين بأن يكون من اولوياتنا في مواجهة داعش والقاعدة والتنظيمات الارهابية الأخرى هدايتهم وإقناعهم وإلقاء الحجج عليهم وإزالة الشبهات والأوهام عن اذهانهم والغشاوة عن بصائرهم لان أكثرهم مضلّلون تعرضوا لغسيل الدماغ وقد تناقلت وسائل الاعلام خلال المدة الماضية رجوع كثير منهم الى بلدانهم والتبرّي من داعش والقاعدة بعد ان اطّلعوا على التصرفات المشينة والوحشية لقياداتهم والتقطت عدة رسائل نصية وبريدية لمقاتلين اجانب في العراق وسوريا تبيّن شعورهم بانهم قد خُدِعوا واتخذهم الذين جنّدوهم كبش فداء لاغراضهم الشيطانية.

فيمكن الاستفادة من مواقع التواصل الاجتماعي للحوار معهم وسلوك الطرق الممكنة للوصول الى عقولهم وقلوبهم وفضح الاجندات المعدّة له، كما فعل امير المؤمنين (عليه السلام) مع أسلافهم من الخوارج عندما حاججهم وناظرهم قبل خوض معركة أمير المؤمنين فتاب ثلثا عددهم (ستة الاف من تسعة)[1] وتركوا عقيدتهم وهو إنجاز عظيم، والشواهد الحاضرة كثيرة أيضاً حيث أن كثيراً من الوهابيين والسلفيين استبصروا بعد الاطلاع على حجج وبراهين أهل البيت (عليهم السلام)

(١) الاحتجاج- الشيخ الطبرسي: ٢٧٦/١.

عندما تلقى اليهم بالحكمة والموعظة الحسنة من دون استفزاز في بعض البرامج والحوارات الرصينة التي تعرضها الفضائيات فلا نقلل من اهمية هذا التوجه ولنباشر به جميعاً، ولنعطه الجهد الذي يستحقه.

القبس/١٩٦

سورة الفتح:﴿٢٦﴾

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾

موضوع القبس: السياسة النبوية المباركة في مكافحة داء التعصب

تقع الآية في سياق الحديث عمّا وقع من أحداث انتهت إلى توقيع صلح الحديبية بين النبي (صلى الله عليه وآله) وقريش حيث عزم النبي (صلى الله عليه وآله) ومعه أصحابه على أداء العمرة وزيارة البيت الحرام في السنة السادسة للهجرة بعد واقعة الأحزاب وحين شارفوا على مكة محرمين ملبّين من غير سلاح منعتهم قريش من دخولها ومن الهدي أن يبلغ محله أنفةً واستكباراً وعتواً إذ إن البيت الحرام آمن للجميع وليس من حق قريش منع أحد يقصده لكنهم أنفوا أن يدخل رسول الله (صلى الله عليه وآله) مكة وزعموا أن في هذا إهانة لهم امام العرب فصدّوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) واصحابه عن أداء نسكهم وانتهت العملية بصلح الحديبية ورجوع النبي (صلى الله عليه وآله) على أن يؤدي العمرة في السنة الآتية[1].

فالآية الكريمة تصف بعض أحوال مشركي قريش في مواجهتهم مع النبي (صلى الله عليه وآله)، وتشخص داءاً اجتماعياً فتاكاً يؤدي بصاحبه إلى الصدود عن الحق والابتعاد عن التفكير العقلائي ومنطق الحكمة وهو التعصب وحمية الجاهلية،

(١) أنظر: مجمع البيان- الشيخ الطبرسي: ٢١٠/٩،- تفسير القرطبي: ٢٨٨/١٦.

حيث يصرّ المبتلى به على موقفه ورأيه ومعتقده ولا يريد أن يصغي إلى الآخر ولا يعطي لعقله الفرصة حتى يتعرف على ما هو الحق ليتبعه، وهو داء كان ولا يزال يفتك بالأمم ويمزّقها وينهي وجودها فلابد من الاستفادة من هذا الدرس القرآني لمعالجة هذا المرض الاجتماعي الخطير.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فهم باختيارهم أوجدوا في قلوبهم عصبية الجاهلية وصيّروا الغضب المودع في نفوسهم وقلوبهم لنصرة الحق والدفاع عن المقدسات والمبادئ النبيلة، غضباً جاهلياً فحرموا أنفسهم من رؤية الحق وإتباعه.

والحمية هي الغضب اذا اشتد وازداد حتى تشتعل حماوته في القلب، اما الجاهلية فهي من الجهل، والمعروف في ثقافتنا العامة ان الجهل مقابل العلم فيطلق على حالة عدم العلم، لكنه في المصطلح القرآني يراد به ما يخالف الحكمة، ووضع الشيء في غير موضعه، وفعل الشيء على خلاف ما يستحقه سواء على صعيد العلم أو العمل وبه صرحت الآية الكريمة ﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (آل عمران:١٥٤) فجعل الجهل ما يقابل الحق، أما جعله في ثقافتنا مقابل العلم فباعتبار أن عدم العلم هو سبب الوقوع في ما يخالف الحكمة والحق.

واستقراء الآيات الكريمة يؤكّد هذا المعنى وهو ان الجاهلية حالة وأوضاع تعيشها الأمة عندما تبتعد عن المنهج الإلهي في العقائد والتشريعات والسلوك ولا تختص بزمن معين، لاحظوا الآيات التالية التي ورد فيها لفظ الجاهلية، والمجالات العديدة التي تتناولها:

١- ﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (آل عمران:١٥٤) وهي تشير إلى جاهلية الاعتقادات والتصورات حينما لا يعتقد الانسان بالخالق أو لا يعرف

صفاته سبحانه، أو يتعلق بالمؤثرات والأسباب دونه سبحانه أو يجعل له شركاء في التدبير، أو يراقب غيره في الملأ أكثر مما يراقبه تعالى في الخلوة، ونحو ذلك، فهذه كلها اعتقادات وظنون جاهلية.

٢- ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة:٥٠) وهي جاهلية التشريعات ووضع القوانين وفق ما تمليه اهواء الناس ومصالحهم وما تقتضيه ظنونهم وأنظارهم القاصرة من دون مراعاة الشريعة الإلهية، وقد وضع الأئمة المعصومون (عليهم السلام) حداً فاصلاً وحازماً في ذلك، روى الشيخ الكليني بسند صحيح عن أبي بصير عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (الحكم حكمان:حكم الله وحكم الجاهلية، وقد قال الله عزوجل:﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وأشهدوا على زيد بن ثابت لقد حكم في الفرائض بحكم الجاهلية)[1].

٣- ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ (الأحزاب:٣٣) وهي جاهلية السلوك المنحرف عن تعاليم الشريعة والمخالف لما يريده الله تبارك وتعالى وقد فاقت جاهلية اليوم التصور في الانحلال والفساد والرجوع إلى أسوء حالات التخلف والحيوانية، وزادت على الجاهليات السابقة فكيف نحصر الجاهلية بزمان قبل الإسلام؟

---

(١) الكافي: ٧/ ٤٠٧/ ح١.

٤- ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (الفتح:٢٦) وهي جاهلية الفكر والثقافة والنزعات النفسية وسائر الدوافع التي تحرك الانسان في حياته ويبني عليها سلوكه وتصرفاته ويبرمج عليها سائر شؤونه.

لذا قلنا في كتاب (شكوى القرآن)[1] وغيره ان الوقوف على المعنى المدرسي المتداول للجاهلية والذي يراد به الفترة الزمنية التي سبقت الإسلام خاصة ليس دقيقاً ولا يطابق المصطلح القرآني، ونعتبره افراغاً لهذا المصطلح المهم من معناه الذي تترتب عليه آثار عظيمة ومسؤوليات كبيرة على مستوى إصلاح الفرد والمجتمع، وربما يكون عذرهم أنه تقسيم فني للفترات الزمنية، لكنه قد يكون فعلاً متعمداً لخلق شعور لدى الأمة الإسلامية بالاسترخاء والراحة والدعة باعتبارهم قد أدّوا ما عليهم وأصبح الناس مسلمين والمجتمع إسلامياً وما يستلزم ذلك من التخلي عن مسؤولية الدعوة إلى الله تبارك وتعالى ووعي تفاصيل ما جاء به النبي محمد (صلى الله عليه وآله) والالتزام بالشريعة على مستوى الفرد والمجتمع، وما يستلزم أيضاً من انتهاء وظيفة القرآن بإخراج الناس من الظلمات إلى النور، بينما الجاهلية بأشكالها المتعددة مستمرة ومسؤوليتنا في هداية الناس ورجوعهم الى الله تعالى متواصلة حتى يأذن الله تعالى بتطهير الأرض من الظلم والفساد والانحراف وإقامة دولة الحق والعدل.

وعلى أي حال، فان الآية محل كلامنا تتناول الشكل الرابع من مظاهر الجاهلية التي كانت تتحكم في المعسكر المقابل للنبي (صلى الله عليه وآله) فقد كانت قريش

---

(١) أنظر: ملحق (شكوى القران)، بقبس قوله تعالى: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان:٣٠) في تفسير من نور القرآن.

مصابة بمرض الانانية والتكبّر والعناد والتعنت والرياء والبطر وكان التعصب يقودهم ويذكي في قلوبهم تلك الأمراض فتتحول إلى نيران تغلي في صدورهم ثم يصير غضبهم حمماً من الكراهية والعنف والحقد والحسد والانتقام مما يزيد في ولوغهم في الجريمة والانحطاط والضلال، ويصرّون على عبادة أصنام يصنعونها بأيديهم من الخشب والحجارة ثم يعبدونها من دون الله تعالى العظيم خالق السماوات والأرض، فأي حمية وعصبية اسوأ من هذه؟

بينما الفريق المقابل لهم وهم المؤمنون يتمتعون بالسكينة والاطمئنان والحكمة وحب الخير للجميع ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى - أي جعلها ملازمة لهم- وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا - لأنهم يستحقونها وهم حملتها من دون الناس- وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (الفتح:٢٦) فقد سلّموا لأمر الله تعالى ورسوله ورجعوا عن زيارة البيت الحرام وخالفوا هواهم ورغبتهم في دخول مكة ولو عنوة.

ذم التعصب:

وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن التعصب لغير الحق، منها ما روي في الكافي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (من تعصّب أو تُعصِّب له فقد خلع رِبَق[1] الايمان من عنقه)[2] فالمتعصَّب له شريك في الذم لأنه رضي بفعلهم ولم ينههم

(١) رِبَق جمع رِبقة وهي: كل ما يشدُّه إلى الايمان ويمسكه بها من عقائد واحكام وأخلاق. والربقة في الأصل عروة في حبل تجعل في عنق البهيمة أو يدة تمسكها.

(٢) الكافي: ٣٠٨/٢/ ح٢.

عنها بل هيّأ الأجواء لها وزيّنها لهم، وعنه (صلى الله عليه وآله) قال:(من كان في قلبه حبّةُ من خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع اعراب الجاهلية)[١].

وقال (صلى الله عليه وآله): (ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية)[٢].

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) في بعض خطبه: (فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصَبِيَّةِ وَأَحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّمَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ وَنَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ) وقال (عليه السلام) فيها: (فَاللَّهَ اللَّهَ فِي كِبْرِ الْحَمِيَّةِ وَفَخْرِ الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مَلَاقِحُ الشَّنَئَانِ - أي البغض- وَمَنَافِخُ الشَّيْطَانِ الَّتِي خَدَعَ بِهَا الْأُمَمَ الْمَاضِيَةَ وَالْقُرُونَ الْخَالِيَةَ حَتَّى أَعْنَقُوا فِي حَنَادِسِ جَهَالَتِهِ وَمَهَاوِي ضَلَالَتِهِ)[٣].

ما هو التعصب:

التعصب يعني الانحياز للانتماء الشخصي أو الفئوي والتشدد في الدفاع عنه بغضّ النظر عن كون موقفه حقاً أو لا، فالمقياس عنده نصرة جهته وليس نصرة الحق ولو ظهر له الحق بالبرهان والدليل فانه يصرّ على ما هو عليه من معتقد أو موقف.

---

(١) الكافي: ٣٠٨/٢/ ح٣.

(٢) سنن أبي داود: ٣٣٢/٤/ ح٥١٢١.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة١٩٢.

روي ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) سئل عن العصبية فقال: (أن تعين قومك على الظلم)[١] وأجاب الإمام زين العابدين (عليه السلام) قال: (العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قومٍ آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم)[٢].

وروى في البحار عن كتاب الزهد للحسين بن سعيد بسند صحيح عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (لما كان فتح يوم مكة قام رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الناس خطيباً فحمد الله واثنى عليه ثم قال: ايها الناس ليبلغ الشاهد الغائب ان الله تبارك وتعالى قد اذهب عنكم بالإسلام نخوة الجاهلية والتفاخر بآبائها وعشائرها ايها الناس انكم من آدم وآدم من طين ألا وان خيركم عند الله واكرمكم عليه اليوم اتقاكم واطوعكم له ألا وان العربية ليست بأب والد ولكنها لسان ناطق فمن طعن بينكم وعلم انه يبلغه رضوان الله حسبه الا وان كل دم أو مظلمة أو احنة كانت في الجاهلية فهي تظل تحت قدمي الى يوم القيامة)[٣].

وقد تنوعت وتشعبت العناوين التي يتعصب لها الناس فالعصبية يمكن أن تكون للأنا أو للعشيرة أو للحزب أو للقومية أو المصالح المادية أو اللون أو للمدينة أو للدولة أو للفريق الرياضي أو لشخص يهواه وقد يكون التعصب لأمور تافهة، وأشدها خطورة وأكثرها قسوة التعصب المغلّف بالعناوين المقدسة التي يراد منها سوق الناس لأغراض دنيوية كالحروب الصليبية أو الفتن الطائفية التي

---

(١) سنن أب داود: ٣٣١/٤/ح٥١١٩.

(٢) الكافي: ٣٠٨/٢/ح٧.

(٣) بحار الأنوار: ٢٩٢/٧٣/ح٢٤، عن كتاب الزهد: ٥٦/ح١٥٠.

تقع بين اتباع المذاهب داخل الدين الواحد ويذكر التاريخ الكثير من هذه الحروب والفتن الدامية، ومكمن خطورة هذا التعصب من جهة قوة تأثير الدين والمذهب على سلوك الانسان وتوجيهه، ومن جهة ان القداسة الدينية التي يغلّفون بها مأربهم الدنيوية تسدُّ على الناس منافذ التفكير العقلائي وتغيِّب منطق الحكمة خصوصاً اذا احاطوها بضجيج من التحشيد بكل الأدوات.

والتعصب من المهلكات التي تزّل فيها الأقدام وتكمن خطورته في انه يعمي صاحبه عن رؤية الحق ويفقده البصيرة فلا يقبل برأي الآخر وليس عنده الاستعداد لسماعه والتأمل فيه لأنه يعتقد أنه هو وحده صاحب الحق وانه وحده يمتلك الحقيقة وان غيره على باطل وضلال، مضافاً إلى أنه يؤجج في قلبه نيران الحقد والانتقام فيسير إلى شفاء غليله على غير هدى ويتخبط ويرتكب أفعال المجانين، روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (الحِدّةُ ضرب من الجنون لأن صاحبها يندم، فإن لم يندم فجنونه مستحكم)[1] وعن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (إن هذا الغضب جمرة من الشيطان تتوقد في قلب ابن آدم، وإن أحدكم اذا غضب احمرّت عيناه وانتفخت أوداجه ودخل الشيطان فيه)[2].

تاريخ التعصب وما يتعصب له:

والعصبية متجذرة في بني آدم منذ أول الخلقة وكانت سبباً لهلاك ابليس وخروجه عن طاعة الله تعالى ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾

(١) نهج البلاغة: الحكمة ٢٥٥.

(٢) بحار الأنوار: ٧٣/ ٢٦٧/ ح ٢١.

(الأعراف:﴿١٢﴾) ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ (الإسراء:﴿٦١﴾) قد أتخذها ابليس فخاً لإفساد الناس بعد أن تورط بها، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): في ذم ابليس (فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ فَعَدُوُّ اللَّهِ إِمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ وَنَازَعَ اللَّهَ رِدَاءَ الْجَبْرِيَّةِ وَادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ..)[1].

وابتلي بها الناس من بعد ذلك، حتى في عصر النبوة والوحي والنور ترى العصبية الجاهلية تحرك بعض الناس كالتي حصلت بين الأوس والخزرج[2] حتى

(١) نهج البلاغة: الخطبة١٩٢، وهي خطبة جليلة مطوّلة في ذم العصبية والتحذير منها وبيان علاجها.

(٢) حكى العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٧٢/٩ عن العلامة الشيخ الطبرسي (رحمه الله) في مجمع البيان في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ﴾ (آل عمران:﴿٩٩﴾) قيل أنهم - أي اليهود- كانوا يغرون بين الأوس والخزرج يذكرونهم الحروب التي كانت بينهم في الجاهلية حتى تدخلهم الحمية والعصبية فينسلخوا عن الدين. وروى بعض مفسري العامة في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (آل عمران:﴿١٠٠﴾) (انها نزلت في شاس بن قيس وهو يهودي أراد تجديد الفتنة بين الأوس والخزرج بعد انقطاعها بالنبي (صلى الله عليه وآله)، فجلس بينهم وأنشدهم شعراً قاله أحد الحيين في حربهم. فقال الحي الآخر: قد قال شاعرنا في يوم كذا وكذا، فكأنهم دخلهم من ذلك شئ، فقالوا: تعالوا نرد الحرب جذعاء كما كانت. فنادى هؤلاء: يا آل أوس. ونادى هؤلاء. يا آل خزرج، فاجتمعوا وأخذوا السلاح واصطفوا للقتال فنزلت هذه الآية، فجاء النبي (صلى الله عليه وآله) حتى وقف بين الصفين فقرأها ورفع صوته، فلما سمعوا صوته انصتوا له وجعلوا يستمعون، فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون، عن عكرمة وابن زيد وابن عباس. والذي فعل ذلك شاس بن قيس اليهودي، دس على الأوس والخزرج من يذكرهم ما كان بينهم من الحروب، وأن النبي (صلى الله عليه وآله) أتاهم وذكرهم، فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع

تواعدوا القتال على طريقتهم في الجاهلية لو لا ان النبي (ﷺ) بادر بسرعة واطفأ نار الفتنة.

وكذا الفتنة التي كادت تشتعل بسبب العصبية بين المهاجرين والأنصار وهي التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون:٨) روى البخاري بسنده عن جابر بن عبدالله قال: (كنا في غزاة فكسع - أي ضرب دبره بيده- رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصاري يا للأنصار وقال المهاجري يا للمهاجرين فسمّعها الله ورسوله (ﷺ) فقال: ما هذا، فقالوا يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصاري:يا للأنصار وقال المهاجري يا للمهاجرين، فقال النبي (ﷺ): دعوها فإنها منتنة)[1] فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها أما والله لئن لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

النبي (ﷺ) سامعين مطيعين، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ﴾ يعنى الأوس والخزرج. ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾ يعنى شاسا وأصحابه. ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ قال جابر بن عبد الله: ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله (ﷺ)، فأومأ إلينا بيده فكففنا وأصلح الله تعالى ما بيننا، فما كان شخص أحب إلينا من رسول الله (ﷺ)، فما رأيت يوما أقبح ولا أوحش أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم). تفسير القرطبي: ١٥٥/٤.

(١) صحيح البخاري: ح٤٩٠٧/ كتاب تفسير القرآن.

وفي تفسير علي بن إبراهيم(رحمه الله) ان الحادثة وقعت والنبي (صلى الله عليه وآله) خارج في غزوة المريسيع فأسرع (صلى الله عليه وآله) في رجوعه إلى المدينة وواصل سيره ليلاً ونهاراً[1] ليصل المدينة قبل وقوع المحذور.

وكان النبي (صلى الله عليه وآله) حازماً في مواجهة العصبية ولو بأبسط اشكالها.

روى في تفسير القمي أن قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ (الحجرات:١٧) ((نزلت في عثكن - كناية عن عثمان وصرحت بذلك روايات أخرى- يوم الخندق وذلك أنه مر بعمار بن ياسر وهو يحفر الخندق وقد ارتفع الغبار من الحفر فوضع كمه على أنفه ومر، فأنشد عمار الرجز المروي عن أمير المؤمنين (عليه السلام):

لا يستوي من يعمر المساجدا ... يظلّ فيها راكعاً وساجدا

كمن يمرّ بالغبار حائداً ... يعرض عنه جاحداً معاندا

فالتفت إليه عثكن فقال: يا بن السوداء إياي تعنى، ثم اتى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال له لم ندخل معك لتسب أعراضنا، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد أقلتك إسلامك فاذهب فأنزل الله ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾))[2].

(١) تفسير القمي: ٣٦٨/٢/ البرهان: ٣٠٢/٩/ح٣.

(٢) بحار الأنوار:٢٣٨/٩ ح ١٣٦ عن تفسير القمي:٢٩٧/٢ – ٢٩٨.

وروى الثمالي عن الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) قال: (إن أبا ذر عيّر رجلاً على عهد النبي (صلى الله عليه وآله) بأمه فقال له: يا ابن السوداء، وكانت أمه سوداء، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): تعيره بأمه يا أبا ذر؟ قال: فلم يزل أبو ذر يمرغ وجهه في التراب ورأسه حتى رضي رسول الله (صلى الله عليه وآله) عنه)[1].

وهكذا كان النبي (صلى الله عليه وآله) حازماً في مواجهة التعصب ومحاولات التفرقة وإلقاء الفتنة، كما كان مهتماً بنشر قيم الوحدة والتألف والمودّة وله (صلى الله عليه وآله) مشاريع عملية في تعزيز هذه القيم الإنسانية النبيلة، انتهت بالمجتمع المسلم الى أن يصفه الله تبارك وتعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2] (الحشر:٩).

لقد حكى القرآن الكريم نماذج من التعصب كتعصب فرعون لأصله واستعلائه على بني إسرائيل ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:٤)، وكتعصب بني إسرائيل وشعورهم بالأفضلية على سائر الناس وأنهم شعب الله المختار، وتعصب اليهود والنصارى لديانتهم ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:١١١) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ

(١) بحار الأنوار:٢٢ /٤٨١ ح٢٨ عن كتاب الزهد للحسين بن سعيد:٧٨ ب ٥ ح ١٠٩.

(٢) راجع بعض قصص الايثار في ظل السياسة النبوية المباركة في أسباب نزول هذه الآية في تفسير البرهان: ٢٦٨/٩ وفي تفاسير العامة.

وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ (المائدة:١٨) ﴿قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران:٧٥) وتعصب العرب لقوميتهم ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ۝١٩٨ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:١٩٩) أو التعصب للمال والولد ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ (الأنعام:٥٣) ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ (الكهف:٣٤) ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ (الزخرف:٥٣).

وتعصب الرجال لجنسهم مما دفعهم إلى اضطهاد المرأة وحرمانها من حقوقها حتى حق الحياة فكانوا يقتلون المولودة الأنثى ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير:٩) ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (النحل:٥٨).

وتعصب بعض العشائر والقبائل لنفسها والافتخار على غيرها وانها افضل من الآخرين فلا تزوِّج بناتها لغيرهم لكنهم يتزوجون من غيرهم ويسمون أنفسهم (الحُمس) وقد انتقلت هذه العادة الجاهلية إلى بعض المنتمين نسبياً إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ويكشف أمير المؤمنين (عليه السلام) عن ألمه لتفشي داء التعصب في الأمة بلا رويّة ولا حكمة ولا سبب وجيه يقول (عليه السلام) في ذلك (ولقد نظرت فما وجدت أحدا من العالمين يتعصب لشيء من الأشياء إلا عن علة تحتمل تمويه الجهلاء، أو حجة تليط بعقول السفهاء، غيركم، فإنكم تتعصبون لأمر ما يعرف له سبب ولا

علة، أما إبليس فتعصب على آدم لأصله، وطعن عليه في خلقته، فقال: أنا ناري وأنت طيني، وأما الأغنياء من مترفة الأمم فتعصبوا لآثار مواقع النعم، فقالوا: نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين)[1].

علاج التعصب:

الخطوة الأولى: إن علاج التعصب يبدأ من رفع مستوى الوعي والفكر والثقافة لدى الأمة وإدراك أن التنوع في الجنس واللون والعرق واللغة، وحالة الاختلاف والتعدد في الآراء والأفكار والتوجهات حالة طبيعية اقتضتها طبيعة الناس وإنها من السنن الجارية في الناس ولا يدل شيء منها على أفضلية أحد على أحد وإنما التفاضل بالتقوى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٣) وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (هود:١١٨)، حتى الاختلاف في الهداية والضلال فأنها طبيعية اقتضتها حرية الاختيار للإنسان ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة:٢٥٦) ولو أراد الله تعالى أن يكون كل البشر مهتدين إلى دينه لما أعجزه ذلك ﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ (الأنعام:٣٥) ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم﴾ (المائدة:٤٨).

والخطوة الثانية: في العلاج هو الحوار والاستماع إلى الآخر والانفتاح عليه وافتراض ان كل الاحتمالات مفتوحة وان كل النتائج ممكنة والاتفاق على مبادئ

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة: ١٩٢.

يبنى عليها الحوار ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا﴾ (آل عمران:٦٤) ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ:٢٤) وتمثل ارقى مراتب التواضع العلمي والحوار المنفتح فيجعل نفسه - مع انه الحق المطلق- مع الآخر في خط شروع واحد في بداية الحوار فلا توجد بيننا أفضلية أو شروط مسبقة.

والخطوة الثالثة: تربية النفس والمجتمع على مبادئ الإنسانية العليا كالتسامح والعفو والرحمة والتعاون والعدالة والانصاف ﴿وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ﴾ (هود:٨٥) ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة:٨)، وتعزيز القيم التي توحِّد الناس وتجمعهم كالمواطنة التي تؤسس لمساواة أبناء الوطن الواحد في الحقوق والواجبات من دون تميز قومية أو ديانة أو عشيرة أو مدينة ونحو ذلك.

ونبذ الثقافة الهدامة التي تدعو إلى التعصب والتكفير والحقد والكراهية والاستعلاء والاستبداد والاستئثار والتحذير من مثيري الفتن الذين يجترون بعض خلافات الماضي ويريدون جرّ الأمة إلى الوراء ولا يريدون لها ان تعيش حاضرها ومستقبلها.

التعصب المحمود:

إن الحميّة تكون محمودة اذا كانت لنصرة الدين والأخلاق الفاضلة والدفاع عن الحرمات والنصرة المستندة إلى الحجة والبرهان والدليل وليس إلى الاهواء والمطامع والانتماء إلى الحزب أو العشيرة أو البلد ونحو ذلك، روي عن أمير

المؤمنين (عليه السلام) (إن كنتم لا محالة متعصبين فتعصبوا لنصرة الحق وإغاثة الملهوف)[١]، وقال موبخاً المتخاذلين ومحرضاً لهم ﴿مُنِيتُ بِمَنْ لَا يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ وَلَا يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ لَا أَبَا لَكُمْ مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ أَ مَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ وَلَا حَمِيَّةَ تُحْمِشُكُمْ﴾[٢] - أي تثير غضبكم-.

وقال (عليه السلام): (فإن كان لابد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور، التي تفاضلت فيها المجداء النجداء من بيوتات العرب، ويعاسيب القبائل، بالأخلاق الرغيبة، والأحلام العظيمة، والأخطار الجليلة، والآثار المحمودة. فتعصبوا لخلال الحمد من الحفظ للجوار. والوفاء بالذمام، والطاعة للبر، والمعصية للكبر، والأخذ بالفضل، والكف عن البغي، والإعظام للقتل، والإنصاف للخلق، والكظم للغيظ، واجتناب الفساد في الأرض)[٣].

وهذه الحمية والغضب للحق تكون سبباً للتوفيق ودافعاً لفعل الطاعات، روي عن الإمام زين العابدين (عليه السلام) أنه قال: (لم يدخل الجنة حمية غير حمية حمزة بن عبدالمطلب - وذلك حين أسلم- غضباً للنبي (صلى الله عليه وآله) في حديث السِّلا الذي القي على النبي (صلى الله عليه وآله))[٤].

---

(١) غرر الحكم: ٣٧٣٨.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة٣٩.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة١٩٢.

(٤) الكافي: ٣٠٨/٢/ح٥. وقد ذكرت جملة من المصادر قصة اسلام حمزة منها بحار الأنوار: ٢١١/١٨ و٢٨٥/٧٣، والسلا: هو ما يُرافق جنين الحيوان عند ولادته كالجلد الرقيق الذي يحيط به وأن أبا جهل وضع سلا جزور على رأس رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو يصلي.

إن من الخطوات المهمة على طريق التمهيد لدولة الحق والعدل تنقية المجتمع من رواسب الجاهلية ومنها التعصب وتربيته على مبادئ الإسلام الأصيل المستقاة من أهل البيت (عليهم السلام).

وتظهر هذه القيم السامية بشكل جلي وواضح في سلوك اتباع أهل البيت (عليهم السلام) أيام الزيارة الأربعينية ويعكسون صوراً من التفاني والايثار والمحبة والتضحية ليس لها نظير والمطلوب ادامة هذا السلوك على مدار السنة ما دمنا نعتقد انه حق وفيه رضا الله سبحانه ولأهل البيت (عليهم السلام) وعدم العودة الى ما يشين وما يسخط الله تعالى وأولياءه.

القبس/١٩٧

سورة الحُجُرات: ﴿١٠﴾

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

موضوع القبس: ماذا يعني عقد المؤاخاة يوم الغدير

تضمّن يوم الغدير كبقية الأيام الشريفة سنناً ومستحبات[1] كالصوم والغسل والصلوات والادعية والاذكار طلباً لرضوان الله تعالى وطمعاً في مضاعفة الأجر وتحصيل العفو والمغفرة.

لكن عيد الغدير تميّز بعمل انفرد به عن بقية المناسبات وهو إجراء المؤاخاة بين المؤمنين وتعهّد بعضهم لبعض ان لا يدخل الجنة الا وهو معه فيقول احدهما للآخر (آخيتك في الله وصافيتك في الله وصافحتك في الله) إلى آخر المؤاخاة، وهذه الفعالية المباركة تعني ـ فيما تعني ـ ان علامة اكتمال وصدق الولاية للنبي وآله (عليهم السلام) هي مودة المؤمنين ومؤاخاتهم وان يضمر لهم كل خير، حتى لمن اساء إليه وظلمه بغيبة أو انتقاص أو فحش من القول أو إهانة أو تقصير في سائر حقوقه، لذا تضمن عقد المؤاخاة ان يقول للآخر «اسقطت عنك كل حقوق الاخوة» وهي عامة مطلقة تشمل كل الحقوق المادية والمعنوية.

فاذا سرنا بهذا المنهج والتزمنا بهذا السلوك السامي وتغاضينا عن الأخطاء والكلمة الجارحة والتصرف الجاهل فسوف ننشئ أمة متماسكة متحدة قوية

(١) أنظر: مفاتيح الجنان: ٣٤٤.

فاعلة، ونسدّ أبواب النزاع والتخاصم والخلاف الذي نخر بالأمة وأهدر طاقاتها واعاق تقدمها وازدهارها سواء على مستوى العائلة حيث تتصاعد ارقام حالات الطلاق وما يعنيه من تهديم الاسرة وضياع الأطفال وتفشي الضغينة والاحقاد وتضييع الأموال والاوقات على مراجعة المحاكم.

أو على مستوى العشائر حيث ازدادت الصراعات والمعارك بينها بمختلف أنواع الأسلحة ونقلت الاخبار حصول معارك برمائية بين بعض العشائر في جنوب العراق أو على أي مستوى آخر من الصراعات.

إن هذه الصراعات والخلافات والمهاترات وتغذيتها بالأحقاد والضغائن التي تصدّ عن ذكر الله تعالى وتعيق عمل المعروف تحقق رغبة الشيطان وامنيته ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء﴾ (المائدة:٩١).

ومن يتتبع سيرة النبي (صلى الله عليه وآله) وقيادته الربانية المباركة يجد ان اول ما قام به من عمل بعد هجرته الى المدينة هو إيقاع المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وبين الأنصار أنفسهم من أوس وخزرج وبناء المسجد ليكون محلاً لاجتماع الأمة ولم شملها وإظهار عزّتها ووحدتها[1].

وسار الأئمة المعصومون (عليهم السلام) على هذا النهج فوجّهوا اتباعهم إلى التحلي بأقصى صفات الأخوّة والمودّة بين المؤمنين، روى عبدالله بن المبارك قال: (قال لنا أبو جعفر محمد بن علي:يدخل أحدكم يده في كم صاحبه (أي جيبه) فيأخذ ما يريد؟ فقال: قلنا: لا، قال: لستم بإخوان كما تزعمون)[2].

---

(١) أنظر: السيرة النبوية- ابن هشام: ٣٥١/٢.

(٢) حلية الاولياء: ١٨٧/٣- البداية والنهاية: ٣٤١/٩.

وعن الحجاج بن أرطاة قال له الإمام الباقر (عليه السلام): (يا حجاج كيف تواسيكم - أي مواساة بعضكم لبعض -، قلت: صالح يا أبا جعفر، قال: يدخل أحدكم يده في كيس أخيه فيأخذ حاجته اذا احتاج اليه؟ قلت: أما هذه فلا، فقال (عليه السلام): أما لو فعلتم لما احتجتم)[1].

وهذا يعني ان من شروط تمام الولاية وكمالها الارتقاء بالعلاقة مع الآخرين إلى هذا المستوى.

ولأهمية هذه الصفة المباركة يطلبها الإمام السجاد (عليه السلام) في ادعيته، ومن ذلك قوله (عليه السلام): (اللَّهُمَّ وَأَيُّمَا عَبْد نالَ مِنّي مَا حَظَرْتَ عَلَيْهِ - كالغيبة والكلمة الجارحة مما حُرِّم -، وَانْتَهَكَ مِنّي مَا حَجَرْتَ عَلَيْهِ، فَمَضَى بِظُلاَمَتِي مَيِّتاً، أَوْ حَصَلْتَ لِيْ قِبَلَهُ حَيّاً، فَاغْفِرْ لَهُ مَا أَلَمَّ بِهِ مِنّي، وَاعْفُ لَهُ عَمَّا أَدْبَرَ بِهِ عَنّي، وَلاَ تَقِفْهُ عَلَى مَا ارْتَكَبَ فِيَّ، وَلاَ تَكْشِفْهُ عَمَّا اكْتَسَبَ بِيْ، وَاجْعَلْ مَا سَمَحْتُ بِهِ مِنَ الْعَفْوِ عَنْهُمْ، وَتَبَرَّعْتُ بِهِ مِنَ الصَّدَقَةِ عَلَيْهِمْ، أَزْكَى صَدَقَاتِ الْمُتَصَدِّقِينَ، وَأَعْلَى صِلاَتِ الْمُتَقَرِّبِينَ، وَعَوِّضْنِي مِنْ عَفْوِي عَنْهُمْ عَفْوَكَ، وَمِنْ دُعَائِي لَهُمْ رَحْمَتَكَ، حَتَّى يَسْعَدَ كُلُّ وَاحِد مِنَّا بِفَضْلِكَ، وَيَنْجُوَ كُلُّ مِنَّا بِمَنِّكَ)[2].

فالإمام السجاد (عليه السلام) يعتبر هذا العفو عن الآخرين من أفضل الصدقات وأكثرها بركة وانها سبب لنيل عفو الله تعالى ورضوانه ورحمته، وبذلك يسعد جميع الأطراف.

---

(١) كشف الغمة: ٣٣٣/٢ - بحار الأنوار: ١٨٥/٧٥/ح١٢.

(٢) الصحيفة السجادية (أبطحي): ١٨٨.

وقد صدرت عن المعصومين (عليهم السلام) مئات الأحاديث في حقوق الأخوّة وآداب العلاقة مع الآخرين جمعها الأصحاب في كتب بعنوان (آداب العشرة)[1] وتعرضت لأدق التفاصيل واعطت قيمة كبيرة للإصلاح بين المؤمنين وحل خلافاتهم ومشاكلهم حتى جعلته أفضل من الصلاة والصوم، وقد روى الشيخ الكليني في الكافي عن الإمام موسى بن جعفر (عليهما السلام) وصية أمير المؤمنين (عليه السلام) لولده الحسن (عليه السلام)، وجاء فيها (سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام، وإن المبيرة الحالقة للدين فساد ذات البين، ولا وقوة إلاّ بالله العلي العظيم)[2].

إن البركة والخير والتقدم والازدهار لا يتحقق الا في ظل الايمان بولاية أهل البيت (عليهم السلام) والعمل بتعاليمهم المباركة ووحدة الأمة، وهذا ما خطّته السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) من أول يوم بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) لترسم للأمة المسار النقي الأصيل الذي يحفظ عزّتها وكرامتها فقالت (عليها السلام) (وطاعتنا: نظاماً للملة، وامامتنا: اماناً للفرقة)[3].

---

(١) راجع مثلاً كتاب وسائل الشيعة/ الجزء الثامن من طبعة الإسلامية.

(٢) فروع الكافي: ٥١/٧ -٥٢ - بحار الأنوار: ٢٤٨/٤٢/ح٥١.

(٣) الاحتجاج: ١٣٤/١.

القبس/١٩٨

سورة الحُجُرات:﴿١٣﴾

﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾

موضوع القبس: تقييم الواقع العشائري

وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا:

قال الله تبارك وتعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:﴿١٣﴾).

فالغرض من جعل الشعوب والقبائل والعشائر لتُعرفوا بها ولتتميز الأنساب فإن الأسماء كثيراً ما تتشابه وإنما تتميز بالعشيرة واللقب، والمعنى الآخر لقوله تعالى: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ أي لتتعارفوا بينكم وتتواصلوا وتنسجموا ويتكامل بعضكم بالبعض الآخر ويسودكم عمل المعروف فيما بينكم. وليس لتتفاخروا بأنسابكم أو لتتنابزوا بالألقاب بينكم أو لتتباهوا بكثرتكم أو لتتحزبوا لعشائركم وتتعصبوا لها حتى وإن كانت على باطل.

أهمية الرابطة العشائرية:

هذا ما أراده الله تبارك وتعالى ورتّب عليه آثاراً وهي صلة الأرحام والإحسان إليهم ورعايتهم وعظّم حرمة الرحم فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً

كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِى تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء:١) وكان أول ما بدأ به رسول الله (صلى الله عليه وآله) حين بعثه الله تعالى بالنبوة أن جمع عشيرته ودعاهم إلى هذا الخير الكثير حينما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤).

مضافاً إلى أن النظام العشائري يجعل من الأفراد كياناً فيكسبهم قوة إلى قوتهم وتنظيماً لشؤونهم والتنظيم قوة، وفي ذلك يوصي أمير المؤمنين (عليه السلام) (صل عشيرتك فإنهم جناحك الذين بهم تطير)[1].

انحراف الرابطة العشائرية عن أهدافها:

لكن هذه الرابطة التي جعلها الله تعالى لتلك الأغراض الإنسانية تحوّلت منذ القدم إلى نظام اجتماعي يحكم أبناءه ويدير شؤونهم وربما أملاه نمط الحياة التي يعيشونها كمجتمعات بداوة ونمط الأعمال كامتلاك الثروة الحيوانية ورعيها أو الزراعة ونحوها، وأصبح بديلاً للنظام السياسي والدولة والحكومة كما هو المعروف من حال العرب قبل الإسلام، وكان نظاماً متخلفاً متعصباً قائماً على التفرد وإلغاء الآخر ولو بإبادته ومصادرة ممتلكاته فأزهقت الأرواح وانتهكت الأعراض وسالت أبحر من الدماء لا لشيء إلا لتلبية نداء هذه العصبية الجاهلية، وكان من أيسر الأمور إذكاء الحروب الجنونية بين القبائل لأتفه الأمور كحرب داحس والغبراء[2] التي استمرت أربعين سنة على إثر مسابقة للخيول، وأشعلت

(١) نهج البلاغة: ٥٧/٥.

(٢) أنظر: الكامل في التاريخ- ابن الأثير: ٥٦٦/١.

حرب أخرى لأن شخصاً قتل كلباً كان شيخ العشيرة الأخرى قد أجاره ونحو هذه الأمور مما لا يصدقها عاقل لولا أنها قد وقعت فعلاً.

وكان حول العرب أمم نبذت هذا النظام وأنشأت لنفسها أنظمة سياسية للدولة والحكم فتقدمت مادياً وأنشأت حضارات مرموقة كالرومان والفرس.

حتى بعث الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله أي على كل الأنظمة والقوانين التي حكمت البشر وأردتهم في الهلاك فذوَّب هذه الانتماءات وآخى بين المهاجرين والأنصار والذين جاءوا بعدهم من سائر الذين اعتنقوا دين الإسلام، فكانوا كما وصفهم الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات:١٠) ووصف حالهم السابق من التشرذم والتفرق وما آلوا إليه من الوحدة والأخوة فقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران:١٠٣).

ولكن لما ارتحل رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى الرفيق الأعلى وانقلبت الأمة على الأعقاب رجعت إليها بعض العادات الجاهلية ومنها العصبية القبلية وكان بنو أمية يغذّون هذا التقسيم ويذكون التفرقة ويقرّبون بعض القبائل على حساب بعض ليملكوا زمام الجميع.

حال العشائر اليوم:

واليوم حينما تنظر إلى وضع العشائر تجده في حال سيئ وتعيس ومتخلف،

والغالب في رؤساء العشائر ومن بيدهم الأمر والنهي أنهم يحكمون بغير ما أنزل الله تعالى، والظلم متفشي في أرجائها وعلى مختلف الأصعدة، ويئن أبناء العشائر من قساوة هذا النظام وأحكامه الجائرة ولكنهم لا يستطيعون الخروج من قبضته، أو يستطيعون ولكنهم لا يملكون الشجاعة لاتخاذ مثل هذا القرار.

جهود المرجعية الرشيدة في إصلاح الواقع العشائري:

لقد بذلت المرجعية الرسالية جهداً في سبيل إصلاح نظام العشائر وكتب سيدنا الشهيد الصدر (قدس سره) كتاب (فقه العشائر) لتصحيح تصرفاتهم وأحكامهم على وفق الشريعة، ووضع سنينة عشائرية على طبق التشريع الإسلامي لتكون بديلاً عن السنينة العشائرية المتعارفة.

وأصدرنا بعده كتاب (رؤى إسلامية في نظام العشائر وتقاليدها) لتصحيح الجانب الفكري والثقافي لدى العشائر وإقناعهم بتطبيق النظام الإسلامي، وتبعته فتاوى كثيرة في ما يتعرضون له من حالات، لكن هذا الجهد كله لم يُجدِ نفعاً إلا عند القلة ممن وفقهم الله تعالى لطاعته، وتردى الحال إلى الأسوأ بعد سقوط صدام واختلال النظام وانتشار الفوضى والعنف ووقوع السلاح بيد الجهلة والغوغائيين، ولم يعد للدولة والسلطة وجود مهاب مما شجع على بروز قيادات محلية اجتماعية أو دينية أو عشائرية وأصبح كل منهم حاكماً في مساحته ويحصل الصدام بينهم أحياناً بحسب تضارب المصالح والولاءات.

الايجابي والسلبي من مبررات النظام العشائري:

إننا نفهم بعض المبررات لوجود النظام العشائري كحفظ الأرض وزراعتها

والدفاع عنها وتقارب ذوي الأرحام لزيادة الأواصر بينهم، ولكن ما لا نفهمه ولا نقبله تحوّله إلى نظام استبدادي ظالم يحكم بالأهواء والعصبية وشهوات النفس والأنانية، ونحذّر من تحوله إلى نظام متخلف يكون غالباً من أكبر المعوقات لقيام مجتمع مدني متحضّر، وإذا بقي على وضعه الحالي فسيبقى التخلف والجهل سائداً في أمة كبيرة تخضع لقوانينه، وقد أثبتت التجارب التي أشرنا إليها أن محاولات إصلاحه غير مجدية ما دام يدار بنفس الذهنية السائدة.

العشائر والعمل الجماعي المشترك:

أيها الأحبة..

أنتم تعلمون أنا جميعاً مطالبون بأن يكون لنا دور في التمهيد لظهور الإمام (أرواحنا له الفداء) وتمكينه من إقامة دولة العدل الإلهي، والجميع مشتركون بدورهم كأفراد وأعني به أن يكونوا صالحين يعملون ما يرضي الله تبارك وتعالى ويجتنبون ما يسخطه تعالى ويبعدهم عنه وهو باب ينفتح منه ألف باب كما هو واضح.

ومضافاً إلى هذا الدور الفردي فإن على كل فرد تكاليف اجتماعية أوسع من ذلك وهي متباينة ومتفاوتة من فرد لآخر بحسب موقعه وعنوانه ومؤهلاته والأدوات المتاحة لديه مادياً - كالمال- ومعنوياً - كالعلم أو الجاه أو النفوذ- ونحوها. ولعل الأغلب إن لم يكن الكل مشمولون بهذا التكليف أيضاً لأن لهم شيئاً مما ذكرنا وإن تفاوتوا فيه. وتدخل في هذا التكليف وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتشييد مشاريع الخير والجهاد لإقامة السنن الصالحة وإقامة الشعائر الدينية وغيرها كثير.

دور العشائر في التمهيد للظهور الميمون:

ورؤساء العشائر ممن لهم تكليف واسع على النحو الثاني لامتلاكهم عناصر تأثير عديدة كالجاه والنفوذ والسطوة وكثرة الأتباع والقوة وربما المال والسلاح وغيرها، وهذا يعني أن مسؤوليتهم أوسع من غيرهم بكثير، لأن هذه كلها نعمٌ يُسأل الإنسان عن توظيفها في طاعة الله تعالى، قال عز من قائل: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر:٨) والنعيم شامل لكل نعمة أنعم بها الله تعالى على عبده، وقال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ (الصافات:٢٤) وهذه المساءلة شاملة لكل أنحاء المسؤولية وأشكالها، وأعتقد أن رؤساء العشائر وغيرهم من المسؤولين -كأعضاء الحكومة وأصحاب السلطان- لو كُشف لهم الغطاء وعرفوا خطورة موقعهم وطول وقوفهم للسؤال بين يدي الله تعالى لما تنافسوا على شيء من هذا، ولنبذوه وراء ظهورهم وهربوا منه.

التحذير من الرئاسات الباخلة:

وقد ورد في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله) (ألا ومن تولى عرافة قوم حبسه الله عز وجل على شفير جهنم بكل يوم ألف سنة وحشر يوم القيامة ويداه مغلولتان إلى عنقه، فإن قام فيهم بأمر الله أطلقه الله، وإن كان ظالما هوى به في نار جهنم وبئس المصير)[1].

وقد بيّن رسول الله (صلى الله عليه وآله) والأئمة الطاهرون (عليهم السلام) لأصحابهم الواعين الصادقين في طاعة ربهم هذه الحقيقة، روى الشيخ الطوسي في كتاب الأمالي عن

(١) بحار الأنوار: ٣٤٣/٧٢ في مناهي النبي (صلى الله عليه وآله).

الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال:(يا أبا ذر إني أحبّ لك ما أحبّ لنفسي، إني أراك ضعيفاً فلا تأمّرنّ على اثنين ولا تولّينّ مال يتيم)[1] فإذا كان مثل أبي ذر الذي تشتاق له الجنة والذي قال فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله): (ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر)[2] يشفق عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويدعوه إلى عدم الإمرة ولو على اثنين لأنه يعجز عن القيام بالأمر كما يجب فكيف بغيره؟ خصوصاً رؤساء العشائر الذين نعلم افتقاد أكثرهم لمؤهلات الإمرة وهي العلم بأحكام الدين والورع والحلم والحكمة والرحمة والشفقة على الناس.

على العشائر أن تكون زينا لا شينا:

فالذي نأمله من رؤساء العشائر وهم مسلمون موالون لأهل البيت (عليهم السلام) وأولى الناس باتباعهم أن يكونوا لهم زيناً كما قال إمامنا جعفر الصادق (عليه السلام) ولا يكونوا عليهم شيناً، ومن المقترحات التي نتبناها في هذا المجال أن ننظم لهم دورات دراسية في النجف الأشرف، مدة الدورة شهر واحد، نستضيفهم فيها ونعطيهم ما يحتاجونه في عملهم من دروس في الفقه والعقائد والأخلاق والعلاقات الإنسانية والإدارة ليكونوا مباركين دالين على الخير وآمرين بالمعروف وناهين عن المنكر[3].

---

(١) بحار الأنوار: ٤/٧٥.

(٢) الأمالي- الشيخ الطوسي: ٧١٠

(٣) استجاب جمع من وجهاء العشائر لهذه الدورة ومكثوا في النجف أياماً تلقوا خلالها تلك الدروس، راجع تفصيل الخبر في الجزء السادس من كتاب خطاب المرحلة.

خطوات عملية في إصلاح النظام العشائري:

وندعوهم كما ندعو كل أبناء العشائر إلى اتخاذ خطوات عملية لتحويل مجتمعهم إلى أمة متحضرة متمدنة واعية منها:

١- المطالبة بإنشاء المدارس الأكاديمية في كل تجمع من الناس مهما كان نائياً ولو بأبسط صورها ـ كالمدارس المتنقلة ـ والقضاء على الأمية تماماً وإلزام الفئات العمرية جميعاً بالالتحاق بها.

٢- نشر المؤسسات الثقافية والإنسانية والصحية والاجتماعية والخيرية والدينية مما يعرف بمؤسسات المجتمع المدني في كل العشائر والقرى والأرياف والمدن في أنحاء البلاد لتؤدي كل منها دورها بحسب الغرض الذي أسست له.

٣- دعوة الخطباء والمبلغين إلى كل ناحية أو قرية أو عشيرة أو أي مكان ممكن لتعليم الأحكام وإرشاد الناس ووعظهم.

٤- انخراط أبناء العشائر في الوظائف وتحصيل الشهادات العلمية العالية وتشجيع من يتمكن منهم على السكن في المدن.

٥- وضع القوانين الرسمية الصارمة التي تحرّم بعض التقاليد العشائرية البالية وتعاقب عليها بحسب نوع الجناية أو الخطأ كالنهوة أو القتل لغسل العار في غير ما حددته الشريعة وسائر الأحكام الظالمة الأخرى.

الخطر من الانفتاح على المفاسد الإخلاقية:

وهنا قد يقال بأن تحويل المجتمع العشائري إلى مجتمع مدني -كما لو فتحت فيه الجامعات والمؤسسات الحكومية- يعني الانفتاح على المفاسد الأخلاقية ونحوها.

والجواب:

١- إن حالات الفساد والانحراف في العشائر ليست قليلة كالقتل بلا ذنب والزنا والنهوة والنهيبة والظلم والبطش وامتهان المرأة وغيرها.

٢- إن الخلل المذكور ليس بسبب كون المجتمع مدنياً وإنما بسبب النفوس الأمارة بالسوء وقلة الواعظين والمتعظين فالجميع معرضون للفساد والانحراف إلا من عصم الله تعالى.

٣- إننا لو سلّمنا الإشكال فإن عملية الإصلاح في مجتمع متحضر ومثقف أسلس وأثبت مما في مجتمع عشائري متخلف ونحن نجد اليوم كيف انغمست العشائر أكثر من ذي قبل في الظلم وابتداع العادات والتقاليد المنكرة.

إن مما يؤسف له أن الكثير من القيادات الدينية والسياسية تعي حقيقة هذا الوضع البالي الذي يعيشه حوالي نصف المجتمع العراقي ولكنهم لا يتحركون لإصلاحه، بل قد يعملون على إبقائه ودعم رؤساء العشائر من أجل المحافظة على مواقعهم وسلطتهم كما يحصل قبيل الانتخابات، فيتحمل هؤلاء وزر هذا الوجود ودوامه وإذا كانوا لا يعون ذلك فالمصيبة أعظم.

وإزاء هذا كله لا يحل لنا أن نهمل الإشادة بدور بعض زعماء العشائر أو الأفخاذ الذين وعوا مسؤوليتهم أمام ربّهم وقادتهم المعصومين (عليهم السلام) فأصلحوا أنفسهم وسعوا بحزم وشجاعة إلى إصلاح وضع عشائرهم فطوبى لهم، وضاعف الله تعالى لهم الحسنات بعدد من اهتدى بهم من الموجودين ومن الذين يأتون بعدهم والله ولي التوفيق.

القبس/١٩٩

سورة قٓ:﴿٢٢﴾

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾

التدبر في القرآن الكريم:

لا ينبغي لكم وأنتم مثقفون واعون وشباب رساليون أن تكتفوا من قراءة القرآن بتلاوة حروفه، بل لابد من التدبر في معانيه للوصول إلى حقائقه، وقد قدّمت في أحاديث سابقة أنماطاً للتدبر، ومنها ما أذكره اليوم وذلك بأن تلتفت بلطف الله تعالى إلى قضية معينة لها مساس بالواقع المعاش، ثم تجمِّع ما ورد فيها من آيات شريفة حتى تكتمل صورتها، وسيفتح الله عليك وستظهر أمامك حقائق عن تلك القضية، لم تكن ملتفتاً إليها عندما كنت تقرأ كل آية على حدة فتعرف كيفية تشخيصها، وأسباب حصولها، والأثار المترتبة عليها وهكذا.

وليس من الصعب تجميع الآيات المتعلقة بقضية معينة من خلال مراجعة معاجم وفهارس ألفاظ القرآن الكريم كفهرس الألفاظ الملحق بتفسير شبر او تفسير المعين.

ثم تنتقل بنفس الطريقة إلى معاجم كلمات المعصومين ككتاب (غرر الحكم) و (ميزان الحكمة) لتأخذ منها ما يزيد الأمر وضوحاً.

غفلة الإنسان عن نفسه:

وأشير اليوم إلى واحدة من هذه القضايا المهمة وهي غفلة الإنسان عن

نفسه، فالإنسان في هذه الدنيا في غفلة (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)[1] وقد تحدثنا في خطاب سابق عن غفلة الإنسان عن قيادته الحقة وهو أمر متصور بسبب الجهل والتشويش والشبهات، ولكن أن يغفل الإنسان عن نفسه أعز الأنفس عليه وأثمن شيء عنده لأنه يستطيع أن يكتسب بها الجنان، فهذا أمر مستغرب.

التعاطي مع النفس:

ومن خلال الآيات الكريمة ستجد التباين الواسع بين البشر في التعاطي مع أنفسهم، فمن مستثمر لها كأفضل ما يكون يقول عنه الله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ﴾ (البقرة:٢٠٧) فتساعده نفسه على الطاعة والتثبيت على الاستقامة ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (البقرة:٢٦٥) فيخاطبهم الله تعالى ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر:٢٧-٣٠).

إلى آخرين فشلوا في الاستفادة منها فكانوا كما وصفهم الله تعالى ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (الأنعام:٢٦) ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (النحل:١١٨) ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم﴾ (البقرة:٩) ﴿قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ (الأعراف:٥٣)، ويبيّن القرآن الكريم سبب انحدارهم إلى هذه النتيجة وذلك

(١) البحار: ج٤/ ص٤٣.

لانهم ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر:١٩) ﴿يُخَادِعُونَ اللَّه وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة:٩)، ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام:٢٤) فهذه أسباب خسران الإنسان نفسه من خلال مخادعة الإنسان نفسه ونسيان الله تبارك وتعالى والركون إلى الدنيا، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) (إن الصفاة الزلال الذي لا تثبت عليه أقدام العلماء الطمع)[1].

وتنتهي النتيجة إلى أعظم الخسارة وهي خسارة الإنسان نفسه، فيجعل ثمنها نار جهنم وكان يستطيع أن يجعلها سبباً لنيل جنات المقربين ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الزمر:١٥).

مواعظ عن النفس من كلمات أهل العصمة (عليهم السلام):

وإذا انتقلنا إلى أحاديث المعصومين (عليهم السلام) فسنجد مواعظ قيمة، فعن علي أمير المؤمنين (عليه السلام) (إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها) وعنه (عليه السلام) (من باع نفسه بغير الجنة فقد عظمت عليه المحنة) وعنه (عليه السلام) (من باع نفسه بغير نعيم الجنة فقد ظلمها)[2] وفي نهج البلاغة (عباد الله... الله الله في أعزّ الأنفس عليكم، وأحبّها إليكم، فإن الله قد أوضح لكم سبيل الحق، وأنار طرقه فشقوة لازمة، أو سعادة دائمة)[3].

---

(١) ميزان الحكمة: ٢/ ١٧٤٠.

(٢) غرر الحكم.

(٣) نهج البلاغة، خطبة ١٥٧.

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) (أما ترحم من نفسك، ما ترحم من غيرك، فلربما ترى الضاحي من حر الشمس فتظلله، أو ترى المبتلى بألم يمض جسده فتبكي رحمة له، فما صبرك على ذاتك، وجلدك على مصابك، وعزاك عن البكاء على نفسك، وهي أعز الأنفس عليك)[1].

وعن الصادق (عليه السلام): (كتب رجل إلى أبي ذر (رضي الله عنه): يا أبا ذر أطرفني بشيء من الحكمة، فكتب إليه أن العمل كثير، ولكن إن قدرت أن لا تسيء إلى من تحبّه فافعل.

قال: فقال الرجل: وهل رأيت أحداً يسيء إلى من يحبّه؟ فقال له: نعم، نفسك، أحب الأنفس إليك، فإذا أنت عصيت الله فقد أسأت إليها)[2].

وفي غرر الحكم عن أمير المؤمنين (عليه السلام) (عجبتُ لمن ينشد ضالته، وقد أضلَّ نفسه فلا يطلبها).

الواعظ الداخلي:

ولرحمة الله تعالى الواسعة بعباده فإنه لم يكتفِ بالواعظ الخارجي وهم الأنبياء والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) وحملة علومهم، فجعل لهم واعظاً من داخل أنفسهم ينبِّههم إلى الخطأ وهو ما يعرف بـ(الضمير) يحذره من الخطأ قبل وقوعه، ويؤنبه بعد ارتكابه لردعه عن تكراره، بحيث انتشر مصطلح (وخز الضمير) أو (تأنيب الضمير) وهي عبارة عن حالة تألم ورفض داخل النفس تؤدي إلى كربة في القلب، تدعو صاحبها لمراجعة نفسه والعودة إلى رشده.

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ٢٣٣.

(٢) الكافي: ٤٥٨/٢.

ولكن الإنسان لسوء اختياره يصمّ أذنه عن سماع الواعظ الخارجي ويكبت واعظه الداخلي، اما بمخادعة نفسه وقلب الحقائق ليوهم نفسه إنه ليس على خطأ، وربما يحاول الهروب من صراعه الداخلي من خلال احتساء الخمر وتناول المخدرات، أو بالانزلاق أكثر في ارتكاب الأخطاء ليعتاد عليها ويميت ضميره.

قصة في من يخدع نفسه:

كثير من الناس يتصور أنه يخدع الآخرين ولكنه في الحقيقة يخدع نفسه، مثلاً شابٌ ينشئ علاقة غير شريفة مع فتاة فيتبجح أمام زملائه بذلك وكأنّه حقق انتصاراً واستدرج هذه الفتاة، ولا يعلم انها هي التي استدرجته وخدعه الشيطان بها لأنها سلبت منه دينه وخسر نفسه.

يروى أن أحد الوعّاظ في بلد مقدس يقصده الزوار من دول العالم جمع التجار والكسبة في السوق وقال لهم إنني أحذركم من هؤلاء الزوار أن يخدعوكم، قالوا: كيف ذلك وهم غرباء لا يعلمون شيئاً ونحن نخدعهم ونبيع إليهم الأشياء بأضعاف سعرها، قال لهم: هذا ما عنيته بكلامي فلا يخدعونكم ويورطونكم في المعصية.

وأنتم –أيها الشباب– أكثر المراحل العمرية عرضة للانخداع والغفلة عن النفس، فقد ورد في الحديث الشريف (السكر في أربعة)[1] أحدها سكر الشباب، فمرحلة الشباب سبب للغفلة والطيش والغرور.

إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أي مفسدة

(١) تحف العقول– ابن شعبة الحراني: ص١٢٤

ولا نغفل تأثير الجو الاجتماعي العام الذي يساهم بشكل كبير في هذا التمويه والخداع وقلب الحقائق فيقول لك أنت شاب وعليك أن تتمتع وتلهو وتلعب، ليس هذا وقت الجدِّ والعمل، وإذا أراد الموظف أن يكون نزيهاً قيل له:حشر مع الناس عيد، وهل تستطيع بنزاهتك أن تقضي على الفساد، وهكذا حتى يموت الضمير ويخمد بريقه.

ملحق: الغنى والفقر بعد العرض على الله تعالى

من قصار كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام) في الموعظة قوله (عليه السلام) (الغنى والفقر بعد العرض على الله تعالى)[1] فالإمام (عليه السلام) يصحّح هنا بعض المقاييس التي نتعامل بها ونقيّم الأمور على أساسها، ففي ثقافتنا واذهاننا ان الغني من ملك الأموال والعقارات والسيارات الفارهة ونحو ذلك وان الفقير من لا يوجد عنده ذلك حتى انه لا يستطيع سدَّ احتياجاته.

وهذا المفهوم صحيح بدرجة من الدرجات لكنه ليس حقيقياً لأن هذه الأموال زائلة والى نفاد فان صاحبها سيموت ويتركها خلفه، وبالعكس فقد تكون وبالاً عليه اذا جمعها من مصادر غير مشروعة أو صرفها في موارد غير مقبولة أو انه لم يخرج منها الحقوق المتعلقة بها لله تعالى كالخمس أو الزكاة أو للناس كردّ المظالم والديون وحينئذٍ سيتمنى دفع كل هذه الأموال مقابل تخليصه من العذاب الذي هو فيه، ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الزمر:٤٧) ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ (الرعد:١٨) و هذا ليس في الآخرة فقط، بل في الدنيا يشعر بعض الأثرياء بعذاب الباطن وألم الضمير لما اقترفت يداه من ظلم وغصب لحقوق الآخرين وقد يؤدي به هذا الى الانتحار.

وهنا يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) ان الغنى الحقيقي الدائم الذي يتعقبه الفوز والسعادة هو عندما تعرض اعمال العبد على الله تعالى يوم القيامة فيجد ميزانه ثقيلاً

---

(١) نهج البلاغة :الحكمة ٤٥٢.

بالأعمال الصالحة الموجبة لرضا الله تبارك وتعالى، والفقير الحقيقي هو من خلت موازنية من اعمال تنجيه من النار وتوجب له الجنة ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۞ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۞ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ (القارعة:٦-١١).

روي ان النبي (ﷺ) قال يوماً لاصحابه (أتدرون من المفَّلس:إن المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى بها عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)[1].

والانسان العاقل اللبيب ذو البصيرة هو من يدرك هذه الحقيقة في الدنيا ويعمل على أساسها ولا تغريه أوهام الدنيا وإنما يعمل وفق المقاييس التي ترضي الله تبارك وتعالى، ولا ينتظر الآخرة ليكتشف هذه الحقيقة لأنه حينئذٍ لا يكون قادراً على تصحيح الأخطاء وإصلاح الخطايا والتبعات.

ويكون من توفيق الانسان ان يرزقه الله تعالى مالاً وفيراً من مصادره المحللة ويوفقه لإنفاقه في الموارد التي أمر الله تعالى بها وتوجب رضاه والجنة كمساعدة المحتاجين وتزويج الشباب المتعففين ونشر كتب الوعي والإصلاح والهداية وإعمار المساجد وغير ذلك فيكون قد جمع الله تعالى له خير الدنيا والآخرة،

(١) كنز العمال: ١٢٧/٤ ح ١٠٣٢٧ ، تاريخ بغداد: ٢٤٢/٤، تفسير القرطبي: ٢٥٥/١٥ ، صحيح ابن حبان: ٣٥٩/١٦.

وادعية طلب الرزق تقيده بأن يكون من حلال (سعة في الحال من الرزق الحلال)[1].

وإن بعض الذين يقومون بمشاريع كبيرة واسعة البركة قد لا يمتلكون مالاً كثيراً لكن الله تعالى يبارك لهم في انفاقهم والله ذو الفضل العظيم.

(١) من دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) ليوم الاربعاء.

القبس/٢٠٠

سورة الذَّاريات:﴿٥٠﴾

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ (الذاريات:﴿٥٠﴾).

في هذه الآية الشريفة عدة دلالات وإرشادات نهتدي بها في حياتنا العملية وفي طريق التكامل إن شاء الله تعالى:

١- إن الأمر بالفرار يعني التسليم بأننا في وضع يوجب الفرار منه؛ لأن الفرار والهرب لا يكون إلا من خطر وضيق وعسر ومشقة، فالأمر بالفرار يعني أننا واقعون فعلاً فيه أو أننا في معرض الوقوع فيه سواء التفتنا إليه أو لم نلتفت لغفلتنا وجهلنا بحقائق الأمور (الناس كلهم هلكى ألا العالمون، والعالمون، كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم)[1]، وما يستوجب الفرار كثير مما نواجه في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا: الفرار من المشاكل والتعقيدات والأزمات والقلق والأخطار وقساوة الحياة وسائر الصعوبات المادية والمعنوية، أما في الآخرة فالفرار من طول الموقف وسوء الحساب وشدة العقوبة والعذاب، وهذه كلها تلزم كل عاقل بأن يهرب منها إلى ملجأ يحميه ويوفر له الأمن والاستقرار والسعادة، وقد كرّر تعالى في هذه الآية

(١) مجموعة الشيخ ورام: ص ٣٢٠.

والتي تليها ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ للتنبيه من الغفلة وإيقاظ العقول والتأكيد على هذه المخاطر.

٢- إن الأمر بالفرار يستلزم من الآمر تحديد المهرب والملاذ الآمن كما أن الدول حينما تقوم بعملية عسكرية لتطهير مدينة أو موضع من إرهابيين ومجرمين فإنها تحدد مسارات وملاجئ آمنة لخروج المدنيين الأبرياء، وقد حدّدت الآية الجهة التي نفرّ إليها وهي جهة النجاة الوحيدة إنه الله تبارك وتعالى فانه الركن الوثيق الذي يلتجأون اليه ولا يوجد مفرّ إلا إليه ولا خيار امام الانسان غير الرجوع الى ربَّه الروؤف الرحيم﴿يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرّ ۞ كَلا لا وَزَرَ ۞ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۞ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (القيامة:١٠-١٣)، وهي بهذا المعنى تلتقي مع آيات عديدة ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ (العلق:٨) ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ (النجم:٤٢) (النجم:٤٣) ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾ (البقرة:١٥٦).

هذه هي الحقيقة التي يجب ان نفهمها حتى لا نضيع ونتيه، وهذا المعنى عبّر عنه الإمام السجاد (عليه السلام) في العديد من الأدعية والمناجاة كقوله (عليه السلام) في مناجاة الراجين (يا من كل هارب إليه يلتجئ، وكل طالب إياه يرتجي) وفيها (كيف أرجو غيرك والخير كله بيدك، وكيف أؤمل سواك والخلق والأمر لك) وفي مناجاة التائبين (إلهي هل يرجع العبد الآبق إلا إلى مولاه، أم هل يجيره من سخطه أحد سواه) وفي مناجاة المطيعين لله قال (عليه السلام): (فإنا بك ولك ولا وسيلة لنا إليك إلا أنت) وفي مناجاة المفتقرين (إلهي كسري لا يجبره إلا لطفك

وحنانك، وفقري لا يغنيه إلا عطفك وإحسانك، وروعتي لا يسكّنها إلا أمانك، وذلّتي لا يعزها إلا سلطانك، وأمنيتي لا يبلغنيها إلا فضلك) إلى غيرها من الفقرات التي اغتنت بها الصحيفة السجادية المباركة وأدعية الإمام السجاد الأخرى الملحقة بها.

٣- ارتبطت الآية بفاء التفريع ﴿فَفِرُّوا﴾ فالأمر بالفرار إلى الله جاء تفريعاً ونتيجة على ما ذكر في الآيات السابقة التي ذكرت الأسباب الموجبة لكون الله تعالى الجهة الوحيدة التي نفر إليها وهي ثلاثة.

فالآية (٤٧) بيّنت مثالاً لعظمة الله تعالى وقدرته ﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات:٤٧) التي تعني في بعض الوجوه استمرار توسع الكون وتمدده وقد اكتشف العلم الحديث التوسع الهائل الذي تتجه فيه النجوم والمجرّات بسرعة تصل إلى ٦٦ ألف كيلومتراً في الثانية[١].

والآية (٤٨) بيّنت رعاية الله لخلقه وإغداقه النعم عليهم ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ (الذاريات:٤٨) فبسط لنا الأرض وجعل لها حركة هادئة مريحة كالمهد الذي يسكن فيه الطفل الرضيع، وزودها بكل ما يوفر للإنسان السعادة والراحة والمتعة كما تفرش الأم مهد صغيرها وتجهّزه بكل وسائل الراحة والسعادة.

ثم عطفت الآية التالية على ذلك بيان شكل من أشكال فقر المخلوقات - كل المخلوقات- ونقصها الذاتي واحتياجها إلى ربها الغني من خلال إظهار

(١) تفسير الأمثل: ٢٣٦/١٣ عن كتاب (حدود النجوم) لـ(فرد هويل).

حاجتها إلى غيرها ووجود ما يضادها، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات:٤٩) إذ الزوجية هنا تعني أعم من الزوجية الجنسية كالذكر والأنثى، وزوجية السالب والموجب كشحنتي الإلكترون والبروتون في الذرة، وزوجية التضاد كالظلمة والنور أو زوجية الظاهر والباطن وغير ذلك؛ فالأشياء كلها إذن فقيرة ناقصة محتاجة في ذاتها.

فالفرار إلى الله تعالى لأن القدرة بيده والخير منه والسعادة عنده والكل محتاجون إليه.

فالآيات تقرر هذه الحقيقة وتدعو الناس إلى وعيها والالتفات إليها وتذكّرها دائماً لترتيب الأثر عليها وأخذ العبرة منها ﴿لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾ فمن الطبيعي أن تتفرع الآية التالية عليها ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الذاريات:٥٠) فإن الله تعالى لشفقته على عباده وحبّه لهم ولطفه بهم لم يتركهم سدىً ولم يوكل أمورهم إلى الصدفة أو إلى حماقة الجهّال من البشر ولم يتركهم يجربون طريقة المحاولة والخطأ (tryial & error) للتوصل إلى القوانين التي تكفل سعادتهم في الدنيا والآخرة كما يفعل البشر اليوم، وإنما أرسل إليهم منه الأنبياء والرسل لينذروهم ويبينوا لهم هذه الحقائق والمعارف كرماً منه وفضلاً ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

٤- ولما كان الله تعالى أجلّ من أن تكون له جهة أو مكان أو حيّز يشغله فالفرار إليه ليس كالفرار إلى حصن أو أي مكان آمن يتوجه إليه الهارب، وإنما الفرار إليه يعني التمسك بالوسائل والسُبّل الموصلة إليه تبارك وتعالى وفعل ما

يوجب قربه ورضاه وتجنب ما يسخطه سبحانه ويوجب غضبه؛ لذلك كانت الآية التالية كالبيان لمعنى الفرار ووسيلته ﴿وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فالفرار إلى الله تعالى يستند إلى الإيمان به وتوحيده ويبدأ من نفي الشركاء عنه.

والفرار إلى الله يعني الهروب من المعاصي والذنوب وكل ما يسخط الله تبارك وتعالى إلى طاعته ورضاه، ويعني الهروب من عذاب الله تعالى وعقابه الذي يقتضيه عدله (ومن عدلك مهربي) إلى رحمته ورضوانه، من مناجاة الراغبين للإمام السجّاد (عليه السلام): (وها أنا فارٌّ من سخطك إلى رضاك وهارب منك إليك).

والفرار إلى الله تعالى يعني الانقطاع عما سواه والتحرر من كل الآصار، والأغلال التي تعيق حركته نحو التكامل وتثقله إلى الأرض وتوجب عبوديته وأسره ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف:١٥٧).

والفرار يعني الهروب والتحرر من ذل اتّباع كل الآلهة والمعبودات التي تطاع من دون الله سواء كانت بشرية أو أصناماً حجرية أو أهواء وشهوات وغرائز أو أنظمة وقوانين من صنع البشر أو أعراف وتقاليد اجتماعية أو عشائرية أو سلطات وزعامات تحكم بغير ما أنزل الله، أو ضلالات أو أفكار مبتدعة أو أوضاع اجتماعية خارجة عما يريده الله تعالى بحيث صارت الدول التي تصف نفسها بالتحضر والعظمة تبيح الشذوذ الجنسي بين المثليين بقوانين رسمية تحت عنوان الحرية والديمقراطية وأمثالها، فالفرار يعني الهروب من كل هذه المعبودات المطاعة إلى الإله الواحد القهار وهو الله تبارك وتعالى.

بل المطلوب أكثر من ذلك وهو السعي الحثيث لتحرير البشرية منها وإزالتها

وليس الانعزال السلبي فضلاً عن مداهنة أتباعها ومسايرتهم، كالذي حصل قبل أيام حينما نجح بعض الإخوة في استصدار قرار من البرلمان يحظر تجارة المسكرات[1] وتناولها في محلات علنية وهو موافق للدستور الذي يمنع من مخالفة ثوابت الإسلام، ومن ما يخالف الديمقراطية وقد نال القرار موافقة الأغلبية، فانبرت أصوات منبوذة لرفض القرار حتى قال أحدهم أن هذا القرار يثبّط عزائم الحشد الذي يقاتل داعش لأنهم يشربون الخمر وقاتلوا داعش لأنها منعتهم منها، ولم يمتلك أكثر مدعي الشعارات الإسلامية الشجاعة في نصرة الحق والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على نهج أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) فكانوا على عكس ما أرادت منهم الآية الكريمة فاريّن من الله تعالى وليس اليه سبحانه فبئست الصفقة.

٥- ولما كانت هذه الوسائل على درجات، فإن الفرار إلى الله تعالى له درجات متصاعدة في الكمال، كما أن الابتعاد عنه تعالى له دركات في الانحطاط، فأُولى درجات الفرار الى الله تعالى وأساسها توحيد الله تعالى ونبذ الشركاء عنه، وأرقاها الانقطاع عما سواه حتى عن نفسه (اِلـهي هَبْ لي كَمالَ الانْقِطاعِ اِلَيْكَ)[2] فيصبح مخلَصاً لله تعالى فاراً مما سواه، مستقراً عنده عز وجل ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ (القيامة:١٢).

---

(١) صوت البرلمان العراقي بأغلبية الحاضرين البالغين (٢٢٩) عضواً يوم السبت ٢٠/ محرم/ ١٤٣٨هـ- الموافق ٢٢/ ١٠/ ٢٠١٦م، على قرار منع استيراد وصناعة وبيع المشروبات الكحولية وتغريم المخالفين وكان لكتلة الفضيلة دور في النجاح وحصل بعده جدل كثير واعتراض من العلمانيين.

(٢) المناجات الشعبانية لأمير المؤمنين (عليه السلام).

٦- وعلى صعيد النتائج فإن الفرار الى الله تعالى يعني الانتقال من الشرك والكفر والالحاد الى التوحيد، ومن الباطل الى الحق، الظلام الى النور، ومن الضلال والفساد والانحراف الى الاستقامة، ومن القلق والنكد الى السكون والاطمئنان، ومن الفسق والفجور الى التقوى، ومن الجهل والخرافة والوهم والشبهة الى العلم والمعرفة.

٧- ووسائل الفرار إلى الله تعالى غير منحصرة فالقيام بكل عمل صالح ومثمر ومفيد للشخص أو المجتمع هو فرار إلى الله تعالى، واجتناب كل فعل سيئ مضرّ لا ينسجم مع التعاليم الإلهية هو فرار إلى الله تعالى، وأساس كل ذلك التوحيد كما في الآية أعلاه، ومفتاحه ولاية أهل البيت (عليهم السلام) والأخذ عنهم والتمسّك بنهجهم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة:٣٥) فهم (عليهم السلام) أوضح الوسائل إلى الله تعالى (فَكانُوا هُمُ السَّبِيلَ إِلَيْكَ وَالمَسْلَكَ إلى رِضْوانِكَ)[١] كما أفادت الروايات[٢].

وقد ذكرت الروايات مصاديق أخرى، فقد روى الكليني في الكافي والصدوق في معاني الأخبار بالإسناد عن الإمام الباقر (عليه السلام) في تفسير الآية قال: (حجّوا إلى الله عز وجل) وهذا من باب ذكر بعض المصاديق وهي واسعة ولعل الحج هنا يراد به معناه اللغوي أي القصد إلى الله تعالى وتدل عليه رواية الشيخ الصدوق في (مَن لا يحضره الفقيه) بسنده عن زيد الشهيد عن أبيه الإمام السجاد (عليه السلام) قال:(يعني حجّوا إلى بيت الله، يا بني إن الكعبة بيت الله، فمن حجّ بيت الله قصد إلى الله،

(١) مفاتيح الجنان: دعاء الندبة.

(٢) راجع تفسير البرهان: ٢٣٢/٣.

والمساجد بيوت الله، فمن سعى إليها فقد سعى إلى الله وقصد إليه)[1].

وقد دلّت بعض المنقولات على أن أوسع وسائل النجاة والفرار إلى الله تعالى إحياء ذكر أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) والعمل على تحقيق أهدافه المباركة في إصلاح الأمة وإحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى قال الشاعر الشعبي «غير حسين ما عدنا وسيلة» أي أنه (عليه السلام) أيسر وأسرع سفن النجاة.

(١) راجع مصادرها في تفسير البرهان: ١٣٤/٩.

ملحق: الحج وصدق الفرار الى الله تعالى

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الذاريات:٥٠) وهو أمر بالفرار إلى الله تعالى وقد شرحنا ذلك في قبس سابق[١] ضمن عدة نقاط ويمكن مراجعتها، مثلاً إن الآية ذكرت الفرار إلى الله تعالى ولم تذكر ممن الفرار؟ وأجبنا إن الفرار منه سبحانه أيضاً وليس في ذلك أي تناقض فنحن نفرّ من عدله إلى كرمه وتفّضله، ومن غضبه الى رحمته، وقد تضمنت الأدعية الشريفة هذه المعاني، كما في مناجاة الراغبين للإمام السجاد (عليه السلام): (وَهَا أَنَا..... فَارٌّ مِنْ سَخَطِكَ إلى رِضاكَ، هارِبٌ مِنْكَ إلَيْكَ)[٢].

وقد دلّت الروايات الشريفة أن الحج هو من أعظم طرق الفرار إلى الله تبارك وتعالى، فقد روى الشيخ الكليني في الكافي والشيخ الصدوق في معاني الأخبار بالإسناد عن الإمام الباقر (عليه السلام) في تفسير الفرار الى الله قال: (حجّوا الى الله عز وجل)[٣]، وروى الشيخ الصدوق في الفقيه بسنده عن زيد الشهيد عن أبيه السجاد (عليه السلام) قال: (يعني حجّوا إلى بيت الله، يا بنيَّ إن الكعبة بيت الله، فمن حجّ بيت الله فقد قصد إلى الله) ويضيف الإمام (عليه السلام) توسعة لذلك لمن لم يتيسر له الحج فقال (عليه السلام): (والمساجد بيوت الله فمن سعى إليها فقد سعى الى الله وقصد إليه)[٤].

---

(١) القبس المتقدم.

(٢) مفاتيح الجنان: مناجاة الراغبين.

(٣) وسائل الشيعة: ١١/ ٩/ ح٨.

(٤) راجع مصادر هذه الروايات في تفسير البرهان: ٩/ ١٣٤.

أن الحياة في ضيافة الرحمن وفي تلك الأراضي المقدسة من نعم الجنة التي عجلها الله تعالى لعبادة المؤمنين في الدنيا قبل الآخرة ليريهم نعم الجنة وجداناً ويشوّقهم إليها.

فمدة السفر إلى الديار المقدسة أيام خالصة لله تبارك وتعالى شرفها الله تعالى وأكرمها بارتباطها به تبارك وتعالى، وقد أكدّ دعاء العشرة الأولى من ذي الحجة هذا المعنى (اللهُمَّ هذِهِ الأيامُ الَّتي فَضَّلتَها عَلى الأيامِ وَشَرَّفتَها وَقَد بَلَّغتَنيها بِمَنِّكَ وَرَحمَتِكَ)[1] والمتوقع من الحاج الذي تجرد عن وطنه وأهله وأحبائه وماله ومنصبه وموقعه الاجتماعي أن يفرِّغ نفسه فيها لله تعالى، ويبدأ الاستعداد لهذه السفرة الإلهية قبلها بمدة فيبحث عن القافلة التي فيها مرشد ديني فاضل وورع وعامل، ومتعهد مخلص أمين، وأن يبرئ ذمته من حقوق الله تعالى والناس المادية والمعنوية، ويسترضي خصومه، وان يتفقه في مسائل الحج حتى يكون عارفاً بها من أولّها ولا يفوته شيء منها، فتجد من يحرم من المطار ولا يلتفت الى أن التظليل بسقف الطائرة مخالفة شرعية، وأن يصحب معه ما يعينه على طاعة الله مما سنذكر إن شاء الله تعالى، ومما يستحب قبل السفر توفير الشعر من أول ذي القعدة وهكذا.

والفرار إلى الله تعالى له مراتب يحصل الحاج في بعض مراتبه العالية على نور يسددّه في حياته كلها، فكيف نحقق أفضل مراتب الفرار في هذا الموسم العبادي؟

١- الورع عن محارم الله كالغيبة والاختلاط غير المشروع بين الرجال

(١) إقبال الأعمال- ابن طاووس: ٤٥/٢.

والنساء والممازحة باعتبار طول الرفقة في السفر وتجنب مجالس البطالين والأحاديث الفارغة واللغو التي لا تخلو غالباً من المحرمات كالغيبة والغمز واللمز فالحجاج في ضيافة الرحمن وليسوا في مقهى أو على أرصفة الطرقات، وأن تلتزم النساء بمقتضيات الحياء والعفة ويتجنبنّ ما ينافيهما فإنهما رأس كل خير، قال تعالى: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة:١٩٧).

٢- عدم إضاعة الوقت فيما لا نفع فيه كالتسكع في الأسواق والتفرّج على أنواع البضائع فيها ويكفيه شراء ما يتحف أهله ومحبيه من هدايا تبركاً من الديار المقدسة، واستثمار الوقت بما ينفع حاله كذكر الله تعالى فقد ورد عن رسول الله (ﷺ) في فضل التسبيحة الرباعية قوله: (من قال: سبحان الله غرس الله له بها شجرة في الجنة ومن قال: الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنة ومن قال: لا إله إلا الله غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: الله أكبر غرس الله له بها شجرة في الجنة فقال رجل من قريش: يا رسول الله إن شجرنا في الجنة لكثير، قال: نعم، ولكن إياكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها، وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد:٣٣))[1].

أقول: هذه النيران هي المعاصي كالغيبة وظلم الآخرين وايذائهم وغير ذلك.

٣- زيارة البيت الحرام يومياً والصلاة والدعاء فيه والإكثار من الطواف

(١) بحار الأنوار: ٩٠/ ص١٦٨.

حول الكعبة وهو أفضل من إكثار الصلاة للحجاج الآفاقيين، وإن مجرد النظر إليها عبادة وان ينوب في هذه العبادات وغيرها عن المعصومين (عليهم السلام) ثم عن جميع المؤمنين ليتضاعف أجره بعددهم.

٤- الالتفات الى الأسرار المعنوية[1] لشعائر الحج ومعانيها الحقيقية والأغراض المقصودة منها لتكتمل الاستفادة منها فان جوائز الحجاج على مراتب، أدناها لمن اقتصر على الشكليات قال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ (الحج:٣٧) وتوجد كتب مؤلفة في هذا المجال.

٥- الالتزام بالصلاة في أوقات فضيلتها فمن المعيب أن ينام الحاج عن صلاة الصبح أو يؤخر صلاته عن وقت الفضيلة لانشغاله بأمور الدنيا.

٦- الحرص على حضور صلاة الجماعة التي يقيمها المرشدون، فإن فيها ثواباً لا يحصى وبركات لا تعدّ.

٧- المواظبة على الاستماع الى المحاضرات الدينية وحضور مجالس الوعظ والإرشاد وتعليم الأحكام الشرعية عموماً وما يتعلق بالحج خصوصاً.

---

(١) أتذكر انني في حج سنة ١٤٣١هـ كنت ألقي كلمة أخلاقية عن الآداب المعنوية للحج في إحدى القوافل تأثروا بها ومما ذكرت من أسرار الحج هو ابتداء الحج بعد الاحرام بالخروج الى عرفة وهي خارج الحرم وفيه رسالة أنكم لا تستحقون بأعمالكم إلا الخروج من حرم الله تعالى الآمن المبارك لكنهم بعد أن يصدقوا في الاستغفار والدعاء في عرفة وإكثار الذكر في مزدلفة يؤذن لهم بدخول الحرم في منى فيرجمون شياطين الجن والإنس وينحرون الأهواء والمطامع وشهوات النفس الأمارة بالسوء ويحلقون رؤوسهم اعلاناً للنصرة التامة لدين الله تعالى ثم يعودون الى البيت الحرام راضيين مرضيين.

٨- الإكثار من تلاوة القرآن الكريم فقد نزل على النبي (ﷺ) في هذه الأرض المباركة، وأن يعيش أجواء الآيات الكريمة وظروف نزولها وورد استحباب إكمال ختمة قرآن في مكة.

٩- أداء الصلوات المستحبة كالنوافل اليومية خصوصاً صلاة الليل فقد قال الله تعالى في جزاء من يؤديها ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (السجدة:١٧) وصلاة جعفر الطيار في المشاهد المشرفة خصوصاً في ضحى يوم الجمعة، وصلاة ركعتين يوم الجمعة بين الظهر والعصر بالحمد والتوحيد سبعاً مع دعائها القصير، وصلاة أربع ركعات بالحمد والتوحيد ثلاثاً والمعوذتين كل أحد من ذي القعدة وبعدها الاستغفار والدعاء وصلاة ركعتين بالحمد وآية ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى﴾ (الأعراف:١٤٢) في العشر الأوائل من ذي الحجة، وصلاة أول الشهر حيث سيهلّ عليهم شهر الحجة وهم في الديار المقدسة وغير ذلك مما جرت عليه سيرة الصالحين.

١٠- وما دام الحاج ينوي الإقامة في مكة فإنه يستطيع الصوم من هذه الناحية، فلا يفوته صوم الأيام المستحبة كيوم دحو الأرض وأول خميس من الشهر وآخر خميس والأربعاء في الوسط وصوم الخميس والجمعة والسبت من الأشهر الحرم ومنها ذو القعدة وذو الحجة، كما يستحب صيام الأيام التسعة الأولى من شهر ذي الحجة.

١١- الإكثار من الأدعية المنصوصة في الأوقات المخصوصة وغيرها، أو ما يُنشئه الحاج نفسه مما يعبّر عن عمق صلته بالله تعالى وشدة فقره واحتياجه إلى فضله وإحسانه تبارك وتعالى.

١٢- مطالعة كتب المناسك للتفقه في أحكام الحج وأدائها بأحسن كيفية والسؤال عن الأحكام التي لا يعرفها.

١٣- أن يحسن معاشرة الآخرين وصحبتهم ويكون لطيفاً وودوداً ساعياً في خدمتهم قدر الإمكان ويؤثرهم على نفسه إن حصل تزاحم في أمر ما كالطعام أو المكان ولا يؤذيهم، وقد عقد صاحب الوسائل كتاباً مفصلاً لروايات أهل البيت (عليهم السلام) في آداب العشرة قبل الدخول في مسائل كتاب الحج.

١٤- وتوجد مستحبات خاصة بمناسك الحج كاستحباب الإحرام من المسجد الحرام للخروج الى الحج وإن كان الإحرام من المنزل مجزياً وغير ذلك مما ذكرته كتب المناسك، وقد يصعب أداء بعضها بسبب تنظيم حركة القوافل وحفظ الحجاج من الضياع كالمبيت ليلة عرفه في منى وكذا الليلة الثالثة عشرة لمن لم تجب عليه فلا بد من الاتفاق بين المتعهد والمرشد الديني.

١٥- إظهار وحدة الشعب واستثمار هذه الفرصة حيث يجتمع الحجاج من كافة الطوائف والقوميات والمناطق وتذويب جميع الخلافات والتذكير بالقواسم المشتركة التي أرادها الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله) ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران:١٠٣).

١٦- الاهتمام بقضايا المسلمين جميعا في شرق الأرض وغربها والتعاطف معهم والمساعدة في حل مشاكلهم ولو بكلمة مواساة او نصيحة أو بنقل مشاكلهم الى المعنيين، وتبادل الرؤى النافعة مع جميع المسلمين قال الله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ (الحج:٢٨).

القبس/٢٠١

سورة الرحمن:﴿٦٠﴾

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾

قاعدة يتسالم عليها العقلاء وتدعو اليها الفطرة الانسانية يقررّنا الله تبارك وتعالى عليها بصيغة الاستفهام الاقراري لتعليل ما سبق ذكره من النعم، حيث جاءت الآية من سورة الرحمن في هذا السياق حيث بدأ المقطع بقوله تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن:﴿٤٦﴾)، وذكر عدة من نعم الجنان، وليطمئننا بأن الأعمال الحسنة لا تضيع لأن الاحسان لا يجازى إلا بالإحسان ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف:﴿٣٠﴾).

وقد كتب الله تبارك وتعالى على نفسه إجراء هذه القاعدة في تعامله مع عباده، فإنه لم يعاملهم بمقتضى العدل والمجازاة بالمثل، وانما كافأهم على اساس الاحسان والفضل مع انه هو المنعم والهادي والممكّن لعبده في فعل الاحسان ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الحجرات:﴿١٧﴾)، وفي آمالي الصدوق بسنده عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال (سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: ان الله عز وجل قال ما جزاء من أنعمتُ عليه بالتوحيد إلا الجنة)[1]، ومع انه غني عن عباده وحينما يحسنون فإنما يحسنون لأنفسهم ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (الإسراء:﴿٧﴾)،

(١) آمالي الصدوق : ٣١٦/ ح٧.

فعطاؤه تعالى إحسان في إحسان، في نهج البلاغة من كلام لأمير المؤمنين (عليه السلام): (وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ، لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصاً لِلَّهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفَضُّلًا مِنْهُ وَتَوَسُّعاً بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ)[1].

ومن المعلوم أن الاحسان فوق العدل، لان العدل منح الاستحقاق فيأخذ ماله ويعطي ما عليه، اما الاحسان فإعطاء ما لا يلزمه من الخير والتنازل عما يستحقه، وقد أشارت آيات كثيرة الى هذا الاحسان، قال تعالى ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (يونس:٢٦) وقال تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (الأنعام:١٦٠) وقال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٤٠)، ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ (النمل:٨٩) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦١).

ومن الروايات التي تصورّ لنا إحسان الله تبارك وتعالى ما ورد عن فضيل بن عثمان المرادي قال:سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أربع

(١) نهج البلاغة : ٣٣٣ خطبة ٢١٦.

من كن فيه لم يهلك على الله بعدهن إلا هالك، يهم العبد بالحسنة فيعملها فإن هو لم يعملها كتب الله له حسنة بحسن نيته، وإن هو عملها كتب الله له عشرا. ويهم بالسيئة أن يعملها فإن لم يعملها لم يكتب عليه شئ وإن هو عملها اجل سبع ساعات وقال صاحب الحسنات لصاحب السيئات وهو صاحب الشمال: لا تعجل عسى أن يتبعها بحسنة تمحوها، فإن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٤)، أو الاستغفار فإن هو قال: "أستغفر الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم الغفور الرحيم ذو الجلال والإكرام وأتوب إليه" لم يكتب عليه شئ، وإن مضت سبع ساعات ولم يتبعها بحسنة واستغفار قال صاحب الحسنات لصاحب السيئات: اكتب على الشقي المحروم)[1]، ومع ذلك فأنه يمنح عدة فرص:

(منها) فتح باب التوبة ما دام في هذه الدنيا، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (من تاب قبل أن يعاين قَبِل الله توبته)[2] وعنه (صلى الله عليه وآله) قال :(إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[3].

و(منها) انه إذا فعل حسنات فانها تكفر السيئات بل تبدّلها الى حسنات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٤)، ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الفرقان:٧٠).

---

(١) شرح أصول الكافي- المازندراني: ١٠/١٦٦.

(٢) الكافي - الشيخ الكليني: ٢/٤٤٠/ح٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ١/٤٧٤.

و(منها) اعتبار البلايا والصعوبات والالام التي يمر بها الانسان كفارة لذنوبه، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (الحمد لله الذي جعل تمحيص ذنوب شيعتنا في الدنيا بمحنتهم لتسلم بها طاعاتهم ويستحقوا عليها ثوابها)[1].

و(منها) العفو والصفح ابتداءاً تكرماً من الله تعالى وفضلاً من غير تسبيب العبد ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى:٣٠).

عموم الآية للمسلم وغيره:

والآية عامة لا تختص بالمؤمنين فكل من يصدر منه فعل الاحسان يكافئه الله تعالى بالإحسان مؤمنا كان او غير مؤمن على اختلاف درجاتهم في الكفر والشرك اوالجهل بالخالق، روى عبد الله بن مسعود قال:قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (ما أحسن محسن من مسلم، ولا كافر إلا أثابه الله: فقلنا: يا رسول الله، ما إثابة الكافر؟ قال: إن كان قد وصل رحما، أو تصدق بصدقة، أو عمل حسنة أثابه الله المال والولد والصحة وأشباه ذلك، قال: فقلنا: فما إثابته في الآخرة ؟ قال: عذابا دون العذاب، وقرأ ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[2] (غافر:٤٦).

هذا بالنسبة للمعاند اما غير المعاند فيكافئه الله تعالى بالهداية الى الاسلام والايمان وطريق الجنة والشواهد كثيرة على حصول مكافأة كبيرة لمن قام بعمل يسير كتلك المرأة الفاسقة التي دخلت الجنة لأنها سقت قطة عطشى ماءاً، او الحر

---

(١) بحار الانوار: ٦٧/ ٢٣٢/ح٤٨.

(٢) تفسير ابن كثير: ١٣٨/٧.

الرياحي[١] الذي لم يرّد على الإمام الحسين (عليه السلام) حين قال له ثكلتك امك يا حر لان امه الزهراء (عليها السلام) فكوفئ بنيل الشهادة والسعادة الابدية.

ونقل بعض المفسرين ان شخصا مسلماً شاهد امرأة كافرة تنثر الحب للطيور في الشتاء فقال لها:لا يقبل العمل من امثالك، فأجابته:اني اعمل هذا سواء قبل ام لم يقبل، ولم يمض وقت طويل حتى رأى الرجل هذه المراءة في حرم الكعبة، فقالت له يا هذا ان الله تفضل علي بنعمة الاسلام ببركة الحبوب القليلة[٢].

ثمرة عملية لذكر الآية

أراد الله تعالى بتذكيرنا بهذا القانون الفطري وبتعامله معنا على اساسه أن يؤدبنا بهذا الأدب وان نتعامل بهذه القاعدة العقلائية الفطرية مع الله تبارك وتعالى المحسن المتفضل، وكذلك بيننا نحن البشر وإن خالفونا في الدين، فنجازي الاحسان بالإحسان، روى علي بن سالم قال: (سمعت ابا عبد الله (عليه السلام) يقول: آية في كتاب الله مسجّلة، قلت:وما هي؟ قال: قول الله تبارك وتعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾، جرت في المؤمن والكافر والبرّ والفاجر، من صُنِع إليه معروف فعليه أن يكافيء به، وليس المكافأة أن يصنع كما صنع به، بل حتّى يرى مع فعله، لذلك ان له فضل المبتدى)[٣].

وقد حثت الآيات الكريمة والروايات الشريفة على اتباع طريقة الاحسان في التعامل مع الاخرين وانه من افضل القربات التي توجب المحبة الالهية، قال تعالى

---

(١) الارشاد- الشيخ المفيد: ٧٨.

(٢) تفسير الامثل: ٤٧٥/١٣ حكاها عن روح البيان: ٣١٠/٩.

(٣) تفسير البرهان: ٩/ ١٩٣.

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:١٩٥)، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت:٦٩)، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (النحل:١٢٨)، ومن كلمات امير المؤمنين (عليه السلام) (عَلَيْكَ بِالإحْسانِ فَإنَّهُ أفْضَلُ زِراعَة وَ أرْبَحُ بِضاعَة) وعنه (عليه السلام) (رَأْسُ الإيمانِ اَلإحْسانُ إلَى النّاس) وعنه (عليه السلام) (نِعْمَ زادُ المَعادِ الإحْسانُ إلَى العِبادِ) وعنه (عليه السلام) (لَوْ رَأيْتُمُ الإحْسانَ شَخْصاً لَرَأيْتُمُوهُ شَكْلاً جَميلاً يَفُوقُ العالَمينَ)[1].

الانسان يخالف هذه القاعدة:

لكن الانسان العنود الكنود المجادل الجهول الظلوم خالف هذه القاعدة في علاقته مع ربّه ولم ينصفه بأدنى درجات الانصاف فيكون الاستفهام في الآية استنكارياً بهذا اللحاظ، ويكون فيها عتاب للإنسان بأنه لا يعمل بها بعد أخذ اقراره بها في عيون اخبار الرضا وآمالي الطوسي بالإسناد عن الإمام الرضا (عليه السلام) عن آبائه الطاهرين (عليهم السلام) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (حدثني أخي رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: يقول الله عز وجل: يا أبن آدم ما تنصفني! أتحبّبُ اليك بالنعم، وتتمّقت اليَّ بالمعاصي، خيري اليك نازل وشرُّك اليَّ صاعد، ولا يزال ملكٌ كريم يأتيني عنك في كل يوم بعملٍ غير صالح، يا ابن آدم لو سمعت وصفك من غيرك وانت لا تدري من الموصوف لسارعت الى مقته)[2].

وورد هذا المعنى في دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) المروي عن طريق ابي حمزة

---

(١) ميزان الحكمة: ٢/ ٣٩١.

(٢) امالي الطوسي: ٢٠٢/ ح١٠، من الجزء الخامس، عيون اخبار الرضا (عليه السلام): ٢٨/٢.

الثمالي (ذُنُوبُنا بَيْنَ يَدَيْكَ نَسْتَغْفِرُكَ اللّهُمَّ مِنْها وَنَتُوبُ اِلَيْكَ، تَتَحَبَّبُ اِلَيْنا بِالنِّعَمِ وَنُعارِضُكَ بِالذُّنُوبِ، خَيْرُكَ اِلَيْنا نازِلٌ، وَشُّرنا اِلَيْكَ صاعِدٌ، وَلَمْ يَزَلْ وَلا يَزالُ مَلَكٌ كَريمٌ يَأتيكَ عَنّا بِعَمَل قَبيح، فَلا يَمْنَعُكَ ذلِكَ مِنْ اَنْ تَحُوطَنا بِنعَمِكَ، وَتَتَفَضَّلَ عَلَيْنا بِآلائِكَ، فَسُبْحانَكَ ما اَحْلَمَكَ وَاَعْظَمَكَ وَاَكْرَمَكَ مُبْدِئاً وَمُعيداً، تَقَدَّسَتْ اَسْماؤكَ وَجَلَّ ثَناؤُكَ، وَكَرُمَ صَنائِعُكَ وَفِعالُكَ)[1].

اما الإمام الحسين (عليه السلام) فيفصّل أكثر في بيان هذه العلاقة غير المنصفة بين الانسان وربّه في دعائه العظيم يوم عرفة فبعد ان قال (عليه السلام) (يا من قل له شكري فلم يحرمني، وعظمت خطيئتي فلم يفضحني، ورآني على المعاصي فلم يخذلني، يا من حفظني في صغري يا من رزقني في كبرى، يا من أياديه عندي لا تحصى، يا من نعمه عندي لا تجازى يا من عارضني بالخير والاحسان، وعارضته بالإساءة والعصيان) بدأ (عليه السلام) بتفصيل عدم انصاف الانسان لربه، فيقول عن ربه تعالى (يا مَوْلاي اَنْتَ الَّذي مَنَنْتَ، اَنْتَ الَّذي اَنْعَمْتَ، اَنْتَ الَّذى اَحْسَنْتَ، اَنْتَ الَّذي اَجْمَلْتَ، اَنْتَ الَّذي اَفْضَلْتَ، اَنْتَ الَّذي اَكْمَلْتَ، اَنْتَ الَّذي رَزَقْتَ، اَنْتَ الَّذي وَفَّقْتَ، اَنْتَ الَّذي اَعْطَيْتَ، اَنْتَ الَّذي اَغْنَيْتَ، اَنْتَ الَّذي اَقْنَيْتَ، اَنْتَ الَّذي آوَيْتَ، اَنْتَ الَّذي كَفَيْتَ، اَنْتَ الَّذي هَدَيْتَ، اَنْتَ الَّذي عَصَمْتَ، اَنْتَ الَّذي سَتَرْتَ، اَنْتَ الَّذي غَفَرْتَ، اَنْتَ الَّذي اَقَلْتَ، اَنْتَ الَّذي مَكَّنْتَ، اَنْتَ الَّذي اَعْزَزْتَ، اَنْتَ الَّذي اَعَنْتَ، اَنْتَ الَّذي عَضَدْتَ، اَنْتَ الَّذي اَيَّدْتَ، اَنْتَ الَّذي نَصَرْتَ، اَنْتَ الَّذي شَفَيْتَ، اَنْتَ الَّذي عافَيْتَ) الى اخر ما قال (عليه السلام).

وماذا عن العبد؟ قال (عليه السلام)، (ثُمَّ أَنَا يَا إِلَهِي الْمُعْتَرِفُ بِذُنُوبِي فَاغْفِرْهَا لِي، أَنَا

(١) مفاتيح الجنان: ٣٣٧.

الَّذِي أسأت، أنا الّذي أَخْطَأْتُ، أَنَا الَّذِي جَهِلْتُ، أَنَا الَّذِي غفَلْتُ، أَنَا الَّذِي سَهَوْتُ، أَنَا الَّذِي اعْتَمَدْتُ، أَنَا الَّذِي تَعَمَّدْتُ، أَنَا الَّذِي وَعَدْتُ، أَنَا الَّذِي أَخْلَفْتُ، أَنَا الَّذِي نَكَثْتُ، أَنَا الَّذِي أَقْرَرْتُ، أنا الّذي اعترفت بِنِعْمَتِكَ عِلَيَّ وعنْدِي، وَأَبُوءُ بِذُنُوبِي فَاغْفِرها لِي)[1].

وإذا كان السائد على علاقة الانسان مع ربّه وخالقه هو عدم الانصاف، فهو كذلك مع الناس حيث يسود الناس الظلم والفساد والغش والخداع والاحتيال قال تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (الروم:٤١) خلافاً للأدب الذي أمرنا الله تعالى به أن نجازي بالإحسان من احسن الينا وعلى رأسهم النبي (صلى الله عليه وآله) والائمة الطاهرون (صلوات الله عليهم اجمعين) والعلماء العاملون المخلصون والوالدان ﴿بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ (البقرة:٨٣) وجيراننا وارحامنا والذين علّمونا والذين ربّونا وهكذا كل من أحسن الينا.

بل أمرنا بالإحسان حتى لمن اساء الينا، قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون:٩٦) ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلّت:٣٤).

(١) مفاتيح الجنان: ٤٦٧ اعمال شهر ذي الحجة.

القبس/٢٠٢

سورة الحديد: ﴿٤﴾

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

موضوع القبس: المعية الإلهية ... الثمرات والمراتب

تنبّه الآية الكريمة إلى حقيقة قرآنية عظيمة تزيد الانسان كمالاً ومعرفة بربّه كلما ازداد ايماناً بها واستحضرها في وجدانه فعلاً.

تلك الحقيقة هي ان الله تعالى معكم في جميع مراحل تكوّنكم في الدنيا والآخرة وفي كل مكان تكونون فيه ومهما اعتقدتم انكم في خلوة وانفراد فانه معكم، وهو تعالى معكم في كل زمان وفي كل حالة من حالاتكم ومطّلع عليكم ومحيط بكم ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: ٣) فالمعيّة الإلهية متحققة من جميع الجهات، وان لفظ (اين ما) الوارد في الآية لا يحدّدها بالمعية المكانية، ولعل ذكرها باعتبار ان المعية المكانية هي الاوضح في الاذهان للتعبير عن الاقتران وكذا الغيبة المكانية أوضح في التعبير عن الافتراق.

ولذا جاءت الفقرة التالية لها ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ كالنتيجة لهذه الحقيقة لان لازم حضوره معكم وعدم احتجابكم عنه وإحاطة علمه بكم أن يكون بصيراً بأعمالكم عالماً بنيّاتكم وأغراضكم أي يعلم ظاهر الاعمال وباطنها.

وقد تكرر هذا المعنى في آيات كريمة أخرى كقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ

اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة:٧) وقال تعالى ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ (النساء:١٠٨).

وقد استلهم النبي (صلى الله عليه وآله) هذه الحقيقة وقدّم توجيهاً تربوياً في وصيته لأبي ذر (رضوان الله تعالى عليه) بقوله (أعبد الله كأنك تراه فان كنت لا تراه فأنه يراك)[1] والعبادة تسري في كل شؤون الحياة.

إن الايمان بهذه الحقيقة له عدة آثار في حياة الانسان:

١- سيشعر انه ليس وحيداً في مواجهة الصعوبات والمحن والبلاءات وانما يكون معه رب رؤوف رحيم يشفق عليه ويرعاه ويدفع عنه ويحميه ويستجيب لدعائه وطلباته واذا تأخرت الإجابة فلمصلحته لانَّ ربه يختار له الخير ويكافئه على الاحسان ويعفو عن الإساءة وينصره عند الضعف والانقطاع ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء:٦٢) ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۞ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۞ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۞ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۞ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (الشعراء:٧٨-٨٢) فهي معيّة الايجاد والهداية ومعيّة الاطعام والسقي ومعيّة الشفاء من المرض ومعيّة البعث والنشور. وبذلك يتحول عجز الانسان وضعفه إلى قوة واقتدار ويتبدل خوفه وقلقه

(١) مكارم الاخلاق للطبرسي: ٦٢٦.

بفضل الله تعالى إلى أمن وطمأنينة قال تعالى ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد:٣٥) وقال تعالى ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّه مَعَنَا﴾ (التوبة:٤٠).

روى الشيخ الصدوق عن إمامنا الْعَسْكَرِيِّ (عليه السلام) (أَنَّهُ سُئِلَ إمامنا الصَّادِقُ عَنِ اللَّهِ؟ فَقَالَ لِلسَّائِلِ: "يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، هَلْ رَكِبْتَ سَفِينَةً قَطُّ"؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: "فَهَلْ كُسِرَ بِكَ حَيْثُ لَا سَفِينَةَ تُنْجِيكَ، وَلَا سِبَاحَةَ تُغْنِيكَ"؟ - أي حالة انقطاع أسباب النجاة- قَالَ: بَلَى. قَالَ: "فَهَلْ تَعَلَّقَ قَلْبُكَ هُنَاكَ أَنَّ شَيْئاً مِنَ الْأَشْيَاءِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ وَرْطَتِكَ"؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ الصَّادِقُ: "فَذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ اللَّهُ الْقَادِرُ عَلَى الْإِنْجَاءِ حِينَ لَا مُنْجِيَ، وَعَلَى الْإِغَاثَةِ حِينَ لَا مُغِيثَ")[1] لاحظوا عظمة النعمة بحضور الله تعالى معنا، وأي وحشة وعجز وضعف يحسّ به المنكر للخالق.

وتزداد معية التوفيق والتأييد كلما ازداد العبد قرباً من ربّه ﴿وَقَالَ اللَّه إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي﴾ (المائدة:١٢) أي ان بعض مراتب المعيّة العالية مشروطة بالإيمان والعمل الصالح.

وفي الحديث الشريف (انا عند المنكسرة قلوبهم)[2] أي ان الالطاف الإلهية الخاصة تحضر عند انكسار القلب لاي سبب كان سواء من خشية الله تعالى او عند

---

(١) التوحيد للصدوق: ٢٣١، معاني الأخبار: ٤/ ح٢، بحار الانوار: ١٣٧/٦٤.

(٢) منية المريد، ص١٢٣، وفيه: (أنا عند المنكسرة قلوبهم) ودعوات الراوندي: ص٢٧٦، وفيه: روي أن داود (عليه السلام) قال: إلهي هل يذكر أحد الأموات حين درست قبورهم؟ قال: يا داود إني لم أنسهم أحياء مرزوقين، فكيف أنساهم أمواتاً مرحومين! كلما قطعت لهم إرباً غفرت لهم ذنباً وأغفر لهم بكل شعرة سقطت وبكل عظم بلي وأنا أرحم الراحمين.

التعرض لمظلومية وعدوان وغير ذلك.

٢- وسيشعر أيضاً أنه ليس مطلق السراح في اتباع شهواته ونزواته واهوائه ويفعل ما يشاء من جرائم ومنكرات وظلم للآخرين وإنما هو تحت الرقابة الإلهية التي لا تحيط فقط بظاهر الاعمال بل تنفذ إلى باطن العمل فتعلم النية والغرض، فقد يكون العمل حسناً بحسب الظاهر الا انه في حقيقته سيئ لان نية صاحبه سيئة كما لو قام به رياء او طلباً للسمعة والجاه ونحو ذلك ولم يكن يبتغي به وجه الله تعالى لان الناقد بصير وهيهات لن يخدع الله عن جنته[١] كما ورد في كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام).

وهذا الشعور يدفع العباد إلى القيام بالمزيد من الاعمال الصالحة وتخليص النيات من الشوائب وتجنب الاعمال السيئة والظلم والعدوان، فهذه الرقابة الإلهية لمصلحة الإنسان وهي توجّه بوصلة حياته نحو الخير وتضبط استقامته وليست شيئاً قسرياً مفروضاً عليه.

وهي رقابة داخلية تستقر في ضمير الانسان وتكون حاضرة اذا غابت عنه رقابة الأجهزة والقوانين الحكومية أو الأعراف الاجتماعية.

ولأهمية هذه الحقيقة فقد ورد في الحديث الشريف عن النبي (صلى الله عليه وآله) (من أفضل ايمان المرء أن يعلم أن الله تعالى معه حيث كان)[٢].

أيها الاحبّة:

لقد أرادت السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) أن ترسّخ هذه الحقيقة في

---

(١) نهج البلاغة: ١٢/٢.

(٢) سند أبي داود: ح١٥٨٢، الدر المنثور: ١٧١/٦.

قلوب وعقول الأمة لما رأت غفلة الكثيرين عنها وأن سلوكهم كان لا ينمّ عن إيمان حقيقي بها وإن اعتقدوا بها ظاهراً فخاطبت جمعهم بقولها (أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه) وقالت (عليها السلام) (فاتقوا الله حق تقاته ولا تموُّتن الا وانتم مسلمون، واطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه)[1].

وتحذّر (سلام الله عليها) من عدم الالتفات إلى هذه الحقيقة والعمل بها فقالت (لتجدنّ والله محمله ثقيلاً، وغبّه - أي عاقبته - وبيلا اذا كشف لكم الغطاء، وبان ما وراءه الضراء، وبدا لكم من ربّكم مالم تكونوا تحتسبون وخسر هناك المبطلون)[2].

من هذا نعرف الخسارة العظمى التي تحل بالإنسان حينما يغفل عن هذه الحقيقة او ينفيها او يتسافل اكثر فينكر وجود الخالق ونعرف حجم الخسارة التي تحل بالأمة حينما يروّج البعض فيها إنكار هذه الحقيقة ويدعو إلى الالحاد ونبذ الدين ونحو ذلك، لا لشيء الا لكي يطلقوا العنان لشهواتهم واتباع اهوائهم ولكي لا يؤنّبهم ضميرهم وليغطّوا على الشعور بالذنب والخطيئة ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (النمل:٥٦) فيخدعون أنفسهم بإنكار هذه الحقيقة العظمى أعني وجود الخالق فيكون حالهم كالوصف المنقول عن النعامة أنها اذا أحدق بها الخطر دفنت رأسها في التراب لكي لا تراه وتخدع نفسها بالتخلص منه.

هذا هو الدافع الحقيقي لمن يقف وراء دعوات الالحاد ونبذ الدين اما

---

(١) الاحتجاج للطبرسي: ١٢٨/١.

(٢) الاحتجاج للطبرسي: ١٣٦/١.

التابعون لهم فهم مخدوعون ببعض الشعارات والادعاءات، وإلا فإن دعاوى إنكار الخالق أو الشرك به أوهام باطلة من صنع خيالات فاسدة ولا يساعد عليها عقل ولا منطق عقلائي بل أن العقل السليم يسخر من هذه الأفكار لان أبسط جهاز أو آلة حولنا لا يمكن أن نصدّق انه وُجد بلا صانع عاقل فكيف بالكون المترامي الذي يتحرك بنسق متناهي الدقة ووفق قوانين محكمة أتاحت المجال لعلماء الفلك أن يحسبوها ويستفيدوا منها في الرحلات الفضائية.

فأحذروا أيها الأحبة من كل سبب يؤدي الى الغفلة عن الله تعالى، وحذّروا الناس من كل الدعوات التي تريد تغييب الله تعالى عن الحياة وعزله والتحلل من هذا الالتزام معه سبحانه وتعالى، واعملوا على ترسيخ حقيقة أن الله معنا لدى عموم الناس، وادعوا بالحكمة والموعظة الحسنة المتأثرين بما ينشر في مواقع التواصل لتنقذوهم من ضلالهم حتى يستشعروا هذه النعمة العظيمة والمسؤوليات تجاهها، وذلك بعد ان تتسلحوا بالعلم والمعرفة ولو على المستوى الفطري والعقلائي الذي لا يحتاج إلى دراسات معّمقة ومتخصصة.

وقد ورد في رواية [1] عن السيدة الزهراء فيمن يقوي الايمان والدين وينصر المؤمنين ويدحض شبهات المضلّين والمنحرفين ان الله تعالى يضاعف له ما اعدَّ له من المنزلة الكريمة المستحقة له في الجنان الف الف ضعف، فعلى الجميع ان لا يتقاعسوا عن نصرة الدين وهداية الناس وخدمتهم، وقد حذّرت السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) من ان حب الراحة والدعة واللامبالاة والكسل أسباب حقيقية لتضييع الحق وحذّرتهم من خذلانه فقالت (عليها السلام) (الا وقد أرى أن قد

(١) بحار الانوار: ٨/٢/ ح١٥.

اخلدتم إلى الخفض - أي الحياة المرفّهة - وأبعدتم من هو أحقّ بالبسط والقبض، وخلوتم بالدعة - أي الراحة والسكون -)[1].

وفقنا الله تعالى وإياكم لنصرة الدين وإعلاء كلمة الله رب العالمين ونشر شريعة سيد المرسلين (صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين).

(١) الاحتجاج: ١٣٣/١.

القبس/٢٠٣

سورة الحديد:﴿١٢﴾

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾

موضوع القبس: موعظة من سورة الحديد

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۞ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۞ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الحديد:١٢-١٥).

أهمية المسبحات:

سورة الحديد من السور المباركة التي كان يهتم بها رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وروي انه (صلى الله عليه وآله) كان حينما يأوي إلى فراشه للنوم يتلو سور المسبّحات[1]، وهي السور التي تبدأ بكلمات التسبيح، وأولها سورة الحديد ومعها سورة الحشر

(١) أنظر مستدرك الوسائل: ج٤/ ص٢٨٩.

والصف والجمعة والتغابن وهي في الجزء الثامن والعشرين من المصحف الشريف.

وروى العلامة الطبرسي في مجمع البيان عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (من قرأ المسبحات كلّها قبل ان ينام لم يمت حتى يدرك القائم (عليه السلام) وان مات كان في جوار رسول الله (صلى الله عليه وآله))[1].

سورة الحديد ومحاسبة النفس:

وسورة الحديد من السور النافعة في الموعظة وترقيق القلب، فإدامة تلاوتها قبل النوم يساعد على إجراء المراجعة مع النفس في نهاية كل يوم، وهي المحاسبة التي أمرنا المعصومون (عليهم السلام) بها، وقالوا في ذلك (ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم)[2] فمن يحاسب نفسه كل ليلة يكون منهم ومعهم (صلوات الله عليهم أجمعين) وهذا أحد وجوه تفسير الحديث السابق في ثواب قراءة المسبحات.

معاني الآية والموعظة منها:

ونأخذ منها اليوم مقطعاً يعطينا قاعدة في السلوك المعنوي خصوصاً لكم أيها الشباب الجامعيون ونستقي منه أيضاً درساً في الموعظة يعرض مشهداً من مشاهد يوم القيامة، ذلك اليوم المهول الذي ورد وصفه في القران الكريم بأوصاف مذهلة

---

(١) مجمع البيان: ٣٤٥/٩.

(٢) وسائل الشيعة: ١٦/ ٩٥/ باب وجوب محاسبة النفس كل يوم وملاحظتها وحمد الله على الحسنات وتدارك السيئات/ ح١.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ يستعرض المشهد مقارنة بين حالي المؤمنين والمنافقين وحواراً، اما المؤمنون والمؤمنات فانهم ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ﴾ في ذلك اليوم الذي تنكسف به الشمس وتنكدر النجوم وتكون الجبال كالقطن المنفوش وتشتد الظلمات بعضها فوق بعض، يلطف الله تعالى بالمؤمنين والمؤمنات فيوفّر لهم نوراً يسعى بهم الى الجنة والسعادة، والسعي هو السير الحثيث فهو يسرع بهم الى الجنة، ولما كان النور ينبعث منهم، فإنهم في الحقيقة هم الذين يسعون لأنهم مصدر النور، ونسب السعي إليه لأنه يتقدمهم.

﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ هذا النور ينبعث من امامهم ومن ايمانهم، ولعل الذي من امامهم هو نور الايمان وعقائدهم الحقة في التوحيد والنبوة والإمامة، لذا ورد في الكافي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن النور قال (عليه السلام) (أئمة المؤمنين يوم القيامة تسعى بين يدي المؤمنين وبإيمانهم حتى ينزلوهم منازل أهل الجنة)[1]، ولعله نور ذواتهم الطيبة المحبوبة عند الله تعالى، أما النور من يمينهم فهو نور أعمالهم الصالحة حيث يؤتى المؤمن كتابه بيمنه ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ ۞ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۞ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۞ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۞ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ (الحاقة: ١٩-٢٤).

﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وما دامت هذه عاقبتهم، فإنها بشرى حقيقية ويستحقون التهنئة

(١) الكافي: ١/١٥١/ ح٥.

على هذا الفوز العظيم وما أعظمه من فوز ومن خاتمة حسنة في تلك الحياة الخالدة.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ هذه هي الصورة المقابلة للبائسين الخاسرين من المنافقين والمنافقات فإنهم في ظلمات وخوف ورعب وعذاب وألم، فالتفتوا إلى المؤمنين والمؤمنات وهم في ذلك العيش الرغيد وطلبوا منهم أن يلتفتوا إليهم ويسعفوهم بقبس من النور يخفّف عنهم بعض الأهوال.

﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾، فجاءهم الجواب إنّ الفرصة قد فاتت الآن لتحصيل النور لأنّه حصيلة أعمالكم الّتي اكتسبتموها في الدنيا، فكان عليكم أن تلتفتوا إلى هذه الحقيقة في الدنيا فتؤمنوا وتعملوا الصالحات لتتحول إلى نور في هذا اليوم، فإن استطعتم أن ترجعوا إلى الدنيا لتحصيل النور، وذلك مستحيل ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ (ص:٣).

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾، ففصل بينهم بجدار عازل كما كانوا في الدنيا منفصلين ومتباينين في سلوكهم واعتقاداتهم ونظرتهم إلى الحياة، وإن كانوا متعايشين في مجتمع واحد وبيئة واحدة فجُسِّدَت تلك المباينة بسور عازل (له باب) لينظر بعضهم إلى بعض من خلاله وليجري بينهم هذا الحديث وليقارن كل من الفريقين حاله مع حال الآخر فيزداد المؤمنون والمؤمنات شكراً لله تعالى على ما انعم، والمنافقون والمنافقات ألماً وحسرة وندامة على ما فرطوا في أمر آخرتهم.

﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾، صفة هذا السور أن ما بداخله الرحمة والسعادة والعيش الهنيء وهو محل المؤمنين، أما خارجه فالعذاب والوحشة والخوف والألم وهو محل المنافقين والمنافقات، ومثاله المدن في ذلك الزمان عندما كانت تحاط بسور متين يحميها من هجمات الأعداء واللصوص والمحتلين والمجرمين، فتجد داخل المدينة البيوت المريحة والشوارع المنظّمة والأسواق العامرة والمياه العذبة وسائر أسباب الرفاهية، أما خارجها فالصحراء والوحشة والمخاطر والجوع والظمأ والخوف، وهذا مثال حال يوم القيامة.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، وحينئذ نادى المنافقون والمنافقات المؤمنين والمؤمنات، وعبَّر بالمناداة وليس (قالوا) ونحوها للبينونة البعيدة بينهما ولم تكن مواضعهم متقاربة، فخاطب المنافقون المؤمنين الذين يعرفونهم ألم نكن معكم في مدينة واحدة وجامعة واحدة ودائرة واحدة ومجتمع واحد بل ربما في بيت واحد كنا نعيش سوية فلماذا حصل هذا التفاوت العظيم بيننا.

ويظهر من بعض الروايات ان المراد بهم المنحرفون عن ولاية أهل البيت(عليهم السلام)، عن الإمام الباقر (عليه السلام) (فيناديكم أعداؤنا وأعداؤكم من الباب الذي في السور ظاهره العذاب: ألم نكن معكم في الدنيا، نبيّنا ونبيّكم واحد، وصلاتنا وصلاتكم واحدة، وصومنا وصومكم واحد، وحجُّنا وحجُّكم واحد)[1].

﴿قَالُوا بَلَى﴾ فأجاب المؤمنون نعم كنّا هكذا سوية بأبداننا لكن أرواحنا وعقائدنا وسلوكياتنا كانت متباعدة ومتباينة، ولنضرب مثالاً من واقعكم أنتم

(١) تفسير البرهان: ٩/ ٢٢٥.

الشباب الجامعي فأنتم الموجودون هنا تأتون إلى زيارة أمير المؤمنين (عليه السلام) والإمام الحسين (عليه السلام) وتستمعون إلى المواعظ والتوجيهات بينما ذهب آخرون من زملائكم إلى حيث اللّهو والعبث والمجون، فيوجد انفصال بينكم في السلوك والرؤى وهذا هو الذي جسّد هذا التفاوت بيننا يوم القيامة.

﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ ومن هنا يبدأ تعداد الأسباب التي جعلت مساراتنا في الحياة الدنيا متباينة، انكم فتنتم أنفسكم واتبعتم الشهوات وسرتم وراء أهوائكم من دون بصيرة وتعقل واتباع لشرائع الله تعالى.

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ إذ كنتم تترقبون زوال الدين والقضاء على أهله وإسكات صوت الحق الذي كان يقض مضاجعكم ويسبب لكم ألماً باطنياً ووخز الضمير.

﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ حيث كنتم تشككون بالعقائد والأحكام الإلهية وتثيرون الشكوك والشبهات حولها لتجعلوا لأنفسكم مبررات لعدم الالتزام بها، وتفاقم ارتيابكم ليشمل حتى أقدس المقدسات كما نسمع اليوم من بعض أدعياء الحداثة تشكيكات في أصل نبوة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وكون القرآن نازلاً من الله وهم مسلمون!!!

﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ خدعتكم وعود الشيطان وأوليائه وعبيده بدنيا مزيّفة وأموال ومواقع وشهوات ونحوها.

﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ حتى فاجأكم الموت وطويت صفحة أعمالكم وانقطعت عنكم فرصة التدارك والتعويض والإصلاح والمراجعة.

﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ ونجح الشيطان بخداعكم والمكر والتغرير بكم وأنتم تتحملون المسؤولية باتّباعكم إيّاه رغم التحذير الشديد من قبل الله تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً﴾ (الإسراء:٥٣) ﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (البقرة:١٦٨).

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، وكانت هذه النتيجة الحتمية لسوء أعمالهم أن يجتمعوا مع الكفّار في النار والعذاب الأليم لأنها هي الأولى بهم والأليق لخبثهم حتّى تطهرهم النار وتزيل أدرانهم.

وهنا يلتفت الله تعالى إلى المؤمنين والمؤمنات ويخاطبهم بعتاب رقيق وتساؤل ملؤه الحنان والشفقة بأن يستفيدوا من هذه المواعظ ويطهروا بها قلوبهم ويهذّبوا أنفسهم، وإلا فإنها تقسو وتسوَّد بطول الأعراض عن الموعظة وذكر الله تعالى والانغماس في الملذات واللهاث من أجل التوسع في الدنيا، حتى يطبع عليها فلا تنفع معها موعظة والعياذ بالله تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد:١٦).

قدّمت لكم هذا النموذج مما أدعو إليه من التفسير المبسّط للقرآن الكريم الذي يعيننا على التدبّر في آياته من دون الحاجة إلى الكتب المعمّقة في التفسير.

قاعدة مهمة في السير الى الله تعالى:

وأريد أن أركّز من خلاله على الوصف الذي ورد في المقطع ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ

الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ فهذه قاعدة مهمة في السلوك المعنوي إلى الله تعالى، وهي الالتفات إلى حقائق الأمور لاتخاذ المواقف الصحيحة، وعدم الانخداع بالظاهر وبناء القرارات عليه.

فإن كثيراً من الأفعال والمواقف تبدو في ظاهرها لذيذة ممتعة إلا أنّها تستبطن الشقاء والعذاب والألم، وعلى العكس من ذلك فإن بعضاً آخر منها يبدو ظاهره متعباً مكروهاً إلا أن حقيقته السعادة والنعيم، لذا ورد في الحديث (حُفّت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات)[1].

أمثلة للشباب:

ولنأخذ أمثلة من واقعكم الشبابي الجامعي، فإن البعض قد يتصور ان إقامة علاقات غير مشروعة مع الجنس الآخر فيها لذة ومتعة وسعادة ولكن الحقيقة خلاف ذلك لأن المجتمع سيرفضهما خصوصاً البنت وسيؤثر ذلك على مستقبلها وتسبّب تلك العلاقة شقائها، وربما بعض ردود الأفعال المؤلمة، هذا في الدنيا أما ما بعد الموت وفي الآخرة فسيعيشون حالة الألم والندامة والعذاب.

والمثال الآخر بعض الشباب المهووسين بالسفر إلى بلاد الغرب ليعيش حياة مرفهة سعيدة لكنه يضيّع دينه وأسرته وتكون زوجته وأولاده متمردين عليه وخارجين عن إرادته بسبب القوانين المعمول بها هناك.

ومن أمثلتها من يلتحق بجهة سياسية أو دينية أو اجتماعية من دون أن يتحقق من إخلاصها واستقامة سيرتها ومصداقيتها في العمل بما يرضي الله تعالى،

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٨/ ص٧٢.

يغرونه بمواقع النفوذ وتحصيل المال والامتيازات فتزل قدمه ويبتعد عن جادة الاستقامة وتكون عاقبته زلل قدمه عن الصراط.

فهذه كلها امور ظاهرها أنيق وفيها الراحة والدعة والترف والانسياق مع التيار العام إلا أن عاقبتها وخيمة.

وفي مقابل ذلك توجد نماذج أخرى كتعرض الفتاة الجامعية المحجّبةالعفيفة إلى ضغط اجتماعي بأن مظهرها غير أنيق وانها متخلفة أو معقدة ونحوها من الأوصاف الاستفزازية.

وكذا الشاب الذي يلتزم بالمظهر المهذّب أو يلتزم بالآداب والأحكام الشرعية فيضغط عليه بنفس الطريقة ليستسلم وينهار وينساق معهم، وربما يتبارى زملاؤه الفسّاق في استدراجه معهم وإنهاء مقاومته.

أو الموظّف الأمين الملتزم الذي لا يخون الأمانة التي تحت يده فإنه يعاني من استفزاز أقرانه وانه سوف لا يستطيع أن يعيش كأقرانه ويبقى في الحضيض ولا يتقدم، وما ذلك إلا لحسدهم إياه على سمّوه وعجزهم وضعفهم عن الوصول إلى قمّته.

أو محاولة البعض لثني الملتزمين بالدين – كالصوم في الأيام الحارة أو القيام في الليل البارد للعبادة ونحوها- عن عمله وإيجاد المبررات لترك العمل.

فهذه كلها أمور قد تبدو مكلفة ومتعبة وتحتاج إلى صبر ومصابرة وتحمّل للمكاره، إلا أن فيها الفوز والفلاح وحسن الخاتمة.

الاختبار مستمر في الدنيا:

وهذا الاختبار مستمر ما دمنا في الحياة الدنيا، والنجاح فيه يكشف عن الفوز في الآخرة، وستتجلى هذه الحقيقة بوضوح في عصر الظهور، ففي الرواية (يخرج الدجال عدو الله ومعه جنود من اليهود وأصناف الناس، معه جنة ونار ورجال يقتلهم ثم يحييهم، ومعه جبل من ثريد ونهر من ماء. وإني سأنعت لكم نعته إنه يخرج ممسوح العين في جبهته مكتوب كافر يقرأه كل من يحسن الكتاب ومن لا يحسن، فجنته نار وناره جنة، وهو المسيح الكذاب، ويتبعه من نساء اليهود ثلاثة عشر آلاف امرأة فرحم الله رجلا منع سفيهه أن يتبعه، والقوة عليه يومئذ القرآن فإن شانه بلاء شديد، يبعث الله الشياطين من مشارق الأرض ومغاربها فيقولون له استعن بنا على ما شئت)[1].

فالالتفات إلى القاعدة التي ذكرناها يعين على النجاح في تلك الاختبارات وبناء مستقبل معنوي متكامل بلطف الله تبارك وتعالى، وإنما سميناها قاعدة لأنها تعطي رؤية تبرمج حياة الإنسان وتنظم أموره والله المستعان.

---

(١) الدر المنثور: ج٥/ ص٣٥٤.

القبس/٢٠٤

سورة المجادلة:﴿٦﴾

﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾

موضوع القبس: ذنوبٌ قلما نلتفت إليها

قال الله تبارك وتعالى ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المجادلة:﴿٦﴾).

الناس بكل مستوياتهم ودرجاتهم في التكامل او التسافل سيبعثهم الله تعالى يوم القيامة ويخبرهم بأعمالهم تفصيلاً كما هي، وسيفاجأون لأنهم كانوا غافلين عما يصدر منهم من قول او فعل ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق:﴿٢٢﴾) وكانوا لا يراقبون الله تعالى في افعالهم فوقعوا فيما وقعوا فيه.

لكن الله تعالى احصاه لأنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (الحج:﴿١٧﴾) ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ (فصلت:﴿٥٤﴾)، وتؤكد الآية التالية هذه الشهادة وهذه الإحاطة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة:﴿٧﴾)، وله شهود من نفس الانسان ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ

وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النور:٢٤)، هذا غير الملائكة التي تسجل افعال العباد وبقاع الأرض تشهد على ما جرى عليها وغير ذلك.

وفي الآية طمأنة لمن عمل الطاعات بانها لا تضيع وأنها بعين الله تعالى ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف:٣٠) وتحذير لمن عمل المعاصي بانها مسجلة عليه ويحاسب عليها ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة:٧-٨).

هذه هي الحالة العامة للناس، وقد تخفى بعض الذنوب حتى على المراقبين والملتفتين ونتحدث الان عن حالة وردت في أدعية الصحيفة السجادية وهي إلفات نظر العبد إلى ذنوبٍ يغفل عنها تماماً، فقد يرضى البعض عن نفسه، ويعتقد أنه على خير ما دام قد أدّى الواجبات الرئيسية كالصلوات المفروضة وصيام شهر رمضان ودفع ما بذمته من خمس ونحوه من الحقوق الشرعية، وما دام قد اجتنب المحرّمات الرئيسية كالزنا وشرب الخمر واللواط والسرقة والقتل بغير حق ونحوها.

وهو لعمري خيرٌ كثير أن يلتزم العبد بذلك، لكن حالة الرضا عن النفس حالة غير صحيحة لأنّ أموراً أخرى كثيرة لا يلتفت إليها الإنسان، لكنّها مؤثرة في ميزان أعماله، وقد تقلب هذا الميزان رأساً على عقب باتجاه الفوز أو باتجاه السقوط والعياذ بالله تعالى.

وكلامنا في الحالة الثانية إذ قد يظنّ الإنسان أنه على خير، ولا يعلم ما سوّد به صحائفه، ولا يلتفت إليها أصلاً إمّا لغفلته، أو لجهله بأنّ هذه ذنوب، أو انّه يعلم ذلك ولكنه يتساهل فيها ويقلّل من شأنها وتأثيرها، ولذا ورد في الحديث الشريف

عن الإمام الصادق (عليه السلام) التحذير من المحقّرات من الذنوب قال (عليه السلام): (اتقوا المحقرات من الذنوب فإنّها لا تغفر، قلت: وما المحقرات؟ قال: الرجل يذنب الذنب فيقول: طوبى لي إن لم يكن لي غير ذلك)[1].

وأعطى رسول الله (صلى الله عليه وآله) درساً عملياً في ذلك التأثير لأصحابه كما في الرواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) نزل بأرض قرعاء، فقال لأصحابه: ائتوا بحطب، فقالوا: يا رسول الله، نحن بأرض قرعاء! قال: فليأت كلّ إنسان بما قدر عليه. فجاؤوا به حتّى رموا بين يديه، بعضه على بعض، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله). هكذا تجمع الذنوب، ثمّ قال: إيّاكم والمحقّرات من الذنوب، فإنّ لكلّ شيء طالباً، ألا وإنّ طالبها يكتب ﴿مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (يس:(١٢))).

أقول: هكذا تجتمع الذنوب التي يستصغرها صاحبها ويقدم عليها بلا اكتراث وتترك آثارها عليه حتّى تطبع على قلبه فتورده النار والعياذ بالله.

حُكيَ أنّ أحد التجّار كان يصنع القماش ليبيعه فيعاد عليه لعيب يوجد فيه، ففرّغ نفسه مدة وأتقن صنع القماش لكيلا يرد عليه، وباعه بعد أن تأكّد من سلامته من العيوب، وما لبث أن رجع إليه المشتري وأخبره بعيوب قماشه، فجلس التاجر يبكي والمشتري يطيّب خاطره ويقول له سأقبل القماش ولا أرجعه فلا تتأثّر، لكن التاجر (الواعي) قال: ما لإرجاع القماش أبكي، ولكن أبكي لأعمالي إذا عُرضت

(١) وما بعده، وسائل الشيعة كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس، باب ٤٣، ح١وح٣.

على الناقد البصير، كم سيجد فيها من العيوب، وكيف سيردّها عليّ، وما موقفي غداً، إذا كان المخلوق القاصرُ يجد كل هذه العيوب في قماش أتقنت صُنعه.

وقد يبقى الإنسان على غفلته ولا يلتفت منها حتى يأتيه الموت ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق:٢٢) وقال تعالى ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المجادلة:٦) وقال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ (الأنعام:٦٠).

وقد ذكرنا آنفاً أسباب هذه الحالة، أمّا علاجها فيمكن أن يكون بعدّة إجراءات وردت في الأحاديث الشريفة منها:

١-الإستغفار المستمر وطلب التوبة مما يعلم ومما لا يعلم من الذنوب، وقد وردت دعوات كثيرة يومية للاستغفار في تعقيبات الفرائض اليومية وفي صلاة الليل.

٢-أداء الصلاة في أوقاتها لأنّها كفّارة لما بينها ولأن فيها تذكيراً بالله تعالى وعودة إليه ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه:١٤) وفي الرواية عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لو كان على باب دار أحدكم نهر فاغتسل في كلّ يوم منه خمس مرّات، أكان يبقى في جسده من الدرن شيء؟ قلنا: لا، قال: فإنّ مثل الصلاة كمثل النهر الجاري، كلّما صلّى صلاة كفّرت ما بينهما من الذنوب)[1].

(١) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب اعداد الفرائض ونوافلها، باب٢ ح٣.

٣-الإكثار من الطاعات لأن الحسنات يذهبن السيئات، قال تعالى ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٤) وقال تعالى ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ (الفرقان:٧٠).

٤-تجنّب الغفلة لأنّها الأصل في الوقوع بالمعاصي.

٥-محاسبة النفس يومياً، لأن المحاسبة والتدقيق والمراجعة تكشف أموراً يغفل عنها لو لم يُجرِ هذه المحاسبة، وهذا معلوم بالتجربة لرجال الأعمال، وفي وصية النبي (صلى الله عليه وآله) لأبي ذر (يا أبا ذر لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الشريك شريكه)[1] وعن الإمام الكاظم (عليه السلام) قال: (ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل حسنا استزاد الله، وإن عمل سيئا استغفر الله منه وتاب إليه)[2].

٦-مطالعة كتب الأخلاق والموعظة، وزيادة المعرفة بالله تعالى لأنّها أصل الدين وأساسه.

٧-مجالسة الصالحين والتردد على المساجد والمشاهد الشريفة.

٨-الاعتراف أمام الله بالتقصير وكثرة الذنوب مما نعجز عن عدّه وإيكال الأمر إلى عفوه ومغفرته وصفحه وإحسانه وكرمه.

---

(١) وسائل الشيعة (آل البيت): ١٦/ ٩٨/ ح٧.

(٢) وسائل الشيعة: ١٦/ ٩٥.

وكما أنّ الحسنات يذهبن السيئات، فإنّ بعض السيئات تُذهب الحسنات وتُحرقها، ففي كتاب الأمالي[1] للشيخ الصدوق (قُدِّسَ سِرُّهُ) بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): من قال سبحان الله غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال لا إله إلا الله غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال الله أكبر غرس الله له بها شجرة في الجنة، فقال رجلٌ من قريش يا رسول الله إنّ شجرنا في الجنة لكثير، قال نعم ولكن إيّاكم أن تُرسلوا عليها نيراناً فتحرقوها، وذلك إنّ الله عزّ وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد:٣٣) ومن تلك النيران المناسبة للرجل من قريش إنكار ولاية علي بن أبي طالب (عليه السلام) وبقرينة الآية التي استدل بها رسول الله (صلى الله عليه وآله) الآمرة بطاعة الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله)، ومن تلك الذنوب الغيبة فعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الآكلة في جوفه)[2].

وأنقل لكم نصاً من الصحيفة السجادية يلفت نظرنا إلى ذنوب نغفل عنها وهي تتعلق بالعلاقات مع الآخرين، ولك أن تقيس عليها غيرها مما لا يعلمه إلاّ الله تبارك وتعالى، قال (عليه السلام) في الاعتذار من تبعات العباد ومن التقصير في حقوقهم: (اللهم إنّي اعتذر إليك من مظلوم ظُلم بحضرتي فلم أنصره، ومن معروف أسدي إليّ فلم أشكره، ومن مسيءٍ اعتذر إليّ فلم أعذره، ومن ذي فاقة سألني فلم أوثره.

---

(١) أوردها عنه في البحار: ٩٣/ ١٦٨.

(٢) أصول الكافي، ج٢، باب الغيبة والبهتان، ح١، وفي القاموس المحيط: أنّ الآكلة داء في العضو يأتكل منه.

ومن حقّ ذي حقٍ لزمني فلم أوّفره، ومن عيب مؤمن ظهر لي فلم أستره، ومن كل إثم عرض لي فلم أهجره)[١]، فالسيئات لا تقتصر على ما صدر منه من أمثالها، بل على ما فوّت مما ينبغي فعله، فلا ينشغل الإنسان بالنظر إلى ما قدّم من طاعة أو معروف بين الناس، بل إلى ما كان يجب عليه فعله ولم يفعله. كالشخص يفرح بما أنفق في سبيل الله، ويغفل عن مورد قصده فيه صاحب حاجة وكان قادراً على قضائها فلم يفعل، ووردت في ذلك روايات شديدة كالذي روي عن أبي الحسن(عليه السلام) قال: (من أتاه أخوه المؤمن في حاجة فإنّما هي رحمة من الله تبارك وتعالى ساقها إليه، فإن قبل ذلك فقد وصله بولايتنا وهو موصول بولاية الله وإن ردّه عن حاجته وهو يقدر على قضائها سلّط الله عليه شجاعاً من نار ينهشه في قبره إلى يوم القيامة مغفوراً له أو مُعذّباً فإن عذره الطالب[٢] كان أسوأ حالاً)[٣].

فهذا شكل من السيئات يخفى على الإنسان، مضافاً إلى ما صدر منه فعلاً، ومن دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) ليوم الإثنين (وأسألك في مظالم عبادك عندي، فأيّما عبد من عبيدك أو أمةٍ من إمائك كانت له قبلي مظلمة ظلمتها إياه في نفسه أو في عرضه أو في ماله أو في أهله وَولده، أو غيبةٌ اغتبته بها، أو تحامل عليه بميل أو هوى، أو أنفة أو حميّة أو رياء أو عصبية، غائباً كان أو شاهداً، وحيّا كان أو

---

(١) الصحيفة السجادية (ابطحي): ١٨٧.

(٢) أي طال الحاجة فانه اذا عذر المقصود بقضائها كان أبلغ بالحجة عليه، وقيل في وجهه إنه إذا عذره صاحبها لم يندم ولم يتب ولم يستغفر، بل ظن عدم تقصيره في حق الطالب فاجترأ على منع غيره.

(٣) وسائل الشيعة: كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب فعل المعروف، باب ٢٥، ح٩.

ميتاً، فقصرت يدي، وضاق وسعي عن ردّها إليه، والتحلل منه، فأسألك يا من يملك الحاجات وهي مستجيبة لمشيئته، ومسرعة إلى إرادته، أن تصلّي على محمد وآل محمد وأن ترضيه عني بما شئت، وتهب لي من عندك رحمة)[1].

وفي ضوء هذه الحقيقة التي لا يلتفت إليها إلاّ الأقلّون، يمكن أن نفهم ما ورد في الحديث الشريف عن النبي (ﷺ) قال: (لم يُعبدِ الله عز وجل بشيء أفضل من العقل، ولا يكون المؤمن عاقلاً حتى يجتمع فيه عشر خصال) إلى أن قال (ﷺ) (والعاشرة وما العاشرة لا يرى أحداً إلا قال هو خير مني وأتقى)[2] وقد شرحت بعض فقرات الحديث في محاضرة سابقة[3].

نسأل الله تعالى أن ينبّهنا من نومة الغافلين المُبعدين بعفوه وكرمه.

---

(١) مفاتيح الجنان: ٥١.

(٢) الخصال- الشيخ الصدوق: ٢/ ٤٣٣/ ح١٧.

(٣) راجع: قبس قوله تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح:٢)، في تفسير من نور القرآن.

ملحق: كيفية الاعتصام من الذنوب

سألني أحدكم أن أتحدث عن كيفية المحافظة على حالة التوبة، والاعتصام من الذنوب التي يتوجه إليها الإنسان في يوم عرفة، يوم الدعاء وطلب التوبة، وقد ذكّرني سؤاله بفقرة، وردت في أحد أدعية شهر رجب وهي: (وَاعْصِمْنا مِنَ الذُّنُوب خَيْرَ العِصَمِ)[1]، وهذا يعني وجود أشكال عديدة من العواصم عن الذنوب، بعضها، خير من بعض.

وهو معنىً صحيح، إذا التفتنا إلى أنَّ من العواصم أن يفقد الإنسان النعمة التي يرتكب بها الذنب، كفقد نعمة البصر فيتخلص من النظرة المحرمة، أو يفقد الإحساس بالشهوة الجنسية، التي هي نعمة أودعها الله تبارك وتعالى في الإنسان ليدفعه نحو الزواج والإنجاب، ولولاها لما أقدم البعض على تحمل مسؤولية الأسرة، والأطفال، ومشاق التربية، والرعاية، فإذا فقد هذه النعمة فستزول تلقائياً فرصة ارتكاب جريمة الزنا والعياذ بالله تعالى.

لكن الإنسان لا يريد بالتأكيد هذه الطريقة من الاعتصام من الذنوب؛ لأنه يدعو الله تبارك وتعالى أن يمتعه بالعافية، وبحواسه من السمع والبصر وغيرهما، (اللهم متعني بسمعي وبصري، واجعلهما الوارثين مني...)[2].

---

(١) وهو الدعاء الوارد عن الإمام المهدي (عجل الله فرجه الشريف) بواسطة سفيره محمد بن عثمان بن سعيد وأوله (اللّهُمَّ إِنّي أَسْأَلُكَ بِمَعانِي...). مصباح المتهجد- الشيخ الطوسي: ٨٠٣- مفاتيح الجنان- عباس القمي: ١٨٣.

(٢) بحار الأنوار- المجلسي: ٨٣/ ١٣٠.

ومع ذلك قد تكون هذه الطريقة؛ هي ما يختارها الله تبارك وتعالى لبعض عباده، يُحكى أن أبا بصير - وهو مكفوف- دخل على الإمام الصادق (عليه السلام)، وسأله أن يدعو الله تبارك وتعالى ليرفع عنه البلاء، ويعيد إليه بصره، فدعا الإمام (عليه السلام) له فردّ الله تعالى بصره، وصار يبصر، وفرح بذلك، فقال له الإمام (عليه السلام)، إن شئت مضيت على حالتك الجديدة هذه وتحاسب يوم القيامة كما يحاسب الخلق، أو ترجع إلى حالتك الأولى وتدخل الجنة بغير حساب، فاختار أن يعود إلى حالته الأولى ليضمن له الإمام (عليه السلام) الجنة.

وعلى أي حال فهذا شكل من أشكال الاعتصام من الذنوب، ومن الأشكال الأخرى: أن يكون للإنسان رادع من نفسه عن الذنوب، أما حياءً من الله تعالى لما انعم عليه من النعم التي لا تعد ولا تحصى، أو خوفاً منه عز وجل، أو خشية الفضيحة، والعار، خصوصاً يوم القيامة، عندما تعرض الأعمال أمام الأشهاد، وتبدو السرائر، - نسأل الله تعالى عفوه وستره-، وهذا الرادع يؤتاه الإنسان؛ بفضل الله تبارك وتعالى؛ حينما يخلص لله تعالى، ويكون صادقاً معه، ففي الحديث الشريف (إذا أراد الله تعالى بعبد خيراً، جعل له واعظا من نفسه، يأمره، وينهاه)[1].

ومن العواصم عن الذنوب: ذكر الله تعالى على كل حال، والتفات الإنسان إلى أنه دوماً في محضر ربّه، وإن ربّه مطّلع عليه، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت:٥٣)، ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٨)، ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا﴾ (الكهف:٤٩)،

(١) كنز العمال- المتقي الهندي: ١١/ ٩٥.

فمع حالة الالتفات هذه، لا يُقدم الإنسان على الذنب، وإلا كان مستخفاً بربه، وإنما يرتكب الذنب بغفلة، وجهالة، فإذا التفت، وتذكّر، ندم، وتاب ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:٢٠١).

ومن العواصم: أن يلتفت الإنسان إلى قبح الذنب، ونتن صورته الواقعية التي تُدرك بالبصيرة لا بالبصر، كما ورد في القرآن الكريم من تصوير الغيبة بأكل لحم الأخ ميتاً؛ وهي صورة مقززة تنفر منها النفوس، وكتصوير الدنيا في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) بالجيفة لميتة الحيوان، وحولها الكلاب تنهشها، وتقطعها، فمن يرضى أن يشارك الكلاب في هذه الجيفة، أو تصوير أكل الحرام بأنهم ﴿يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ (النساء:١٠)، أو تصوير حبس الحقوق الشرعية والبخل بها بأنها ﴿يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة:٣٥)، وغيرها من الصور المرعبة التي وردت في الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، فكيف يُقدم عليها الإنسان بعد معرفته بحقيقتها؟

ومن العواصم أن يبتعد عن البيئة المساعدة لارتكاب الذنوب، كمجالس البطالين والفسقة، ويتواجد في البيئة المحفزة على الطاعة كالمساجد، والمشاهد المقدسة، ومجالس الذكر، والشعائر الدينية. ولا أقل من أن يشغل الإنسان نفسه بالمباحات، والأعمال الأخرى، فضلاً عن الطاعات، كالدراسة، ومطالعة الكتب، واللقاء مع الإخوان، وحينئذٍ لا يبقى مجال ولا فرصة للمعصية، والذنب؛ لأن من أسباب ارتكابها الفراغ، قال الشاعر:

إن الشباب والفراغ والجِدَة مفسدة للمرء أي مفسدة[١]

ومن العواصم ما ورد في كلمة امير المؤمنين (عليه السلام) (من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته)[٢]ومعرفة قيمة النفس سبب لاجتناب المعاصي.

يعلّمنا أمير المؤمنين (عليه السلام) بهذه الكلمة القصيرة طريقة للتخلص من الوقوع في المعاصي، لأن سبب ارتكاب الذنوب مع معرفة خطرها في الدنيا وعقوبتها في الآخرة هو اتباع الشهوات، فالشهوة الجنسية تدفعه إلى النظرة المحرّمة والعلاقة غير المشروعة بكل مستوياتها، والشهوة الغضبية تدفعه إلى الظلم والعدوان على الآخرين، وشهوة المال تدفعه إلى الكسب غير المشروع والاستيلاء على أموال الآخرين، والانانية تدعوه الى انتقاص الآخرين وغيبتهم والتكبّر وحب الجاه والسمعة ونحو ذلك، وفي هذا المعنى كلمة قصيرة أخرى لأمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (من كساه الحياء ثوبه، لم ير الناس عيبه)[٣].

وعلاج هذا الاندفاع وراء الشهوات لا يكون باستئصالها وازالتها لأنها غرائز أودّعها الله تعالى في الانسان لتؤدي غرضاً ايجابياً مثمراً، فالشهوة الجنسية لحثه على الزواج والانجاب حتى تتكاثر البشرية وتنمو وبدون هذا الدافع القوي لا يسعى الشخص الى تحمل مسؤوليات الزواج والاسرة واعبائها، واودعت الشهوة الغضبية ليدافع عن المقدسات ويواجه من ينتهك الحرمات ونحو ذلك.

---

(١) يُنسب هذا البيت الى أبي العتاهية. أنظر: سير أعلام النبلاء- الذهبي: ١٠/ ١٩٦.

(٢) نهج البلاغة: الحكم، الحكمة ٤٤٦.

(٣) نهج البلاغة: الحكم، الحكمة ٢٢٠.

فالعلاج إذن في ضبط هذه الشهوات وجعلها تحت السيطرة لتتحرك نحو الهدف الإيجابي فقط وتؤدي غرضها المنشود، وفي هذه الكلمة القصيرة لأمير المؤمنين (عليه السلام) يلفت نظرنا إلى ما يساعدنا على عملية الضبط هذه من خلال التفات الانسان إلى أهمية نفسه وقيمتها الكبرى فانها نفخة الهية في جسد الانسان ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ (الحجر:٢٩) لينال بها الجنان والحياة الكريمة في ظل رحمة الله تعالى ولا يقبل لها ثمناً غير هذا فانه بذلك يحفظ قيمتها وكرامتها، اما من يتبع شهواته ويرتكب الذنوب والمعاصي فانه يهينها ويحتقرها ويهدر قيمتها الثمينة، ويكتسب بها النيران بدل الجنان ويضيّع عليه هذا الرأسمال العظيم، ولا اعتقد أن عاقلاً يقبل بأن يجلب بماله على نفسه الجحيم بدل الفوز بالنعيم.

علماً بأن التجربة لا تتكرر ومن يموت لا يرجع الى الحياة مرة أخرى ليصحح اخطاءه، وهذا المعنى ورد في حديث للإمام الصادق (عليه السلام) قال: (اتقوا الله وانظروا لأنفسكم، فإن أحقّ من نظر اليها أنتم، لو كان لاحدكم نفسان فقدم احداهما وجرّب بها استقبل التوبة بالأخرى ولكنها نفس واحدة اذا ذهبت فقد والله ذهبت التوبة)[١].

وفي الرواية الأخرى تكملة (فأنتم أحق أن تختاروا لأنفسكم)[٢].

فلا تغرنكم بعض الدعوات الخادعة باسم الحرية أو المجتمع المدني أو حقوق المرأة ونحو ذلك والتي تهدف الى تحويل الانسان إلى عبد للشهوات والغرائز فان فيها امتهاناً لكرامة الانسان وحط قيمته وربما يسعون الى سن قوانين

(١) وسائل الشيعة: ٥٣/١٥ أبواب جهاد العدو، باب ١٣، ح ١٠.

(٢) وسائل الشيعة (آل البيت): ١٥/ ٥٠/ ح ١.

لشرعنة ذلك كبعض المواد التي تضمنها قانون العنف الأسري المقدَّم إلى البرلمان.

ولله تبارك وتعالى مع أوليائه حالات من العصمة عن الذنوب لا يعرفها إلا أهلها، ولا يُنال كل ذلك إلا بالاعتصام بالله تعالى، والتوسل إليه بطلب التسديد، كما ورد في الدعاء (اللّهُمَّ ارْزُقْنا تَوْفِيقَ الطَّاعَةِ وَبُعْدَ المَعْصِيَةِ)[1].

(١) المصباح – الكفعمي: ٢٨٠.- مفاتيح الجنان- عباس القمي: ١٦٣.

القبس/٢٠٥

سورة الحشر:﴿٢﴾

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الْأَبْصَارِ﴾

موضوع القبس: أسباب انهيار الحضارات والدول

سورة الحشر جليلة القدر ووردت بعض الروايات في فضلها والثواب العظيم في تلاوتها، كالمروي عن رسول الله (ﷺ) (من قرأ سورة الحشر لم يبق جنة ولا نار ولا عرش ولا كرسي ولا الحجب والسماوات السبع ولا الأرضون السبع والهواء والريح والطير والشجر والجبال والشمس والقمر والملائكة إلا صلوا عليه واستغفروا له، وإن مات في يومه أو في ليلته مات شهيداً)[1]، وقوله (ﷺ): (مَن قرأ هذه السورة كان من حزب الله المفلحين، ولم يبق جنة ولا نار ولا عرش ولا كرسي.. الحديث)[2].

وهي تحكي تفاصيل غزوة بني النَضير وهم إحدى قبائل اليهود الثلاث الذين سكنوا حول المدينة ترقباً للنبي الموعود الذي تكون دولته في أرض يثرب فأرادوها لهم. وقد وقعت في ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة أي بعد معركة أُحُد بستة أشهر، وكان النبي (ﷺ) قد عقد معاهدة سلام وحسن جوار مع اليهود

(١) وسائل الشيعة: ٦/ ٢٥٧، أبواب قراءة القرآن ولو في غير الصلاة، باب٥١، ح٣١، ثواب الأعمال: ١١٨.

(٢) البرهان في تفسير القرآن، للسيد هاشم البحراني: ٥/ ٣٣١، تفسير سورة الحشر.

عند نزوله المدينة، وكفل لهم حقوقهم لكن بني النَضير نقضوا العهد وتحالف وفدٌ منهم برئاسة زعيمهم كعب بن الأشرف مع قريش لمناصرتهم عند هجومهم على المدينة، فأخبر الله تعالى نبيّه بهذا الحلف، ثم إنهم تآمروا على قتل النبي (ﷺ) حين قصدهم مع جمع من أصحابه طالباً المساعدة في دفع دية قتيلين من بني عامر وهم حلفاء بني النَضير كان أحد المسلمين قد قتلهما اشتباهاً، فصعد أحدهم إلى سطح دار كان النبي (ﷺ) يستند إلى جدارها ومعه حجر كبير ليقتل به رسول الله (ﷺ)، فأعلمه الله تعالى بعزم القوم فعاد النبي (ﷺ) إلى المدينة فوراً وأرسل وفداً إليهم يأمرهم بالجلاء عن المدينة فلم يكترثوا وأجابوه بالتحدي والحرب، فأمر أصحابه بالاستعداد لتأديب بني النضير الذين ظنوا أن لا أحد يقدر على غلبتهم وإخراجهم من أرضهم لقوتهم المادية والعددية فاغتروا بها وغفلوا عن قدرة الله تعالى على فعل ما يريد سبحانه بجنود لا يرونهم وهذا هو تفكير القوى المادية وهو قائم إلى اليوم، فتحصّنوا بقلاعهم ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ (الحشر:٢) فلم يتوقع أحد منهم ولا من المسلمين هزيمتهم بهذه السهولة، لكنَّ الله تعالى شاء ذلك وفعل وأجرى إرادته بأيديهم جلّت قدرته، وأغراهم انهزام المسلمين في معركة أحد فظنوا أنهم قادرون على المواجهة، وخدعهم منافقو المدينة بأننا سننصركم ونقاتل معكم إن حاربتم النبي(ﷺ) لكنهم خذلوهم ولم يفوا لهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ

لَكَاذِبُونَ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ (الحشر:﴿١١﴾-﴿١٢﴾) وقاموا بعدة محاولات لإحداث خرق في جيش المسلمين لكنهم لم يفلحوا وأفشل أمير المؤمنين (عليه السلام) وعشرة من الأصحاب هذه المحاولات البائسة وقتلَ (عليه السلام) رأسَ الجماعة المهاجمة[1]، وأستمر الحصار حتى دخلهم اليأس مضافاً إلى وهنهم بقتل رئيسهم كعب بن الأشرف[2] قبل ذلك حيث اغتاله أحدُ المسلمين بأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنه كان يحرّض قريشاً على الثأر لقتلى بدر ويتعرض للنساء المسلمات ويتغزل بهن ويؤذيهن، وقد تملّكهم الرعب فوافقوا على ما عرضه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عليهم من الجلاء عن أرضهم وديارهم وممتلكاتهم وتركها للمسلمين مقابل سلامتهم ولهم ما حملت الإبل عدا السلاح (فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف[3] بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به)[4].

أقول: وهذا ما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ﴾ لأخذ ما يمكن حمله ولتشكّل الأنقاض عائقاً أمام تقدم المسلمين كما تفعل الجيوش المنسحبة عادةً، ولكي لا تقع صالحةً سليمةً بأيدي المسلمين فيستفيدوا منها، ﴿وأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ فكان المسلمون -من الخارج- يهدمون ما يعيق حركتهم من الحصون وهم يخربونها من الداخل. فذهب بعضهم إلى خيبر وآخرون إلى

(١) راجع السيرة الحلبية: ج٢/ ص٥٦٢.

(٢) راجع تفاصيل الحادثة في سيرة ابن هشام:١٠٩/٣.

(٣) النجاف: عتبة الباب العليا.

(٤) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٠٩.

الشام وقيل إلى الحيرة[1] أيضاً. وهو الجلاء والحشر الذي ذكرته السورة وسميت به ﴿هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ (الحشر:٢).

ولأن النخيل كانت تشكل مانعاً طبيعياً يمنع تقدم المسلمين والاشتباك المباشر مع العدو ويعطي أملاً للعدو بالأمن والسلامة مما يطيل أمد الحرب، فقد أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بقطع بعض النخيل التي لا يقتاتون منها وحرقها، وأستغل اليهود هذا الفعل لإثارة الشبهة والشك في فعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و قيادته المباركة، فنزهه الله تعالى عن سوء الفعل، وقال سبحانه مشيراً إلى هذه الحركة العسكرية بقوله سبحانه ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الحشر:٥) فهذا الفعل بأمر الله تعالى ولم يكن فساداً في الأرض ولا انتقاماً ولا عبثاً.

ثم أمرت الآية الكريمة بأخذ العبرة والموعظة من هذه الحوادث ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ حتى لا يكررّوا الخطأ، لكن بني النضير لم يعتبروا بالقبيلة اليهودية التي سبقتهم إلى التمرد ونقض العهد، وهم بنو قينقاع قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الحشر:١٥) حيث غزاهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد معركة بدر وأوقع بهم.

إن عنوان البيت في الآية الكريمة يمكن توسعته إلى المأوى المعنوي والاعتباري الذي يلجأ إليه الأفراد ويجتمعون فيه ويستمدون منه هويتهم،

---

(١) مجمع البيان: ٩/ ٢٢٩.

ويجدون فيه ما يحتاجون من أسباب الأمن والاستقرار والرفاه والسعادة، كالدولة والأمة والحضارة، وحينئذٍ يكون معنى تخريبهم لبيوتهم هو عدم المحافظة على أوضاعهم الاقتصادية القوية واستقرارهم الأمني ونفوذهم الاجتماعي بتوجههم إلى الغدر ونقض العهد مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والتآمر على قتله.

وبناءً على هذا التوسع في المعنى نستطيع القول: إن هذا الجزء من الآية الكريمة يؤسس نظرية اجتماعية سياسية في فهم سرّ انهيار الحضارات والدول والمجتمعات بأنها ترجع إلى عاملين:

١-خارجي: وهم الأعداء المتربصون الذين ينتظرون الفرصة المؤاتية للانقضاض عليهم وإحكام السيطرة عليهم.

٢- داخلي: لفقدانهم الروح المعنوية وتعويلهم على القوى المادية من سلاح ومال وكثرة عددية وهي وحدها لا تصنع النصر. وهذا العامل الداخلي هو الأقوى في التأثير، وقد لا يحتاج العدو الخارجي إلى أكثر من إحداث هذه الهزيمة الداخلية. وهذا ما حصل لبني النضير فقد هُزموا من داخلهم من دون قتال وسلّموا أراضيهم وأموالهم وممتلكاتهم مقابل النجاة بأنفسهم وهي نتيجة طبيعية لمن لا يمتلك مبادئ سامية يقاتل من أجلها.

وهذه النظرية جديرةٌ بالتأمل والاعتبار كما أمرت به الآية الكريمة، والاستفادة منها في صراع الحضارات، وقد ذكرت السورة جملة من هذه العوامل الداخلية التي تنخر كيان الأمة وتمزّقها وتضعفها وحذرّت منها وعلى رأسها:

١-فقدان التقوى والوازع الديني ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ وَلَا تَكُونُوا

كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر:١٨-١٩).

٢-عدم طاعة القيادة الحقة ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر:٧).

٣-الاستئثار بالمال والتمايز الطبقي وغياب العدالة الاجتماعية ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ (الحشر:٧).

٤-الخلافات الداخلية بسبب التعصب والعنصرية والتحزب مما يؤدي الى صراعات تمزق الأمة لذا شدَّد على التماسك الاجتماعي ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر:٩).

ومن الأمثلة التأريخية التي توضح هذه النظرية: هزيمة المسلمين في الأندلس بعد أن حكموها أكثر من ثمانمائة عام ولم تقدر الأمم الأوروبية على هزيمتهم، لكن ملوكهم لما انهمكوا في ملذاتهم ولهوهم وشهواتهم ولم يقيموا العدالة الاجتماعية وبدّدوا ثروات البلاد، وصمّوا اذانهم عن سماع الحق، وغفلوا عن أمور الشعب والدولة وأصبحت أمورها تدار من قبل الخدم و الجواري وبعضهن من الجاسوسات الأوربيات وانشغل الأمراء بصراعاتهم الداخلية التي مزقتهم إلى دويلات وإمارات واستعان بعضهم بالممالك الأوربية على إخوانهم المسلمين، وبفقدانهم لكل القيم المعنوية ومقومات الصمود تمكنت جيوش الأعداء من هزيمتهم فاستسلموا وسلموا البلاد لهم ولحقهم خزي الدنيا وعذاب الآخرة بتضييعهم هذا الجزء المهم من بلاد المسلمين.

ومن التطبيقات المعاصرة لهذه النظرية الإتحاد السوفييتي الذي كان يمتلك قدرات هائلة مكّنته من الوقوف مقابل حلف شمال الأطلسي طيلة عقود الحرب الباردة، لكن عوامل الضعف نخرت كيانه من الداخل خصوصاً بعد احتلاله أفغانستان عام ١٩٧٩م، ودخوله في حرب مفتوحة مع الشعب الأفغاني المسلم، فانهار من الداخل بدون قتال وانحلّ الإتحاد عام ١٩٩١م، وتشظّى إلى دول عديدة تشهد بعضها صراعات فيما بينها.

والحضارة الغربية سائرة اليوم بهذا الاتجاه خصوصاً بعد اتخاذ أكثر حكوماتهم قراراً بإباحة زواج المثليين وتغيير الجنس وهو عامل تخريب قوي لمقومات الأمة وهي الأسرة، كما أن التخلّي عن المبادئ الإنسانية السامية والتجرد من المعنويات ومن الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، والخواء الفكري والأيديولوجي الذي يعيشونه، وإشاعة ثقافة اللهو والمجون والعبث واللهاث وراء الشهوات وهوس التفاهات يسلب منهم القدرة على استمرار الحضارة، و يجعلهم مجتمعات كسولة مخدَّرة غير منتجة، لذا تجدهم يستعينون بالمهاجرين من البلاد الأخرى لتسيير حياتهم، وهذه كلها أمور تنسف أساس الحضارة، وسيأتي اليوم الذي يزيح هؤلاء المهاجرون سكان تلك البلاد ويحلّون محلّهم ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (الأحزاب:٢٧).

فعلينا أن نستيقظ ونحذّر من تسرّب هذه العناصر المدمّرة إلى مجتمعاتنا الإسلامية، بل علينا أن ننقل إليهم ما عندنا من منهج ربّاني يصلح البشرية ويسعدها لننقذهم مما هم فيه من الضياع.

القبس/٢٠٦

سورة الحشر:﴿١٨﴾

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[1]

لنراجع أنفسنا:

قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ (الحشر:﴿١٨﴾-﴿١٩﴾).

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، هذا الغد ليس يوماً واحداً وإنما هو زمان واسع فسيح يبدأ من موت الإنسان ولا ينتهي عند عرصات القيامة والحساب بل هم فيها خالدون:فريق في الجنة وفريق في السعير نعوذ بالله.

فالله تبارك وتعالى يدعونا في هذه الآية إلى أن نراجع أنفسنا وننظر ماذا

---

(١) في يوم الجمعة ٢٧/ذو القعدة/١٤٣١هـ- الموافق ٢٠١٠/١١/٥م، أقدم سماحة الشيخ (دام ظله الشريف) على خطوة تأريخية مباركة وغير مسبوقة –على الأقل في العقود القريبة المنصرمة- فقد أقام سماحته أول صلاة جمعة في مكة المكرمة في مقر إقامته، وقد ألقى سماحته خطبتي صلاة الجمعة مرتدياً ثوب إحرامه حيث أعاد إلى الأذهان تلك الأجواء التي عاشها المؤمنون في العراق أيام إقامة صلاة الجمعة في مسجد الكوفة المعظم من قبل السيد الشهيد الصدر الثاني (قدس سره) وبكى فيها (دام ظله) وأبكى العيون لأكثر من مرة لما تضمنته الخطبة من مواعظ. وما في المتن الخطبة الأولى منها.

قدمنا لهذا الغد المجهول العصيب الذي فيه أهوال وصعوبات لا يعلمها إلا هو تبارك وتعالى، لا نعرف نحن عنه شيئاً ولا نعرف ما معنى أن ننظر لهذا الغد حتى نستعد له ونهيئ له ما يناسبه، لكن الله تبارك وتعالى هو ولي هذا الغد وملك هذا الغد وخالق هذا الغد بيّن لنا ما ينفعنا في تلك الحياة وحاشا لله تبارك وتعالى الرحيم الرؤوف بعباده المحسن إليهم أن يتركهم سدى، قال تعالى ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة:١٩٧).

سفر الآخرة:

خذوا مثالاً: سفركم هذا إلى الحج وهو سفر قصير لا تتجاوز مدته الشهر ومعكم إدلاء يرشدونكم ومتعهدون يتولون إدارة شؤونكم ورفقة وإخوان وجهات توفر لكم الخدمة والمنزل والطعام ومع ذلك فإن أحدكم يستعد له منذ مدة طويلة ويتحسب لكل احتمال ويُعدّ كل ما يحتاجه من دقائق الأمور ويعيد النظر في جهازه خشية أن يكون قد نسي شيئاً.

فكيف بسفر الآخرة الذي لا أمد له ولا مُعين ولا رفيق ولا زاد إلا عملك فإنه قرينك صالحاً كان أو سيئاً والعياذ بالله تعالى وزادك التقوى التي يطلبها الإمام الحسين (عليه السلام) في دعاء يوم عرفة (اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك وأسعدني بتقواك ولا تشقني بمعصيتك)[1].

وهذا المستوى الذي يطلبه الإمام الحسين (عليه السلام) ويحثّ على الوصول إليه هو مستوى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ (آل عمران:١٠٢)، وهو لا يتيسر إلا لعباد الله

(١) مفاتيح الجنان: ص٤١٣.

المخلصين ولكن لا مانع من طلبة والسعي لتحصيله من خلال تطبيق الآية الأخرى ﴿اتّقُوا اللهَ مَا استَطَعتُمْ﴾ (التغابن:١٦) فإن الله تعالى تكفّل لمن يعمل بما يتيسّر له أن يوفقه ما لم يكن يستطيعه بلطفه وكرمه.

التقوى حركات وسكنات:

وهذه الفريضة الإلهية التي وفقكم الله تعالى إليها فدعاكم لضيافته والوفود إلى بيته الآمن المحرم هي من أعظم مصاديق التقوى وأوثق الأسباب لتحصيلها بل أن آية ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ وردت في سياقها قال تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ (البقرة:١٩٧).

والتقوى عنوان يتحلل إلى الكثير من الحركات والسكنات:الحركات باتجاه الأعمال الصالحة سواء كانت على نحو الواجبات أو المستحبات وهي أضعاف الأولى، والسكنات أي التوقف إزاء الأعمال غير الصالحة سواء كانت على نحو المحرمات أو المكروهات، وقد حفلت الكتب بتسجيلها جميعاً حتى دقائقها ولا يستطيع أحد استقصائها.

من حكمة الله تعالى تنوع القابليات:

ومن حكمة الله تعالى ورحمته بعباده أنه نوّع القابليات والقدرات والمؤهلات عند خلقه لتُغطّي كل مساحات عمل الخير ولكي لا يحرم أحد منها، فأعطى للبعض ثروة مالية فهو يتصدق منها ويساعد الفقراء والمحتاجين ويزوّج الشباب المعسرين ويحج ويزور ويبني المساجد ويشيّد المشاريع الخيرية وآخر لم يعطه مالاً لكنه أعطاه علماً نافعاً فهو يرشد الناس ويهديهم ويصلح ما فسد من

أمور دينهم ودنياهم ويوجههم ويعلمهم أمور دينهم.وآخر لم يُعطَ مالا ولا علماً لكنه أعطى أخلاقا حسنة فهو يعاشر الناس بالمعروف ويفشي السلام ويتصدق بالكلمات الطيبة، كما ورد في قول النبي (صلى الله عليه وآله) لعمه العباس: (يا بني عبد المطلب إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم)[١].

ففرص الطاعة والتقرب إلى الله تعالى متكافئة للجميع لكنها منوّعة بحسبهم، روي أن مجموعة من النسوة شكت إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) تفضيل الرجال عليهن بإعطائهم فرصة الجهاد الذي هو (باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه)[٢] –كما وصفه أمير المؤمنين– وسقط عنهنّ، فأجاب النبي (صلى الله عليه وآله) بأن (جهاد المرأة حسن التبعّل)[٣] فالتساوي في فرص التكامل مكفولة للجميع. وكذلك فرصة الحج التي منحت للمستطيعين لم يُحرم منها الفقراء فورد فيهم (صلاة الجمعة حج المساكين)[٤].

وهذه من عدالة الله تبارك وتعالى ومن حكمته لتُملأ كل مساحات عمل الخير بحسب اختلاف إمكانيات الناس وتوجهاتهم، وإذا قال أحد أنه لم يعطني الله شيئاً فليراجع نفسه وسيجد ما يتقرب به وتلقي ما ورد في الحديث الشريف (ما عُبِد الله بشيء كالفرائض)[٥].

ونعود إلى ما بدأنا به من قوله تعالى ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾.

---

(١) بحار الأنوار: ١٦٩/٧١.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ٢٧.

(٣) بحار الأنوار: ١٠٧/١٨.

(٤) بحار الأنوار: ١٩٩/٨٦.

(٥) تحف العقول: ٢٨٦ وفيه (ولا طاعة كأداء الفرائض).

القبس/٢٠٧

سورة الممتحنة:(١)

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾

موضوع القبس: درس نبوي في المصالحة المجتمعية

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ (الممتحنة:١).

هذه الآيات الأولى من سورة الممتحنة فيها بحوث مهمة تتعلق بالموالاة والبراءة لكننا نتحدث الآن عن درس مستفاد من الحادثة التي نزلت بسببها هذه الآيات وتصرف النبي (صلى الله عليه وآله) أزائها، فقد روى علي بن إبراهيم في تفسيره سبب نزول الآيات قال (نزلت في حاطب بن ابي بلتعة[1]، ولفظ الآية عام ومعناه خاص، وكان سبب ذلك ان حاطب بن ابي بلتعة كان قد اسلم وهاجر إلى المدينة وكان

(١) حاطب بن بلتعة اللخمي من اليمن كان حليفاً لقريش، هاجر الى المدينة وشهد بدراً والحديبية والمشاهد كلها، وفي الإصابة (ج١/ص٣٠٠ رقم الترجمة ١٥٣٨) عن المرزباني في معجم الشعراء أنه كان أحد فرسان قريش في الجاهلية والإسلام، وقد يبعّد ذلك ما ذكره في الإصابة انه مات سنة ٣٠ وعمره ٦٥ عاماً وقد أسلم في مكة وهاجر فعمره في الجاهلية لا يسمح باشتهار أمره، وفي الاستيعاب والموطأ انه كان شديداً على رقيقه وشكاه بعضهم الى رسول الله (صلى الله عليه وآله).

عياله بمكة وكانت قريش تخاف ان يغزوهم رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فصاروا إلى عيال حاطب وسألوهم ان يكتبوا إلى حاطب يسألوه عن خبر محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهل يريد ان يغزو مكة؟ فكتبوا إلى حاطب يسألونه عن ذلك فكتب اليهم حاطب ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يريد ذلك، ودفع الكتاب إلى امرأة تسمى صفية[1]، فوضعته في قرنها ومرت، فنزل جبرئيل (عليه السلام) على رسول الله (صلى الله عليه وآله) فاخبره بذلك فبعث رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمير المؤمنين (عليه السلام) والزبير بن العوام في طلبها فلحقوها، فقال لها امير المؤمنين (عليه السلام): أين الكتاب؟ فقالت:ما معي، ففتشوها فلم يجدوا معها شيئا، فقال الزبير:ما نرى معها شيئا فقال امير المؤمنين: والله ما كذبنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولا كذب رسول الله (صلى الله عليه وآله) على جبرئيل (عليه السلام) ولا كذب جبرئيل على الله جل ثناؤه والله لتظهرن لي الكتاب او لأوردن رأسك إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقالت تنحيا حتى أخرجه فأخرجت الكتاب من قرنها فأخذه امير المؤمنين (عليه السلام) وجاء به إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا حاطب! ما هذا؟ فقال حاطب: والله يا رسول الله ما نافقت ولا غيرت ولا بدلت واني أشهد أن لا إله إلا الله وانك رسول الله (صلى الله عليه وآله) حقا ولكن أهلي وعيالي كتبوا إلى بحسن صنيع قريش اليهم، فأحببت ان اجازي قريشا بحسن معاشرتهم فانزل الله جل ثناؤه على رسول الله (صلى الله عليه وآله) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ - إلى قوله- لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ

(١) وفي (سيرة ابن هشام: ٢٩/٤) أن اسمها سارة مولاة لبني عبد المطلب وقال في موضع أخر كانت ممن يؤذي رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مكة، وهي ممن أهدر النبي (صلى الله عليه وآله) دمها حين فتح مكة ثم توسطوا لها وطلبوا لها الأمان فآمنها رسول الله (صلى الله عليه وآله).

الْقِيَامَةِ﴾)[١].

أقول: تضافرت روايات العامة في نقل هذه الحادثة ايضاً كالبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي والبيهقي وأبي نعيم وغيرهم[٢] وفي هذا التصرف النبوي الشريف مثل أعلى يستحق ان يدرسه القادة والحكام في المصالحة المجتمعية والعفو عن الذين تزلّ أقدامهم من أبناء المجتمع ويخرجون على الدولة ويخرقون النظام بسبب ضعف النفس او الجهل او سوء التقدير أو أي سبب آخر، بينما الجرم الذي ارتكبه حاطب يدخل فيما يسمى بالخيانة العظمى لتسريبه اسراراً عسكرية تتعلق بأمن الدولة الى أعداء في حالة حرب مع الدولة، والقوانين المعاصرة تحكم على مرتكب هذا الجرم بالإعدام، لكن النبي (صلى الله عليه وآله) قبل عذره وزجر عمر بن الخطاب لأنه طلب من النبي(صلى الله عليه وآله) أن يأمر بقتله.

ولم يكتفي النبي (صلى الله عليه وآله) بل قام بما يسمى اليوم بإعادة تأهيله ودمجه في المجتمع وإزالة كل المضاعفات الاجتماعية التي حصلت له بسبب إرتكابه لهذه الجريمة فأرسله النبي (صلى الله عليه وآله) بكتابه الى المقوقس حاكم مصر في الإسكندرية حينما بعث برسائله الى ملوك العصر يدعوهم الى التوحيد وطاعة الله تعالى ومنهم:كسرى ملك الفرس وهرقل ملك الروم والنجاشي ملك الحبشة وملوك اليمن وعمان والبحرين وغيرهم، وعاد الى النبي (صلى الله عليه وآله) ومعه هدايا ومارية القبطية التي تزوجّها وولدت أبنه الوحيد إبراهيم.

---

(١) تفسير القمي: ٣٦١/٢، تفسير البرهان: ٢٧٩/٩.

(٢) الدر المنثور: ١٢٥/٨.

وفي كتاب الاستيعاب[1] ان بعثه كان في السنة السادسة من الهجرة بعد صلح الحديبية أي قبل أحداث فتح مكة وربما يظهر ذلك ايضاً من سياق حديث ابن هشام في السيرة[2].

فعلينا ان نبرز هذه الصور المشرقة من رسالة الإسلام وقادته العظام لنعرف العالم بهذا الدين الرباني الذي هو أعظم هدية من الله تعالى خالق البشرية الى الانسان ليسعده.

ومضافاً الى هذا فأننا يمكن ان نستخلص عدة دروس أخرى من الآية الكريمة:

١- الانصاف والموضوعية حينما بدأ الخطاب بـ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والخطاب وإن كان عاماً إلا انه نزل في حادثة حاطب فلم يخرجه عن الايمان بارتكاب هذه الجريمة الكبرى فالذين يكفرّون الناس لاختلافهم معهم في بعض الاحكام أو في فهم بعض العقائد الدينية مخالفون لمنهج القرآن وأدبه.

٢- الطاعة والتسليم التام للقائد الذي تجلى في إصرار أمير المؤمنين (عليه السلام) على تنفيذ أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعدم التهاون فيه كما حصل للزبير.

---

(١) المطبوع بهامش الإصابة: ٣٥٠/١.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ١٨٨/٤.

القبس/٢٠٨

سورة الصف:﴿٦﴾

﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾

موضوع القبس: بشارة الكتب السماوية والأنبياء السابقين (صلوات الله تعالى عليهم أجمعين) بالنبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله)

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الصف:٦).

الحمد هو الثناء على من عنده فضيلة أو منقبة أو مكرمة أو صفة يحمد عليها على نحو التعظيم، وهو مقابل الذم، ويختص بالأمور الاختيارية كحسن الخلق والشجاعة والكرم وفعل المعروف، فهو أخص من المدح الذي يكون في الأمور الاختيارية وغير الاختيارية كصباحة الوجه، وهو أعم من الشكر الذي هو ثناء يجازى به صنيع حسن قُدِّمَ له أو نعمة تفضّل بها عليه - كما في مفردات الراغب والفروق لابن هلال وغيرهما-.

وقيل: إن الشكر يمكن أن يكون أعم من الحمد بلحاظ مورده وكيفيته، قال الجزائري: ((فالحمد أعم مطلقاً لأنه يعم النعمة وغيرها، وأخصّ مورداً إذ هو باللسان فقط، والشكر بالعكس إذ متعلقه النعمة فقط، ومورده اللسان وغيره، فبينهما عموم وخصوص من وجه، فهما يتصادقان في الثناء باللسان على الإحسان،

ويتفارقان في صدق الحمد فقط على النعت بالعلم مثلاً، وصدق الشكر فقط على المحبة بالجنان لأجل الإحسان))[١].

أقول: وفيه تأمل: فإن الحمد لا يختص باللسان، ويصدق على القول والفعل، والحال كالتخلق بأخلاق الله تعالى والتحلي بالكمالات[٢].

فـ(أحمد) مشتق من الحمد، وهو اسم للنبي (صلى الله عليه وآله) وهو أيضاً صفة له على نحو اسم التفضيل تعبّر عن استحقاقه الحمد والثناء لخصاله الكريمة وأفعاله المحمودة، كما أن (محمد) اسم له (صلى الله عليه وآله) وهو بنفس الوقت وصف له على شكل صيغة مبالغة لكثرة ما يحمد فيه، وقد سماه به جدّه عبد المطلب وأطعم قريشاً في يوم مولده وقالوا له: (ما سميت ابنك هذا؟ قال: سميته محمداً، قالوا: ما هذا من أسماء آبائك، قال: أردت أن يحمد في السماوات والأرض)[٣].

---

(١) فروق اللغات لنور الدين الجزائري (ت١١٥٨): ٨٩ بواسطة المعجم: ١٣/ ٧٤٩.

(٢) ممن ذكر ذلك الجرجاني (ت ٨١٦) في التعريفات: ٤١ بواسطة المعجم: ١٣/ ٧٤٧.

(٣) المعجم في فقه لغة القرآن: ١٣/ ٧٤٠، عن ابن دريد صاحب الجمهرة، وأورده في البداية والنهاية لابن كثير: ٣/ ٣٨١ بلفظ يختلف (يا عبد المطلب أرأيت ابنك هذا الذي أكرمتنا على وجهه ما سميته؟ قال: سميته محمداً، قالوا: فلم رغبت به عن أسماء أهل بيته؟ قال: أردت أن يحمده الله في السماء، وخلقه في الأرض).

ونقل المعجم عن عدة مصادر أن أشخاصاً سمّوا محمداً وأحمداً في الجاهلية قبل ولادة النبي (صلى الله عليه وآله)، وأنا استبعد ذلك وإنما هو من وضع الحسّاد، ولو كان هذا الاسم معروفاً لكان بنو هاشم أولى به فكيف تقول قريش لعبد المطلب: ما هذا من أسماء آبائك، ولو سلمناه فإنهم أخذوه من بشارات أهل الكتاب بالنبي (صلى الله عليه وآله) وإخبارهم بقرب زمانه فتفاءلوا أن يكون ابنهم هو الموعود، قال ابن هشام: ((لا يُعرَف في العرب من تسمّى بهذا الاسم قبله (صلى الله عليه وآله) إلا ثلاثة، طمع آباؤهم - حين

وذكر السيد المسيح (صلوات الله وسلامه عليه) هذا الاسم للتعبير عن كونه (صلى الله عليه وآله) أفضل منه ومن جميع الأنبياء السابقين وأولى بالحمد منهم، وإلا لا يكون للبشرى معنى إذا لم يكن كذلك، وذكر جمع من المفسرين أن له وجهين:

١- أنه مبالغة من الفاعل أي الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين) كلهم حمّادون لله عز وجل وهو أكثرهم حمداً لله تعالى.

٢- أنه مبالغة من المفعول، أي أن الأنبياء كلهم محمودون لما فيهم من الخصال الحميدة، وهو أكثر مبالغة وأجمع للفضائل والمحاسن التي يحمد عليها[1].

وقد بشّر الأنبياء السابقون (صلوات الله عليهم أجمعين) بالنبي (صلى الله عليه وآله) ومنهم الرسولان الكريمان موسى وعيسى(صلوات الله وسلامه عليهما) في التوراة والإنجيل، روى الشيخ الكليني بسند صحيح عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال في حديث طويل (فلما نزلت التوراة على موسى (عليه السلام) بشر بمحمد (صلى الله عليه وآله) وكان بين يوسف وموسى من الأنبياء وكان وصي موسى يوشع بن نون (عليه السلام) وهو فتاه الذي ذكره الله عز وجل في كتابه، فلم تزل الأنبياء تبشر بمحمد (صلى الله عليه وآله) حتى بعث الله تبارك وتعالى المسيح عيسى بن مريم فبشر بمحمد (صلى الله عليه وآله) وذلك قوله تعالى: ﴿..يَجِدُونَهُ (يعني اليهود والنصارى) مَكْتُوباً (يعني صفة محمد (صلى الله عليه وآله)) عِندَهُمْ (يعني) فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ..﴾

سمعوا بذكر محمد (صلى الله عليه وآله) وبقرب زمانه، وأنه يبعث في الحجاز - أن يكون ولداً لهم)) (السيرة النبوية: ١/ ١٥٨).

(١) مجمع البيان: ٩/ ٢٤٩، ونقلها في المعجم: ٧٧٥/١٣ عن البغوي في معالم التنزيل: ٨٠/٥ والميبدي في كشف الأسرار: ٨٧/١٠ والفخر الرازي: ٢٩/ ٣١٣.

(الأعراف:﴿١٥٧﴾)، وهو قول الله عز وجل يخبر عن عيسى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ وبشر موسى وعيسى بمحمد (صلى الله عليه وآله) كما بشر الأنبياء (عليهم السلام) بعضهم ببعض حتى بلغت محمداً (صلى الله عليه وآله)[1].

وتصرح الآية الكريمة بأن خلاصة رسالة السيد المسيح (عليه السلام) أمران: تصديق التوراة والبشارة بالنبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله)، وكأنه (عليه السلام) حلقة الوصل بين الرسالات، وأن الدين الذي عليه الأنبياء جميعاً واحد وهو الإسلام.

ولما كانت البشرى تعني حصول المبشَّر على خيرٍ يسرّه، فإن تعبير السيد المسيح (عليه السلام) فيه إشارة بالغة إلى كمال دين الإسلام وما يجلبه لأتباعه من الخير والسعادة في الدارين، وهيمنته على جميع الأديان، فيجب على من يدركه أن يتبعه.

والظاهر أن البشارة بالنبي (صلى الله عليه وآله) كانت صريحة وواضحة في الأناجيل الموجودة في زمن النبي (صلى الله عليه وآله)، وإلا كانت أبلغ حجة لهم في تكذيب ما جاء به النبي (صلى الله عليه وآله) خصوصاً نصارى نجران الذين باهلوا النبي (صلى الله عليه وآله) لكنهم انسحبوا مهزومين وكانوا يبحثون عن أي شيء يدينونه به وقد ذكّرهم القرآن الكريم بهذه الحقيقة في أكثر من آية، كقوله تعالى: ﴿النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ (الأعراف:﴿١٥٧﴾) وقوله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:﴿١٤٦﴾) ولم ينقل لنا التاريخ أن أحداً منهم كذّب هذه الحقيقة بل

(١) الكافي: ٨/ ١١٧، كمال الدين: ٢١٣/ ح٢، البرهان: ٩/ ٢٨٨/ ح٢.

إن بعضهم أسلم حينما سمع بها كعبد الله بن سلام وغيره، روى القمي في تفسيره الآية السابقة (إن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام: هل تعرفون محمداً في كتابكم؟ قال: نعم والله نعرفه بالنعت الذي نعته الله لنا إذا رأيناه فيكم، كما يعرف أحدنا ابنه إذا رآه مع الغلمان، والذي يحلف به ابن سلام لأنا بمحمد هذا أشد معرفة مني بابني، قال الله: ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام:٢٠))[1].

فخلوّ بعض الأناجيل المحرَّفة الموجودة اليوم من ذكر النبي (صلى الله عليه وآله) لا يضرّ بصدق نقل القرآن الكريم لهذه الحقيقة، روى الشيخ الصدوق في كتابه العيون بإسناده إلى صفوان بن يحيى قال: (سألني أبو قرة صاحب الجاثليق أن أوصله إلى الرضا (عليه السلام) فاستأذنته في ذلك، فقال (عليه السلام): أدخله عليّ، فلما دخل عليه قبّل بساطه وقال: هكذا علينا في ديننا أن نفعل بأشراف أهل زماننا، ثم قال: أصلحك الله ما تقول في فرقة ادّعت دعوى فشهدت لهم فرقة أخرى معدلون؟ قال: الدعوى لهم قال: فادّعت فرقة أخرى دعوى فلم يجدوا شهوداً من غيرهم؟ قال: لا شيء لهم، قال: فإنا نحن ادعينا أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها فوافقنا على ذلك المسلمون وادعى المسلمون أن محمداً نبي فلم نتابعهم عليه، وما أجمعنا عليه خير مما افترقنا فيه، فقال له الرضا (عليه السلام): ما اسمك؟ قال: يوحنا، قال: يا يوحنا إنا آمنّا بعيسى بن مريم (عليه السلام) روح الله وكلمته الذي كان يؤمن بمحمد (صلى الله عليه وآله) ويبشّر به ويقرّ على نفسه أنه عبد مربوب، فإن كان عيسى الذي هو عندك روح الله وكلمته ليس هو الذي آمن بمحمد (صلى الله عليه وآله) وبشّر به ولا هو الذي أقرّ لله عز وجل

(١) تفسير القمي: ١٨٢، بحار الأنوار: ١٥/ ١٨٠/ ح٢.

بالعبودية والربوبية فنحن منه براء، فأين اجتمعنا؟! فقام وقال لصفوان بن يحيى: قمْ فما كان أغنانا عن هذا المجلس)[١].

وقد وردت في إنجيل برنابا بطبعته المعرّبة[٢] أخيراً، الفصل ٩٧ قال الله (اصبر يا محمد لأني لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجماً غفيراً من الخلائق التي أهبها لك حتى أن من يباركك يكون مباركاً ومن يلعنك يكون ملعوناً، ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولي للخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى أن السماء والأرض تهنان ولكن إيمانك لا يهن أبداً)[٣] وفي فصل ٢٢٠ (وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله).

ووردت نصوص أخرى في إنجيل يوحنا (الأبواب ١٤،١٥،١٦ يذكر فيها البشرى ببعثة الفارقليط ويقال إن أصل هذه الكلمة باليوناني (پيركلتوس) ومعناها الأحمد وهو الممدوح والمجلّل كثيراً كما في دائرة المعارف الفرنسية[٤]، وهو – كثير الحمد)[٥]، ففي الإصحاح الخامس عشر (وأما الفارقليط روح القدس يرسله أبي باسمي ويعلمكم ويمنحكم جميع الأشياء وهو يذكّركم ما قلت لكم) (وإني

(١) عيون أخبار الرضا: ٢/ ٢٥٤، باب٥٦/ ح١.

(٢) نقل المرحوم الصادقي في (تفسير الفرقان: ٢٨/ ٢١٥ النصوص الأصلية بالسريانية المترجمة عن الأصل اليوناني مع تفاصيل تاريخية وله كتاب بعنوان (رسول الإسلام في الكتب السماوية).

(٣) نقلناها بواسطة التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٢/ ٣٣٠ وقال عن هذا الإنجيل: ((وهو من أحسن الكتب في المعارف والأخلاق ولطائف الحقائق الإلهية)).

(٤) المترجمة: ٢٣/ ٤١٧٦ نقلها عنه في تفسير الأمثل: ١٤/ ١٦١.

(٥) نقلناها بواسطة (التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٢/ ٣٢٩).

قد خبّرتكم بهذا قبل أن يكون حتى إذا كان ذلك تؤمنون)[١]، قال في دائرة المعارف الفرنسية: (لكنهم وضعوا بدلاً عنها لفظ (پاراكلتوس) اشتباهاً، حيث ترجمت في الطبعات العربية بـ(المعين) فورد في إنجيل يوحنا (وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معيناً آخر ليمكث معكم إلى الأبد)[٢] وجاء في الباب الذي بعده (ومتى جاء المعين الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي)[٣].

ومن خلال هذه البشرى يعلّمنا السيد المسيح دروساً أخلاقية في الإنصاف والموضوعية وقول الحقيقة والاعتراف للآخرين بالفضل وعدم التحاسد.

وكان النبي (صلى الله عليه وآله) معروفاً بالاسمين منذ ولادته، وروى الحلبي في السيرة النبوية أن جده عبد المطلب سمّاه محمد وسمّته أمّه أحمد[٤].

وقد ضَمّن أبو طالب (رضوان الله تعالى عليه) عم النبي (صلى الله عليه وآله) هذا الاسم في شعره الداعي إلى نصرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومن ذلك قوله:

وقالوا لأحمدَ أنت امرؤ خلوف اللسان ضعيف السبب[١]

---

(١) نقلت جملة من التفاسير هذه النصوص ومنها تفسير الفخر الرازي: ٢٩/ ٣١٣ والمعجم: ١٣/ ٧٧٥.

(٢) تفسير النور: ٩/ ٥٩٤، عن إنجيل يوحنا، باب ١٤، جملة ١٦، وفي تفسير الأمثل والتحقيق ترجمت إلى الفارسية بالمعزّي والمسلّي.

(٣) إنجيل يوحنا، باب ١٥، جملة ٢٦.

ولعل العبارة الأخيرة هي ما ذكره الإمام الرضا (عليه السلام) للجاثليق من الإنجيل قال (عليه السلام): (يا نصراني هل تعرف في الإنجيل قول عيسى (عليه السلام): إني ذاهب إلى ربكم وربي، والبار قليطا جاء هو الذي يشهد لي بالحق كما شهدت له) (عيون أخبار الرضا: ١/ ١٤٥).

(٤) السيرة الحلبية: ١/ ٩٣- ١٠٠.

ألا إن أحمـــــد قـــــد جـــــاءهم بـــحقٍ ولـــم يأتـــهم بالكـــــذب

وقوله مخاطباً الحمزة والعباس وجعفراً وعلياً (عليه السلام) يوصيهم بنصرة النبي (صلى الله عليه وآله):

كونوا فدى لكم أمي وما ولدتفي نصر أحمد دون الناس أتراسا[٢]

وقوله في بشارة الأنبياء السابقين:

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمداً نبياً كموسى خُطّ في أول الكتب[٣]

وأجابه ولده علي بن أبي طالب (عليه السلام):

أتأمرني بالصبر في نصر أحمدٍ ووالله مـا قلت الـذي قلتُ جازعا

سأسعى لوجه الله في نصر أحمدٍ نبي الهدى المحمود طفلاً ويافعا[٤]

وذكر ذلك جعفر بن أبي طالب (رضوان الله عليه) لملك الحبشة قال: (إن الله بعث فينا رسوله، وهو الرسول الذي بشّر به عيسى بن مريم ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾)[٥].

ونظم جدّي المرحوم الشيخ محمد علي اليعقوبي هذه البشائر في قصيدته بمناسبة المولد النبوي الشريف ومنها قوله:

نطقـــت به التوراة قبل وبشرَّ الانجيـــل فيـــه وصدّق الفرقان

صدعت به الرسـل الكـــرام ودينه جاءت مبشـــرة به الأديان[١].

---

(١) تفسير مجمع البيان: ٤/ ٤٤٥، أورده ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة: ١٤/ ٦١.

(٢) تفسير مجمع البيان: ٤/ ٢٩-٣٣.

(٣) تفسير مجمع البيان: ٤/ ٢٩-٣٣.

(٤) الغدير: ٧/ ٣٥٨، الأمثل: ١٤/ ١٦٣.

(٥) الدر المنثور: ٨/ ١٤٨.

ملحق: أهمية الأسماء وآثارها الاجتماعية والنفسية وآدابها

ومن تكفّل الله تعالى بنفسه تسمية النبي (صلى الله عليه وآله) قبل ولادته، واختياره لأجمل الأسماء وأجمعها للكمالات نستلهم درساً في أهمية اختيار الأسماء الحسنة، وضرورة الالتفات إلى هذه القضية المغفول عنها، لما لها من آثار وتداعيات على النفس والمجتمع، وعدم التهاون في مراعاة الآداب الشرعية فيها.

روى الكليني بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (استحسنوا أسماءكم فإنكم تدعون بها يوم القيامة: قم يا فلان بن فلان إلى نورك، وقم يا فلان بن فلان لا نور لك)[٢]، ومن وصية النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام): (يا علي حق الولد على والده أن يحسن اسمه وأدبه)، وعن الإمام الكاظم (عليه السلام) قال: (أول ما يبرّ الرجل ولده أن يسميه باسم حسن فليحسن أحدكم تسمية ولده).

وروى في قرب الإسناد (أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يغيّر الأسماء القبيحة في الرجال والبلدان)، وقد أمر الإمام الكاظم (عليه السلام) بمحضر أبيه الإمام الصادق (عليه السلام) رجلاً من أصحابه أن يغير اسم ابنته وقال له: (اذهب فغيّر اسم ابنتك التي سميتها أمس فإنه اسم يبغضه الله) وكان قد سمى ابنته الحميراء فقال الإمام الصادق (عليه السلام) (انته إلى أمره ترشد، قال الراوي: فغيّرتُ اسمها).

وذكرت الروايات جملة من الأسماء المبغوضة لأنها تذكّر بأعداء أهل البيت (عليهم السلام)، وروي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله: (إن الشيطان إذا سمع منادياً ينادي يا

---

(١) ديوان الذخائر: ٥.

(٢) هذا الحديث وكل الأحاديث التالية وغيرها موجودة في وسائل الشيعة: ٣٨٧/٢١-٤٠١، أبواب أحكام الأولاد، الأبواب ٢١-٣٠.

محمد أو يا علي ذاب كما يذوب الرصاص) و(إن الشيطان إذا سمع منادياً ينادي باسم عدوّ من أعدائنا اهتزّ واختال).

وكره الأئمةُ (عليهم السلام) أن يذكر أحد باسمه أو كنيته إذا كان يكرهها، فقد أنشد أحد أصحاب الإمام الرضا (عليه السلام) أبياتاً فسأله لمن؟ قال لأبي العتاهية فقال (عليه السلام): (هاتِ اسمه ودع عنك هذا، إن الله عز وجل يقول ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ (الحجرات:١١) ولعل الرجل يكره هذا).

وقد حثّ الأئمة المعصومون (عليهم السلام) على اختيار الاسم قبل الولادة، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (سموا أولادكم قبل أن يولدوا، فإن أسقاطكم إذا لقوكم في القيامة لم تسموهم يقول السقط لأبيه: ألا سمّيتني وقد سمّى رسول الله (صلى الله عليه وآله) محسناً قبل أن يولد) وقالوا (صلوات الله عليهم): (أصدق الأسماء ما سمي بالعبودية وأفضلها أسماء الأنبياء)، وروى أمير المؤمنين (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله: (ما من أهل بيت فيهم اسم نبي إلا بعث الله عز وجل إليهم ملكاً يقدسهم بالغداة والعشي).

وجعلوا من العقوق عدم التسمية بمحمد، فقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله: (من ولد له أربعة أولاد لم يسمِّ أحدهم باسمي فقد جفاني) وفي رواية أخرى حددهم بثلاثة.

وكان الأئمة (عليهم السلام) يحترمون هذا الاسم ويقدسونه ويتواضعون إجلالاً له، روى أبو هارون الجعدي قال: (كنت جليساً لأبي عبد الله (عليه السلام) بالمدينة ففقدني أياماً، ثم إني جئت إليه فقال: لم أرك منذ أيام يا أبا هارون؟! فقلت: ولد لي غلام، فقال: بارك الله لك، فما سميته؟ قلت: سميته محمداً، فأقبل بخده نحو الأرض وهو

يقول محمد محمد محمد، حتى كاد يلصق خده بالأرض، ثم قال: بنفسي وبولدي وبأهلي وبأبوي وبأهل الأرض كلهم جميعاً الفداء لرسول الله (صلى الله عليه وآله)، لا تسبه، ولا تضربه، ولا تسئ إليه، واعلم أنه ليس في الأرض دار فيها اسم محمد إلا وهي تقدس كل يوم)[1].

وفي رواية أخرى أنَّ من أسمه محمد له كرامة وشفاعة يوم القيامة، وهكذا ورد استحباب التسمية بأسماء أهل البيت (عليهم السلام)، وإن فيها أجراً لأن دافعها الحب والمودّة، روى العياشي في تفسيره أنه (قيل لأبي عبد الله (عليه السلام): جعلت فداك، إنا نسمّي بأسمائكم وأسماء آبائكم فينفعنا ذلك؟ فقال: إي والله، وهل الدين إلا الحب، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّه فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللُّه وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ..﴾ (آل عمران:٣١))[2].

ويستحب تسمية البنات باسم السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام)، فقد ورد أن الفقر لا يدخل بيتاً فيه اسم فاطمة من النساء، ومحمد وأحمد وعلي والحسن والحسين وجعفر من الرجال[3].

وكان لاسم فاطمة وقع خاص في قلوب أبنائها المعصومين (عليهم السلام) وشيعتها ومحبيها، يمتزج فيه التعظيم والإجلال بالحرقة واللوعة روى السكوني قال: (دخلت على أبي عبد الله (عليه السلام) وأنا مغموم مكروب فقال لي: يا سكوني ما غمّك؟ فقلت: ولدت لي ابنة، فقال: يا سكوني، على الأرض ثقلها وعلى الله رزقها

---

(١) وسائل الشيعة: ٢١/ ٣٩٣/ ح٤.

(٢) سفينة البحار: ٤/ ٢٩٥.

(٣) بحار الأنوار: ١٠٤/ ١٣٠.

تعيش في غير أجلك وتأكل من غير رزقك، فسرّى والله عني، فقال: ما سميتها؟ قلت: فاطمة، قال: آه آه آه، ثم وضع يده على جبهته - إلى أن قال: - ثم قال: قال لي: أما إذا سميتَّها فاطمة فلا تسبَّها ولا تلعنْها ولا تضربْها)[1].

(١) وسائل الشيعة: ٢١/ ٤٨٢.

القبس/٢٠٩

سورة الصف:﴿١٤﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾

موضوع القبس: دعوة الى نصرة دين الله تعالى وأوليائه العظام

قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (الصف:١٤).

دعوة من الله تبارك وتعالى إلى جميع المؤمنين أن ينصروا الله تعالى وذلك بأن يكونوا من أنصار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في نشر الإسلام والدفاع عنه، وهذه الدعوة تشريف للإنسان وسبب لرفعته وافتخاره بأن خالق السماوات والأرض ومن بيده ملكوتهما يدعوه إلى نصرته ليحفّزهم على ذلك، فأن ربط النصرة بالله تعالى يعطيها أكبر زخم، كما أنه يحقق شرط تحصيل الأجر بأن تكون النية خالصة لله تعالى، وليس طمعاً بما عند الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

ويذكّرهم الله تعالى بمثل من الرسل أُولي العزم ليتأسّوا به وهو السيد المسيح عيسى بن مريم صلوات الله عليه حينما دعا الحواريين وهم خاصّة مريديه الملازمين له المنقطعين إليه أن ينصروه في دعوته إلى الله تبارك وتعالى وأن يعينوه على أداء رسالته ـ فالنصر هو العون ـ ويعاضدوه في هداية الناس إلى السبيل

الموصل إلى الله تبارك وتعالى، فاستجاب له الحواريون وأعلنوا استعدادهم لبذل النصرة والعون لله تعالى من خلال نصرة رسوله ودينه، إذ لابدَّ لكل صاحب مشروع أن يكون له أنصار ومؤيدون ليعينوه على إقامة المنهج الإلهي في الأرض.

فلماذا يدعو (عليه السلام) الحواريين إلى نصرته وقد كانوا معه (عليه السلام) ومؤمنين به ويتبعونه ويستفيدون منه، وورد فيهم عن الإمام الرضا (عليه السلام) قوله (وأما عندنا فسميّ الحواريون حواريين لأنهم كانوا مخلصين في أنفسهم ومخلِّصين لغيرهم من أوساخ الذنوب بالوعظ والتذكر)[1]؟ وإنما دعاهم إلى نصرته لأنه (عليه السلام) أراد منهم تأكيد هذه النصرة والثبات عليها لمّا رأى علامات الخذلان والتكذيب من قومه بني إسرائيل رغم الآيات المتواترة والحجج البيّنة، قال تعالى ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۞ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران:٥٢-٥٣) فاستجاب له الحواريون وأشهدوه على تسليمهم المطلق واستعدادهم لبذل الغالي والنفيس في سبيل الحق وكان ذلك بلطف الله تعالى وتأييده لهم ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ (المائدة:١١١).

وقد أخذ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من أصحابه مثل هذا التعهّد بالنصرة والثبات عليها أكثر من مرة ففي بيعة العقبة طالب أهل يثرب أن ينتخبوا اثني عشر رجلاً ليكونوا

---

(١) علل الشرائع: ١/٨٠ باب ٧٢، تفسير البرهان: ٢٢٢/٢، ح١.

نقباء عليهم[١]، وكذا في بيعة الشجرة، لإدامة العمل الرسالي وتنظيمه، وتمكين النخبة من قيادة الأمة وإدارة جميع شؤونها، وعدم إحداث فراغ في حياتها، فإذا تحقق ذلك فإن الأمة ستلتف حولهم لما تراه من الخير والصلاح والسعادة، وتنفرز الجماعة المؤمنة عن الفاسدة والمنافقة في معتقداتها وأفكارها وأخلاقها وسلوكها، ﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ فاذا تحقق هذا الوضوح في الهوية والانتماء: أتى نصر الله والفتح ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (الصف:١٤) ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (الفرقان:٣١).

فيدعو الله تعالى المؤمنين بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأتباع رسالته في جميع الأزمنة والعصور إلى تأكيد مثل هذه النصرة والاستمرار عليها والتواصي بها، ويستنهض هممهم للعمل في سبيل الله لأن الخطاب عام ولا يختص بأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد روى الطبرسي في الاحتجاج عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديث (ولم يُخْلِ أرضَه من عالِم بما يحتاج الخليقة إليه ومتعلم على سبيل نجاة، أولئك هم الأقلّون عدداً، وقد بَيّن الله ذلك في أمم الأنبياء، وجعلهم مثلاً لمن تأخر عنه مثل قوله في حواريي عيسى حيث قال لسائر بني إسرائيل (مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) يعني مسلّمون لأهل الفضل فضلهم ولا يستكبرون عن أمر ربهّم فما أجابه الا الحواريون)[٢].

---

(١) روى السيوطي في (الدر المنثور: ٢١٤/٦) ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لأهل بيعة العقبة (أخرجوا إليَّ اثني عشر رجلاً منكم يكونوا كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى بن مريم).

(٢) الاحتجاج: ٣٦٨/١.

وتصرح الآية الكريمة بأن النصرة المطلوبة مشروطة بأن تكون لله تبارك وتعالى وفي سبيل الله وإعلاء كلمة الله تعالى وإعزاز دينه فلا قيمة لأي نصرة على أساس التعصب للعشيرة أو الحزب أو شخص معين أو أي عنوان آخر.

إن الله تعالى لم يطلب نصرة عباده لعجز أو ضعف أو نقص في القدرة والقوة وهو تعالى وصف نفسه بكل قدرة وقوة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:١٤٨) وقال تعالى ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (البقرة:١٦٥) وقال تعالى ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (آل عمران:١٢٦)، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال:١٠) وقال تعالى ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ (آل عمران:١٦٠).

وأثبت سبحانه عجز كل ما سواه من القوى وإنْ استعلت واستكبرت وتجبّرت قال تعالى ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (الأعراف:١٩٢) وقال تعالى ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء:١٧٣) وقال تعالى ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (النساء:١٣٩).

وكذلك فأنه تبارك وتعالى لم يستقرضنا من فقر أو نقص أو عجز بقوله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد:١١).

وإنما كان طلب النصرة منه تعالى ليوفر لنا فُرصاً عظيمة للطاعة والتكامل حتى نسمو ونرتقي وننال الدرجات الرفيعة، وفي ذلك قال أمير المؤمنين (عليه السلام):

فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللَّهِ فِي دَارِهِ رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ وَأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتَهُ وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَداً وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوباً وَنَصَباً ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)[1].

والسؤال هنا: كيف لمخلوق ضعيف عاجز مثلنا يطلب منه أن ينصر الله تعالى؟ وفي الإجابة نقول إن نصرة الله تعالى تتجلى في ميادين عديدة ولها اشكال متنوعة:

أولها: النفس وهي الساحة الأولى والأهم لنصرة الله تعالى قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ (المائدة:١٠٥) وحكي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله (ميدانكم الأول أنفسكم فحاسبوها قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، فإن انتصرتم عليها كنتم على غيرها أقدر) وهذا المعنى مكرَّر كثيراً في كلمات المعصومين (عليهم السلام) حتى أصبح متواتراً كقول علي (عليه السلام) (سياسة النفس أفضل سياسة)[2].

وتتحقق هذه النصرة بتهذيب النفس الأمارة بالسوء وكبح جماح شهواتها والسيطرة على غرائزها وتنقيتها من أغلال الأنانية والحقد والتعصب والحسد وحب الدنيا وسائر الرذائل، وتزيينها بالفضائل والعلوم النافعة والتفقه في الدين

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٨٣.

(٢) غرر الحكم: ٥٥٨٩.

والعمل به، وقد أطلق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على هذه الحركة المباركة (الجهاد الأكبر)[1] وفي دعاء الصباح لأمير المؤمنين (عليه السلام) (وَاِنْ خَذَلَني نَصْرُكَ عِنْدَ مُحارَبَةِ النَّفْس وَالشَّيْطانِ فَقَدْ وَكَلَني خِذْلانُكَ اِلى حَيْثُ النَّصَبُ وَالْحِرْمانُ)[2].

ثانياً: الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وتحبيبه إلى الناس بذكر عظيم رحمته وكرمه وإحسانه وجميل صنعه وسمو صفاته، ودحض الإلحاد والشرك بالحجج والبينات، وقد أتاح الله تعالى لنا اليوم أعظم الوسائل للدعوة والتبليغ والنشر من خلال التقنيات المعاصرة فنستطيع أن نوصل صوت الإيمان إلى ملايين البشر من خلال المنصات الإلكترونية الفاعلة والجاذبة والمؤثرة.

ثالثاً: نصرة حجج الله تعالى على خلقه وهم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وآله المعصومون (عليهم السلام) وتعظيمهم ومودتهم ونشر سيرتهم العطرة والاستفادة منها والدفاع عن حقهم وإظهار مظلوميتهم.

رابعاً: الالتفاف حول العلماء العاملين المخلصين لربهم ودينهم وأمتهم فإنهم ورثة الأنبياء والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) وحملة رسالتهم المباركة.

خامساً: نصرة دين الله تعالى بنشره وتعريف الناس به وتحبيبه إلى الناس وتثبيت قلوب المؤمنين ورد الشبهات ووأد الفتن والعمل على هداية الناس وإرشادهم إلى الحق وتعليمهم الأحكام الشرعية والأخلاق الفاضلة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن أداء هذه الفريضة الإلهية أعظم نصرة لله تعالى، روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقان من

---

(١) وسائل الشيعة: ١٦١/١٥، أبواب جهاد النفس، باب١/ ح١.

(٢) مفاتيح الجنان: ٩٦ دعاء الصباح.

خلق الله، فمن نصرهما أعزّه الله ومن خذلهما خذله الله)[1].

سادساً: السعي لتحقيق العدالة الاجتماعية وكرامة الإنسان وتحريره من أغلال الظلم والانحراف والمعاصي والعبودية للطواغيت والمستكبرين ونصرة المستضعفين والمحرومين التوّاقين للكمال والحرية، قال تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ فالغرض من بعث الأنبياء والرسل وإنزال الكتب والشرائع إقامة العدالة الاجتماعية وتحرير الإنسان ثم قال تعالى ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد:٢٥) وقد تعني ﴿بِالْغَيْبِ﴾ في زمان عدم حضور المعصوم (عليه السلام) لوفاة أو غَيبَة كزماننا الحاضر.

سابعاً: إقامة شعائر الله تعالى والحث عليها والمساهمة فيها بما يتيسر، وإعمار المساجد وتفعيل دور المسجد والقرآن في حياة الأمة وفق البرامج التي ذكرناها في خطابات سابقة.

ثامناً: الانضمام إلى الأنشطة الاجتماعية المثمرة كالأعمال الخيرية والخدمية والتنموية والتوعوية والعلمية والثقافية ورعاية المواهب والكفاءات وإيجاد فرص العمل وقضاء حوائج الناس وتزويج المتعففين فهذه كلها من الدين وقد قال تعالى ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ (الأنفال:٧٢).

ويحذّر الله تبارك وتعالى من التقاعس عن هذه النصرة ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (الأنفال:٧٣) وقد ضمّنها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حديثه

---

(١) وسائل الشيعة: ١٢٤/١٦، أبواب الأمر والنهي، باب: ح ٢٠.

عن مخاطر ترك سنة الزواج[١].

القيام الفاخمي نصرة للّه تعالى:

أيها السيدات والسادة الموالون للنبي وآله الكرام (صلوات الله عليهم أجمعين):- لقد خرجت السيدة الزهراء (عليها السلام) من دارها وهي العقيلة الخفرة التي كانت تكره الخروج من منزلها وقد قالت ذلك لأمير المؤمنين (عليه السلام) (خرجْتُ كاظمةً وعُدتُ راغمة)[٢]، لكنها خرجت تلبية لهذا النداء الإلهي العظيم، لتنصر الله تعالى ورسوله ووليّه الأعظم، ولتعيد الحق إلى نصابه، وتصون الدين من الانحراف والتشويه، وتحمي الأمة من الفساد والضلال وتستنهضهم وتستثير هممهم للدفاع عن الحق، فتخاطب الأنصار بقولها (إيها بني قيلة، وأنتم ذوو العدد والعدّة، والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجُنّة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت)[٣].

فما كان عذرهم إلا أن قالوا (يا سيدة النساء، لو كان أبو الحسن ذكر لنا هذا الأمر قبل أن يبرم العهد ويحكم العقد، لما عدلنا عنه إلى غيره) فقالت (عليها السلام)

---

(١) في الكافي والتهذيب عدة روايات معتبرة عن الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال (اذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجّوه، الا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) (وسائل الشيعة: ٧٦/٢٠ أبواب مقدمات النكاح، باب ٢٨).

(٢) الاحتجاج للطبرسي: ١٣٧/١.

(٣) الاحتجاج للطبرسي: ١٣٣/١.

(إليكم عني فلا عذر بعد تعذيركم، ولا أمر بعد تقصيركم)[١].

وببركة ذلك القيام الفاطمي المخلص لله تبارك وتعالى تعززت مسيرة نصرة الدين وإقامة أحكامه ورفض الظلم والفساد والانحراف، وسار على خطاها المؤمنون الصادقون، فلا تقصروا في الالتحاق بهذا الركب المبارك وعدم إدخار أي جهد عن نصرة الدين وأهله وهنا يحثّنا أمير المؤمنين (عليه السلام) على بذل كل الجهود في هذه المجالات المتنوعة لنصرة الله تعالى قال (عليه السلام) (أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلَا تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ)[٢].

وهذه هي الدعوة التي نعلن تلبيتها عند زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) فنقول له (لبيّك داعي الله إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك ولساني عند استنصارك فقد أجابك قلبي وسمعي وبصري)[٣].

وقد كتب الله تعالى على نفسه ان ينصر من نصره ويثبّت قدمه على الصراط المستقيم قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد:٧) وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصافات:١٧١-١٧٣) وقال تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم:٤٧) وقال تعالى ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ

(١) الاحتجاج للطبرسي: ١٤٠/١.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٨٣.

(٣) مفاتيح الجنان: ٤٧٣ الزيارة المخصوصة في أول رجب والنصف منه ومن شعبان.

رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر:٥١) أي في الدنيا والآخرة بالتمكين وقوة الحجة وظهور أمر الدين.

وقال تعالى ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج:٤٠) وقال تعالى ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ (آل عمران:١٥٠).

نعم قد يتأخر نصر الله تعالى لحكمة يعلمها ولا نعلمها، أو لتمحيص الناس وتمييز الصادق من المدعي والمخلص من المنافق ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ (الحديد:٢٥)، وقد يمرّ المؤمنون بصعاب ومكاره وشدائد تزلزل نفوسهم، إلا أنها تقوي إيمانهم وتنقّي إخلاصهم، وأنهم في النهاية هم المنتصرون ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة:٢١٤) وقال تعالى ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (يوسف:١١٠) وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأنعام:٣٤).

واعلموا أن من يتقاعس ويتخاذل ويبخل فإنه لا يضر إلا نفسه وإن الله غني عن العالمين وسيأتي بقوم آخرين يقومون بهذا الواجب ويفوزون بثوابه العظيم ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ (التوبة:٤٠) وقال تعالى ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا

غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (محمد:٣٨).

أيها الأحبة:

إن جهودكم وتضحياتكم في نصرة الدين وتعظيم هذه الشعائر الإلهية بعين الله تعالى وأوليائه العظام وهي مدّخرة لكم عنده تبارك وتعالى، وأنقلُ لكم هذه البشارة على لسان الإمام الصادق (عليه السلام) لكل الموالين العاملين المخلصين حيث فضّلهم الإمام (عليه السلام) على حواري عيسى (عليه السلام)، فقد روى الشيخ الكليني (قدس سره) بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (إِنَّ حَوَارِيَّ عِيسَى (عليه السلام) كَانُوا شِيعَتَهُ، وَإِنَّ شِيعَتَنَا حَوَارِيُّونَا، وَمَا كَانَ حَوَارِيُّ عِيسَى بِأَطْوَعَ لَهُ مِنْ حَوَارِيِّنَا لَنَا، وَإِنَّمَا قَالَ عِيسَى (عليه السلام) لِلْحَوَارِيِّينَ ﴿مَنْ أَنْصارِى إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ﴾ (آل عمران:٥٢)، فَلَا وَاللَّهِ مَا نَصَرُوهُ مِنَ الْيَهُودِ وَلَا قَاتَلُوهُمْ دُونَهُ، وَشِيعَتُنَا وَاللَّهِ لَمْ يَزَالُوا مُنْذُ قَبَضَ اللَّهُ عَزَّ ذِكْرُهُ رَسُولَهُ (صلى الله عليه وآله وسلم) يَنْصُرُونَّا وَيُقَاتِلُونَ دُونَنَا وَيُحْرَقُونَ وَيُعَذَّبُونَ وَيُشَرَّدُونَ فِي الْبُلْدَانِ جَزَاهُمُ اللَّهُ عَنَّا خَيْراً وَقَدْ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام) وَاللَّهِ لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ مُحِبِّينَا بِالسَّيْفِ مَا أَبْغَضُونَا وَوَاللَّهِ لَوْ أَدْنَيْتُ إِلَى مُبْغِضِينَا وَحَثَوْتُ لَهُمْ مِنَ الْمَالِ مَا أَحَبُّونَا)[1].

نسأل الله تعالى ان يثبّتنا على دينه وولاية أهل البيت (عليهم السلام) وان يجعلنا ممن ينتصر بهم لدينه ويرضى عنهم ببركة السيدة فاطمة الزهراء وأبيها وبعلها وبنيها والسر المستودع فيها (صلوات الله عليهم أجمعين).

---

(١) الكافي (الروضة): ٢٦٨/٨/ ح٣٩٦، تفسير البرهان: ٢٩٢/٩/ ح٢.


الحمد لله رب العالمين

الفهرس

القبس/١٦٩﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ سورة فاطر:٥ ..... ٥
القبس/١٧٠﴿أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ سورة فاطر:١٥ .... ١٢
القبس/١٧١﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ سورة فاطر:٣٢..... ٢١
موضوع القبس: القرآن الكريم يدعو الى التعامل مع الحياة بإيجابية..... ٢١
القبس/١٧٢﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ سورة يس:٨٢ ..... ٣٠
القبس/١٧٣﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ سورة الصافات:٢٤ ..... ٤٠
موضوع القبس: المسؤوليات الثابتة والمتحركة..... ٤٠
ملحق :صفات المسؤول..... ٥٣
القبس/١٧٤﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ سورة ص:٢٤ ..... ٦٩
موضوع القبس: ضع الله تعالى نصب عينيك عندما تكون في خلاف مع الآخر وانصف الناس من نفسك..... ٦٩
القبس/١٧٥﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ سورة ص:٦٢ ..... ٧٥
موضوع القبس: عاقبة التسقيط والاستهزاء الذي يتعرض له الرساليون ٧٥
القبس/١٧٦﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾سورة الزمر:٣٠..... ٨٥

موضوع القبس: دروس وعبر من وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ٨٥
القبس/١٧٧﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾سورة الزمر:٥٤..... ٩٣
موضوع القبس: دعوة إلى الرجوع إلى الله تعالى والانقياد له..... ٩٣
القبس/١٧٨﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾سورة الزمر:٦٧..... ١٠٢
القبس/١٧٩﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾ سورة الزمر:٧٣..... ١١١
موضوع القبس: لماذا يُساق المتقون الى الجنة؟..... ١١١
ملحق: الأنس بولاية أهل البيت (عليهم السلام) من أعظم نعم الجنة..... ١٢٣
القبس/١٨٠﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ سورة غافر:٥٦..... ١٢٩
موضوع القبس: داء التكبر: سوء عاقبته وأسباب علاجه..... ١٢٩
القبس/١٨١﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ سورة غافر:٦٠..... ١٤٠
موضوع القبس: الدعاء: فضله وظروف استجابته..... ١٤٠
القبس/١٨٢﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ سورة فُصلت:٣٦..... ١٥٠
موضوع القبس:الاستعاذة بالله تعالى من شياطين الجن والانس..... ١٥٠
القبس/١٨٣﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ سورة الشورى:١٣..... ١٥٨
موضوع القبس: مسؤوليتنا عن إقامة الدين ووحدة الأمة..... ١٥٨
القبس/١٨٤﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ سورة الشورى:٢٣..... ١٦٨

موضوع القبس: وجوب مودة أهل البيت (عليهم السلام) على الأمة ١٦٨
القبس/١٨٥﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ سورة الشورى: ٣٠ ..... ١٨٤
القبس/١٨٦﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ سورة الزُخرف: ٥٤ ..... ١٩٣
موضوع القبس: قابلية الشعوب على الاستعباد ١٩٣
القبس/١٨٧﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ سورة الأحقاف: ١٣ ..... ٢٠٢
موضوع القبس: الاستقامة ٢٠٢
القبس/١٨٨﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ سورة الأحقاف: ٣٥ ..... ٢١٥
موضوع القبس: لا تعاجل الذنب بالعقوبة ٢١٥
القبس/١٨٩﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ سورة محمد: ٢١٩٧
القبس/١٩٠﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾سورة محمد: ١١ ..... ٢٢٥
القبس/١٩١﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ سورة محمد: ١٩ ..... ٢٣٠
موضوع القبس: نبذ الآلهة من دون الله تعالى ٢٣٠
القبس/١٩٢﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ سورة محمد: ٣٨ ..... ٢٣٧
موضوع القبس: سنة الاستبدال ٢٣٧
القبس/١٩٣﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ سورة الفتح: ١ ..... ٢٤٣

موضوع القبس: الفتح السلمي ٢٤٣
القبس/١٩٤﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ سورة الفتح:٢ .. ٢٥٣
موضوع القبس: الله تعالى يتكفل بمعالجة تبعات العمل الرسالي ٢٥٣
ملحق: معنى استغفار المعصومين (عليهم السلام) من الذنوب ٢٦٢
القبس/١٩٥﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ....لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ سورة الفتح:٢٥ ..... ٢٧٣
القبس/١٩٦﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ سورة الفتح:٢٦ ..... ٢٨٢
موضوع القبس: السياسة النبوية المباركة في مكافحة داء التعصب ٢٨٢
القبس/١٩٧﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ سورة الحُجُرات:١٠ ..... ٢٩٩
موضوع القبس: ماذا يعني عقد المؤاخاة يوم الغدير ٢٩٩
القبس/١٩٨﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ سورة الحُجُرات:١٣..... ٣٠٣
موضوع القبس: تقييم الواقع العشائري ٣٠٣
القبس/١٩٩﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ سورة ق:٢٢ ..... ٣١٢
ملحق: الغنى والفقر بعد العرض على الله تعالى ٣١٨
القبس/٢٠٠﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ سورة الذَّاريات:٥٠ ..... ٣٢١
ملحق: الحج وصدق الفرار الى الله تعالى ٣٢٩
القبس/٢٠١ ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾سورة الرحمن:٦٠ ..... ٣٣٥

القبس/٢٠٢﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ سورة الحديد:٤ ..... ٣٤٣
موضوع القبس: المعية الإلهية ... الثمرات والمراتب ٣٤٣
القبس/٢٠٣﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ سورة الحديد:١٢ ..... ٣٥٠
موضوع القبس: موعظة من سورة الحديد ٣٥٠
القبس/٢٠٤﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ سورة المجادلة:٦ ..... ٣٦٠
موضوع القبس: ذنوبٌ قلّما نلتفت إليها ٣٦٠
ملحق: كيفية الاعتصام من الذنوب ٣٦٨
القبس/٢٠٥﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ سورة الحشر:٢ ..... ٣٧٤
موضوع القبس: أسباب انهيار الحضارات والدول ٣٧٤
القبس/٢٠٦﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ سورة الحشر:١٨ ..... ٣٨١
القبس/٢٠٧﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ سورة الممتحنة:١ ..... ٣٨٥
موضوع القبس: درس نبوي في المصالحة المجتمعية ٣٨٥
القبس/٢٠٨﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ سورة الصف:٦ ... ٣٨٩
موضوع القبس: بشارة الكتب السماوية والأنبياء السابقين (صلوات الله تعالى عليهم أجمعين) بالنبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله) ٣٨٩

القبس/٢٠٩﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ سورة الصف:١٤ ..... ٤٠١
موضوع القبس: دعوة الى نصرة دين الله تعالى وأوليائه العظام..... ٤٠١
الفهرس ٤١٣